كتبخانه تحصيص فقه اصول
شماره ثبت: ١٢٠٧١
رده:

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

21

الفقـــــه
امتداده وشموله في الإسلام
بين
المنهاج الربّاني والواقع

الدكتـور عـدنـان عـلي رضـا النحـوي

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

دار النحـــوي
للنشر والتوزيع

ⓒ دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع .- الرياض.

٢٣٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك ٠-٤٣-٦٨٧-٩٩٦٠

١- الفقه الإسلامي أ- العنوان

ديوي ٢٥٠ ١٨/٣٩٧٦

رقم الإيداع : ١٨/٣٩٧٦

ردمك : ٠-٤٣-٦٨٧-٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفون وفاكس : ٤٩٣٤٨٤٢
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الاهـــــــداء

الى أبنـاء الإسلام وجنـوده العـاملين في الميدان ، الذين يريدون أن ينصروا الله ورسوله ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في واقع المسلمين ، يمضون وهم يحملون الزاد الغنيّ من الفقه الأمين : صفاء الإيمان والتوحيد ، وصدق النيّة والعزيمة ، وقوة العلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع من خلال منهاج الله ، حتى يستطيعوا الوفاء بالأمانة التي يحملونها ، والتكاليف الرّبانيّة التي سيحاسَبون علهيا ، وحتى يُوضَع الأساس المتين الذي يلتقي عليه المؤمنون الصادقون صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، كما أمرهم الله سبحانه وتعالى .

الافتتـــــاح

﴿وهـــو الـذي أنشأكم مـن نفس واحـدة فمستقَـرٌّ ومستودع قـد فصلنا الآيـات لقومٍ يفقهـون﴾

[الأنعام : ٩٨]

﴿ وما كـان المؤمنون لينفروا كـافّة فلـولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهـوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [التوبة : ١٠٢٢]

﴿الشيطـان يعدكم الفقـر ويأمـركم بالفحشـاء والله يعدكم مغفـرة منه وفضـلاً والله واسع عليم * يؤتي الحكمـة من يشاء ومن يُـؤتَ الحكمة فقـد أوتي خيراً كثيراً وما يذكّر إلا أولوا الألباب﴾

[البقرة : ٢٦٨ ، ٢٦٩]

وعن معاويـة بن أبي سفيان قال : قـال رسول الله ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يفقهْه في الدِين» [رواه أحمد والشيخان]

مقدمة وتمهيد

كنت أُعِدُّ الموضوع : «**الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع**» ليكون الأساس والمنطلق لدراسة أُخرى هي « **فقه الإدارة الإيمانية**» .

ولقد رأيت بعد الانتهاء من الموضوع أهميته وأهمية النقاط والقضايا التي يطرقها ، فرأيت أن أُخرجه أولاً بحثاً مستقلاً يمكن أن ينضم مستقبلاً لأبحاث أخرى تكون بمجموعها الدراسة المطلوبة لكتاب «**فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية**» .

إنّ بعض هذه القضايا المطروحة في بحث هذا الكتاب سبق أن طُرحت في كتب أخرى صدرت مثل : « **دور المنهاج الرباني في الدعوة الاسلامية** » ، « **منهج المؤمن بين العلم والتطبيق** » ، « **لقاء المؤمنين** » بجزئيه ، « **النظرية العامة للدعوة الاسلامية** » ، «**نهج الدعوة وخطة التربية والبناء** » ، وغيرها .

وجميع الموضوعات التي أطرقها تخرج من نهج محدّد ونظرية عامة مفصّلة ، تنضم إلى الموضوعات الأُخرى لتكوّن كلُّها النهجَ الذي أعرضه والنظريّة التي أبيّنها ، حتى ينمو النهج ويتطور ويتجه إلى التكامل ، وليظلَّ يحمل المرونة الضرورية لملاءمة الحاجات المتجدّدة في ميدان الدعوة الإسلامية ، وسائر ميادين الممارسة الإيمانية في الواقع البشري .

هناك قضايا تثور بين الحين والآخر في واقع المسلمين ، وتنال دراسات مختلفة ، ووجهات نظر متعدّدة . ونأمل أن يكون في ذلك خير مادامت الدراسة ووجهة النظر والرأي ، وكلّ ذلك ، نابعاً من منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - وتظل الفرصة مواتية دائماً لتقريب وجهات النظر مادامت البيّنة والحجة من الكتاب والسنة ، وما دام الهدف تلبية حاجات الواقع المتجدّدة في صورة منضبطة بالكتاب والسنة .

من أجل ذلك أصبح من الضروري أن يكون هنالك نهجٌ محدّد ونظرية عامة نابعان من منهاج الله ، لضبط وجهات النظر والآراء المختلفة ، ولتتجه الآراء كلها اتجاهاً واحداً ، لايقوم فيه تصادم وتضارب . ولابُدَّ أن يرافق النهج والنظرية منهج تطبيقي عمليٌّ ونماذج

تطبيقية ، حتى يكون التصور أشمل وأعمق وأقرب إلى سلامة الممارسة الإيمانية .

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن الحق المطلق هو من عند الله ، هو في الكتاب والسنَّة ، حقّاً مطلقاً لجميع العصور والأزمان ، وجميع الشعوب والأجناس ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . إنه تنزيل من حكيم حميد . إنه الحقُّ المطلقُ غيرُ قابل للتغيير والتبديل ، كامل متكامل مترابط متناسق ، معجز كل الإعجاز ، لأنه من عند الله الذي لاإله إلا هو .

أما الجهد البشري فهو جهد قابل للخطأ والصواب ، معرّض للنقص ، لايمكن أن يبلغ الكمال . وإذا وصل الجهد البشري لقاعدة بدت لنا أنها حق في أي ميدان من ميادين الحياة ، فإنه حقٌّ جزئيّ مرتبط بظروف معيّنة في الحياة الدنيا ، أو أنه سرعان مايتبدّل حتى في ظروفه التي عُرِف فيها ، أو سرعان مايثبت خطؤه مع الأيام ، أو أنه ينمو ويتطور مع نموّ الحاجات أو نموّ المعلومات .

ويبقى الجهد البشري ، مع كل مايحمل من نقص وضعف ، خيراً للإنسان مادام منضبطاً بالحق المطلق ، بالكتاب والسنة ، بمنهاج الله ، نابعاً منه مهتدياً به . فإذا خرج عنه اضطرب وضلّ وعاد شراً على الإنسان حتى لو حمل شيئاً من الحقيقة . ذلك لأنّ أهميّة الحق أو الحقيقة لا تنحصر في النصّ الذي تحمله ، ولكنها تمتدّ إلى ممارسته وتطبيقه في واقع الإنسان ، وإلى مدى ما يُعين الإنسانَ على الاهتداء إلى الدرب القويم والصراط المستقيم والعمل الصالح ، وإلى مدى مايربط هذه الحياة الدنيا بما بعد الموت ، بالدار الآخرة .

فكثير من حقائق العلم اليوم كانت وبالاً على الناس أفنت مئات الألوف والملايين، ودعمت الظلم والفساد في الأرض ، وأطلقت العدوان والجريمة ، ونزعت الأمن والسلام ، وعزلت الإنسان عن الدار الآخرة ، فخسر الدنيا والآخرة .

شتان بين علم ، كما يسميه الناس ، يقود إلى الظلم والظلمات ، وعلم يطلق النور ويشقُّ الظلمات ويزيحها :

﴿أو من كان ميتـاً فأحييناه وجعلنا لـه نوراً يمشي به في النـاس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ماكانوا يعملون﴾ [الأنعام : ١٢٢]

في هذا الكتاب نعرض في الباب الأول قضايـا نؤمن بأهميتها في ميدان الفقه ، نؤمن بحاجتنا إليها ونوجزها بما يلي :

امتداد التكاليف والمسؤولية في الإسلام وامتداد الفقه معها .

امتداد الفقه في جميع ميادين الحياة .

العوامل المؤثرة في امتداد الفقه والمسؤوليات .

المسؤوليّة بين الوسع الصادق والوسع الكاذب .

ماهو الفقه وما هو مفهومه وتعريفه .

بين الفقه والحكمة .

الفقه بين المنهاج الرباني والواقع .

ويدخل مع هذه الموضـوعات قضايا أخرى تـرتبط بها ، ستظهر من خلال البحث إن شاء الله .

ولقـد شغلت قضية الـواقع وعلاقتـه بـالفقه بعض الأسـاتذة ، ومـال بعضهم إلى تسمية الفقه في الإسلام بفقه الواقع . وقد سبق أن درسنا علاقة الواقع بالفقه في الإسلام ، وبالإسلام من حيث التصـور والفكر والنهج في كتاب «**دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية** » وامتدّت الدراسة في كتب كثيرة . ولكننا لانرى تسمية الفقه بـ « **فقه الواقع** » بل نرى الاكتفـاء بكلمة « **الفقه** » الدالـة على جميع عناصره ، لأسباب فصّلناهـا في هذا البحث . وإذا أردنـا أن نشير إلى دور الـواقـع في الفقـه ، فيمكن أن نقـول : « **الفقـه والواقع** » .

وفي البـاب الثاني نعـرض **القـواعـد والأسس** في ثـلاث فصول تـدور حول أهميـة الإيمان بـالعلم والنهج والتخطيط في الوصـول إلى طريق النصر ، وكـذلك حول مصـدر التشريع وأبـواب الاجتهاد ، وكذلـك حول الأسس الأربعـة : الايمان والتوحيـد ، المنهاج الرباني ، الواقع ، الممارسة الإيمانية .

ويعرض البـاب الثالث : «**الفقه في الميدان**» ، خمس قضايـا : بني الإسلام على خمس ، ذكـر الله ، في سبيل الله ، أمانـة الكلمة والفكـرة ، ادع إلى سبيل ربك بالحكمـة

والموعظة الحسنة .

وأما الباب الرابع ، وهو الأخير ، «**الفقه وحضارة العصر**» ، فهو يتناول المقارنة بين عهد النبوّة الخاتمة والصحابة وبين واقع المسلمين اليوم ، والوسط والغلو ، اليسر والتيسير ، الغلو في الدين ، الموازنة وحضارة العصر الحاضر .

وكان الهدف الرئيس من عرض هذه القضايا هو ربط واقع المسلمين اليوم بالفقه الإسلامي ، كما كان الحال أيام النبوة الخاتمة والصحابة الابرار رضي الله عنهم ، وكما ءيأمرنا كتاب الله وسنة نبيّه محمد ﷺ ، ومن أجل هذا الهدف ، لا نعتبر هذا الكتاب وحده يسعى إليه ، وإنما جميع ما أصدرناه من كتب فإنها تقدم مساهمة عملية في تحقيق هذا الهدف .

ندعو الله أن يتقبَّل منا عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله طيباً بعفوه غنيًّا برحمته ، قوياً بهدايته ،

والحمد لله رب العالمين .

الرياض :

١ رجب ١٤١٨هـ

١ تشرين الثاني ١٩٩٧م

عدنان علي رضا النحوي

الباب الأول

الفقـــه

بين المنهاج الرباني والحكمة والواقع

الفصل الأول

امتداد الفقه وشموله في الإسلام

١ - كلمة تمهيدية :

نحن المسلمين اليوم بحاجة إلى أن نعيد إلى الفقه في الإسلام التصوّر الحقَّ ، التصّور الذي ينبع من الإيمان والتوحيد وما ينشأ عنه من تكاليف والتزام ومسؤولية وحساب ، والتصوّر النابع من منهاج الله - قرآناً وسنةً ولغة عربيَّة - ، ومن فهم الواقع فهماً يقوم على منهاج الله وعلى صفاء التصور الإيماني ، بعد أن تضاربت الآراء في كثير من القضايا والمواقف ، وبعد أن تفرَّق المسلمون شيعاً وأحزاباً وأقطاراً ، وبعد أن فُتِحتْ ثغرات واسعة دلف الأعداء منها بفكرهم وثقافتهم ومؤسساتهم وأجهزتهم وأسلحتهم الفتاكة .

نحن بحاجة اليوم إلى تصوّر للفقه قادر على مجابهة الأحداث وإعطاء الحكم الجليّ فيها مقرونا بالبيّنة والحجة من الكتاب والسنّة ، ومن رؤية صادقة للواقع من خلالها ، بعيداً عن الأهواء والمصالح . ولايقف الفقه عند الرؤية الصادقة وإعطاء الحكم ، وإنما يمتدّ إلى اتخاذ الموقف النابع من ذلك كله والتزامه .

لذلك كان الفقه في الدين خيراً يريده الله لمن يشاء من عباده المؤمنين :

فعن معاوية بن أبي سفيان قال قال رسول الله ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين » [رواه : أحمد والشيخان] (١)

ولن يكون الفقه خيراً إذا ابتعد عن منهاج الله وعن الواقع وفهمه من خلال منهاج الله ، أو إذا قام على الواقع وحده مع اضطراب التصوّر والأهواء .

٢ - ١ امتداد التكاليف والمسؤولية في الإسلام وامتداد الفقه معها :

وليس الفقه في الإسلام محصوراً في طبقة معيّنة من المسلمين ، ويُحجَب عن سائر

(١) أحمد : المسند : ٤/ ٩٢، ٤/ ٩٣ . الفتح الرباني : ١/ ١٤٧-١٤ / ٢٨٢ - ١٩/ ١٢٥ . مسلم : ١٢/ ٣٣/ ١٠٣٧ - ٣٣/ ٥٣/ ١٠٣٧ . البخاري : ٣/ ١٠/ ٦٧ . وكذلك صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (مجلد : ٢) (رقم : ٦٦١٨) .

المسلمين ليبقوا في جهل وتيه وجمود . الفقه في الإسلام ممتد امتداد المسؤوليات ، فكل مسلم حمل مسؤولية مُحدَّدة يحاسِبه الله عليها ، وجب عليه أن يفقه مسؤولياته ليُحسِنَ الوفاء بها وأداء الأمانة . فالرجل مسؤول في بيته ، والمرأة مسؤولة كذلك ، والموظف في وظيفته ، والطبيب في طبّه ، والمهندس في هندسته ، والتاجر في تجارته ، والسياسي والاقتصادي والإداري ، والمدرّس المربي والجنديّ والقائد ، وكلُّ مسلم في ميدان مسؤوليته محاسَب عندالله ، فلا مناص له من أن يفقه ماعليه من واجبات وأن يفقه وجه أدائها وممارستها .

وكل مسلمٍ مكلّفٍ شرعاً مسؤولٌ ومحاسَب : فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «**ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيّته . والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيِّده وهو مسؤول عنهم ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته** » . [رواه الشيخان][1]

ولا يستطيع المسلم أن يوفي مسؤوليته المكلَّف بِها إلا إذا كان له بها فقهٌ يعينه على سلامة الممارسة الإيمانية في حدود مسؤوليته ، ولايتحقّق له فقه إلا إذا عرف مسؤوليَّته وحدودَها معرفة إيمان وعلم ، وإذا قام ذلك على أساس زاد سليم من منهاج الله ليمارسه في دائرة عمله وميدان مسؤوليته .

فمنهاج الله هو الحق المطلق الكامل الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومنه ينبع الفقه كله ، وبه يعطي الله الحكمة لمن يشاء :

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم و إنه لكتاب عزيز * لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصّلت : ٤١ ، ٤٢]

وكذلك :

(١) البخاري : ٦٧ / ٩٠/ ٥٢٠٠ . مسلم : ٣٣/ ٥ / ١٨٢٩ . والنصّ لمسلم .

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [البقرة : ٢٦٩]

وكذلك :

﴿ .. واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٣١]

وعلى ضوء هذا الزاد العظيم الذي يجب أن يحمل منه كل مسلم قدر وسعه الصادق مايعينه على الوفاء بمسؤوليته ، يبيّن رسول الله ﷺ امتداد المسؤولية بين المؤمنين في حديثه الشريف :

عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لاتكونوا إمّعة تقولون إن أحسنَ الناس أَحْسَنَّا وإنْ ظلموا ظلمنا . ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا** » . [رواه الترمذي وقال حسن غريب] (١)

ويبيّن لنا الله سبحانه وتعالى أهمية مسؤولية المسلم والذين آمنوا جميعاً ، وأنها لايجوز أن تتعطَّل عند الفرد المسلم ، ولا عند الذين آمنوا إذا ضلّ آخرون : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فَيُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون** ﴾ [المائدة : ١٠٥]

عندما يتدبَّر المسلم كتاب الله وسنة رسوله ، ويعي واقعه من خلالها ، يجد الآيات البيّنات والأحاديث الشريفة التي توضح مسؤوليته وواجباته ، فما عرضناه هنا قبسات من نور فيّاض .

ولمّا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وكان أساس العلم هو منهاج الله ، أصبح من الواجب على كل مسلم أن يعرف مسؤولياته ، وأن يحمل فقه هذه المسؤوليات في ميادينه المختلفة : في بيته وعمله واختصاصه ، وأصبح المسلم على ضوء ذلك قادراً على الاجتهاد في مايُعينُه وفي حدود مسؤولياته .

---

(١) الترمذي : ٢٨/ ٦٣/ ٢٠٠٧ .

فعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنّه قال :

« **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » [رواه ابن عدي في الكامل وغيره][1]

وكل مسلم مكلّف أن يمارس منهاج الله في واقعه وفي دائرة مسؤولياته ، ولذلك أنزله الله سبحانه وتعالى للعالمين ، للناس كافة ، لكل مسلم ، ليتبعوه وحده دون غيره :

﴿ **المص * كتاب أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتُنْذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولا تتّبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكّرون** ﴾ [الأعراف : ١-٣] [2]

وكذلك :

﴿ **كتاب أنزلناه إليك ليدّبروا آياته وليتذكر أولواُ الألباب** ﴾ [ص : ٢٩]

﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ [محمد : ٢٤]

وكذلك :

﴿ **والذين يُمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين** ﴾ [الأعراف : ١٧٠]

إن الخطاب إلى الناس كافة ، وإلى المؤمنين :

﴿ **قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ...** ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (ط : ٣) - (مجلد : ٢) - (حديث : ٣٩١٣) .

(٢) ابن كثير في تفسيره : اقتفوا آثار النبيّ الأُميّ الذي جاء بكتاب أنزل إليكم . . » (ج : ٢ - ص : ٢٠٠) القرطبي : « اتبعوا القرآن والسنّة . وقالت فرقة : هذا أمر يعمّ النبيّ وأمته » (ج : ٤ - ص : ٢٥٩٦) الطبري : «اتبعوا أيها الناس . . . ، ولاتتبعوا شيئا غير ماأنزل إليكم » : (ج : ٨ - ص ١١٧) ابن عطية « يذكر ماقاله الطبري ، ثم يضيف : والظاهر أن يكون أمراً لجميع الناس » (ج : ٥ - ص : ٤٢٥) ال : « اتبعوا أي القرآن والسنة . . . » (ج : ٢- ص ١٥١٥) .

ولا خلاف بين المفسرين أن الأمر يشمل الناس فيشمل بذلك كل مسلم ، وأن التكليف هو باتباع القرآن والسنة منهجاً للحياة ، يوجّه الأمة في جميع ميادينها ، وتردُّ القضايا إليهما .

وكذلك كان القرآن الكريم للعالمين :

﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً** ﴾ [الفرقان : ١]

فالخطاب إذن موجه إلى كل مسلم ، ليتعلَّم ، وليتدَّبر ، وليُمارسَ ذلك في الواقع ، ويتَّبع ما أُنزل إليه من ربه . وهو خطاب في الوقت نفسه إلى المؤمنين ، وكذلك إلى العالمين .

وحين يستجيب المسلم إلى هذا النداء الربّاني والتكاليف الربّانية من علم وتدبّر واتباع وممارسة ، فإن أول نتائج ذلك أن يعي واقعه من خلال ذلك ، وأن يعي التكاليف التي عليه والمسؤوليات ليبني على هذا كله فقه المسلم المسؤول ، وفقه الذين آمنوا عامة .

من هنا نرى امتداد المسؤوليات من الفرد ، إلى الأسرة ، إلى الجماعة ، إلى الأُمة كلّها امتداداً متناسقاً مترابطاً متكاملاً .

فإذا امتدت المسؤوليات والتكاليف هذا الامتداد ، فإن الفقه نفسه يمتدّ معها . **فلا فقه دون مسؤولية ، ولا مسؤولية دون فقه** .

وعندما يمتدّ الفقه هذه الامتداد ، فإن الاجتهاد يمتد مع المسؤوليات والتكاليف والفقه ، كلٌّ في نطاق مسؤولياته وتكاليفه . ويؤكد لنا هذه المسؤولية وهذه الصورة من الامتداد حديث رسول الله ﷺ يرويه وابصة بن معبد الأسدي ، قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا لا أُريد أن أدع شيئا من البرّ والإثم إلا سألتُه عنه ، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه . فجعلت أتخطَّاهم ، فقالوا إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ . فقلت : دعوني فأدنو منه فإنه أحبُّ الناس إليّ أن أدنو منه . فقال : « **دعوا وابصة ! ادنُ ياوابصة .** » مرتين أو ثلاثاً . قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه فقال : «**جئت تسأل عن البر والإثم** » فقلت : نعم . فجمع أنامله فجعل ينكث بهنّ في صدري ويقول : «**ياوابصة ! استفت قلبَك واستفت نفسك** » . ، ثلاث مرات « **البرّ ما اطمأنَّت إليه النفس ، والإثم ماحاك في النفس وتردّد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك** » [رواه أحمد] (١)

نعم ! **استفتِ قلبَكَ واستفتِ نفسَك** ! ولكن ذلك بشروط واضحة جليّة لدى

أصحاب رسول الله ﷺ . فالقلب يُستفتَى حين يعمره الإيمان ولاتعبث به الأهواء ، وحين يملؤه نور العلم بمنهاج الله وبالقضية التي تشغله ، يُسْتَفتَى القلبُ حين تصدق النية خالصة لله ، وفي حدود علمه ومسؤوليته .

هكذا يجب أن يُدرك المسلم مسؤولياته والتكاليف التي عليه ، حتى لايظل إمَّعة أو جاهلاً أو لاهياً يغيب مع الأماني والأحلام ، دون النهوض إلى الجدِّ والبذل على نهج واضح ، وهكذا يمتدّ الفقه في حياة الأُمة المسلمة .

ولم يَقُمْ هذا الامتداد نظرياً فحسب ، وإنما امتدّ في مدرسة النبوّة الخاتمة علماً وتدريباً وممارسة . وامتد العلم والتدريب والممارسة بامتداد مدرسة النبوة الخاتمة ، بعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى . وظهرت آثار العلم والتدريب والممارسة عظيمة غنية في أصحاب رسول الله ﷺ وفي الخلفاء الراشدين المهديّين .

فلقد جاء القران الكريم حقاً لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلاً من حكيم حميد . جاء منهاجاً ربانياً متكاملاً يحمل العلم الحق الذي يريده الله لعباده المؤمنين .

وبعث الله نبيه محمداً ﷺ ليُبلِّغ الناس هذا المنهاج الرباني وليُبيِّنهُ لهم ، وليطبّق هذا المنهاج في حياته ﷺ . فكانت سيرته المثل الأعلى في الممارسة والتطبيق ، تمضي برعاية الله وبالوحي الكريم . فتعلم الصحابة رضي الله عنهم الكتاب والسنة ، ورأوا المثل الأعلى والنموذج الأدقّ لتطبيق هذا المنهاج . وإذا كان تطبيق الرسول ﷺ يتمّ برعاية الوحي ، فإن تطبيق الصحابة كان يتمّ برعاية النبوة الخاتمة .

فكان إذا عرضت القضية يجرى حلّها على أساس من منهاج الله . فإذا عرضت القضية ولم يكن لها نص ولا نزل بها وحي ، اجتهد رسول ﷺ ، فإذا لم يوفّق إلى الصواب نزل الوحي الكريم والنص المبين . . فكان في ذلك رحمة من الله على عباده المؤمنين مدى الدهر ، حين يهيّىء الله للناس الحق والقانون نصّاً من الآيات البيّنات ، ثم ممارسة وتطبيقاً في الواقع ، ليكون ذلك أثبت في النفوس والقلوب .

ومضى الصحابة رضي الله عنهم على هذا النهج ، يقوم كل منهم بمسؤولياته ليوفيها على قدر وسعه وطاقته . ومضى الخلفاء الراشدون على هذه السنّة العظيمة التي تعلّموها في مدرسة النبوة . فعن العرباض بن سارية قال : **وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . فقلنا يارسول الله ! كأنّها موعظة مودِّع ، فأَوْصِنَا . قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشيّ . فإنه من يَعشْ فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي . عضّوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »**

[رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة] (١)

هكذا بُني الفقه في القلوب في مدرسة النبوة الخاتمة : حق ينزل وحياً من عند الله ، يبلِّغه محمد ﷺ ، ثم يبيّنه لهم تطبيقاً وممارسةً ثم يدرّبهم عليه . ثم يمضي المؤمنون مع الأيام يجابهون المشكلات المتجدِّدة بهذه السنة النبوية .

ومثل ذلك مثل المدرس يشرح للتلامذة القانون ، ثم يعرض مشكلة أو قضية فيحلها أمام الطلاب بالقانون الذي شرح ، ليثبِّت القانون في النفوس ، ويمضي المدرس يدرّب الطلاب على تطبيق القانون وهو معهم ، ثم يعطيهم بعض القضايا يبحثون عن حلها بالقانون وحدهم . ويمضي التدريب حتى يُتقن الطلاب استخدام القانون ، يتفاوتون في المهارة والقدرة على حسب الوسع ، حتى يمتدَّ العلم بين جميع الطلاب ويعرف كل طالب مسؤوليته وحدوده .

ونحن اليوم ، يجب أن نستأنف المسيرة ، حتى يعرف كل مسلم مسؤولياته والتكاليف التي عليه وحدوده ، وحتى يتدرَّب على ممارستها وردِّها إلى منهاج الله ، ليمتدَّ الفقه امتداده الحق الطبيعيّ ، ولتستطيع الأمة المسلمة أن تعيد لمَّ صفوفها وجمع

(١) أحمد : المسند : ٤/ ١٢٦ ، الفتح : ١/ ١٨٨ - أبو داود : ٣٤/ ٦/ أ ٤٦٠٧ - الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ - ابن ماجه : المقدمة ٢٥ . صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) (حديث : ٢٥٤٩) .

قلوبها وزنودها ، والوقوف صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، كما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ، حتى يستطيعوا أن يجابهوا التحدّيات الواسعة التي تثور في عصرنا الحاضر .

إن من أهم مسؤوليات الفقه أن يوفّر الحماية للفرد من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، وللأمة كلها ، إذا صحّ الإيمان وصحّ العلم .

إن الفرد المسلم اليوم يقف أمام أعاصير هائجة في الأرض ، تكاد تجعل الحليم حيران . يكاد يتعرّض للفتنة كل لحظة . وبخاصة أولئك الذين يعيشون في ديار الفتنة اللاهبة . فإذا لم يحمل المسلم الزاد اللازم له أمام الأحداث المتجددة كل ساعة ، فكيف يستطيع أن ينجو، أو أن يضع الحلول ! .

وكيف تستطيع الأمة أن تضع النهج والخطة والحلول إذا اضطرب الزاد وغلبت الشعارات .

إنها مسؤولية كل مسلم أن يساهم قدر وسعه من خلال نهج يجمع الجهود وينسّقها ، ويوحّد الاتجاه . وإنها كذلك مسؤولية الدعاة والعلماء وأولي الأمر .

٣ - امتداد الفقه في مختلف ميادين الحياة :

لقد رأينا في الصفحات السابقة امتداد المسؤولية في المسلمين حتى كان كل مسلم مكلّف شرعاً مسؤولاً . ورأينا تبعاً لذلك امتداد الفقه من الفرد المسلم إلى الجماعة والأمة وإلى مختلف المستويات في الأمة . إنه يمتد من المسلم العادي إذا التزم بعهده مع الله ونهض لمسؤولياته ، إلى الموظف والتاجر ورئيس الدائرة والداعية والعالم المختص ، وإلى وليّ الأمر ، كلٌّ على قدر وسعه ومسؤوليته وفي ميدانها .

والفقه على أساس ذلك يمتد إلى مختلف الميادين التي يخوضها المسلم أو تخوضها الدعوة الإسلامية والأمة كلها . فيمتد الفقه إلى ميدان الأسرة والبيت وشؤونهما ، وإلى ميدان الوظيفة والإدارة في مختلف أشكالها ومستوياتها ، وإلى الهندسة والطب والتجارة ، وإلى السياسة والاقتصاد ، وإلى الاجتماع ، وإلى ميدان الجهاد والقتال وغير ذلك . ولكلٍّ

ميدان فقه ضروري لمواجهة قضاياه وأحداثه .

وامتداد الفقه هذا الامتداد إلى كافّة ميادين الحياة يقتضي شرطين أساسيين لمن يتصدّى للفقه والفتوى في أيّ ميدان من هذه الميادين : أما **الشرط الأول** فأن يكون عالماً بالكتاب والسنة كما جاءا باللغة العربية ، أي بمنهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية - وهذا الشرط عامٌّ لجميع المسلمين وكافة المستويات ، كلٌّ قدر وسعه وطاقته ومسؤولياته كما فصّلنا قبل قليل . وأما **الشرط الثاني** فأن يكون عالماً بالميدان الذي يفتي فيه ، وبواقعه وأحداثه ، علماً يسمح له بالاجتهاد .

فمن أراد أن يفتي بالاقتصاد فيجب أن يكون عالماً بمنهاج الله من ناحية وعالماً بالاقتصاد من ناحية أخرى ، وبواقع الاقتصاد ومشكلاته وخفاياه .

ولا بد أن يعمل هذان الشرطان معاً . ويظل الفقه والفتوى في حدود الوسع والطاقة ، وفي حدود المسؤولية والتكاليف . وقد تطرأ قضايا في أي ميدان من هذه الميادين لايكفيها هذان الشرطان وحدهما ، حين تحتاج بعض القضايا إلى المواهب المتميّزة في كل ميدان .

ولقد برزت المواهب المتميّزة في أصحاب رسول الله ﷺ في ميادين مختلفة ، ولكن العلم والمسؤولية والفقه ، ظلَّ ممتدّاً في حدود وسع كل مسلم وحدود علمه ومسؤوليّته :

فعن الحارث بن عميرة قال : « **لما حضرت معاذاً الوفاة بكى مَنْ حوله . فقال مايبكيكم ؟ قالوا : نبكي على العلم الذي ينقطع عنا بعد موتك . قال : إن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة . ومن ابتغاهما وجدهما : الكتاب والسنة ، فاعرضوا على الكتاب كل الكلام ولا تعرضوه على شيء من الكلام . وابتغوا العلم عند عمر وعثمان وعلي ، فإن فقدتموهم فابتغوه عند أربعة : عويمر (أبي الدرداء) ، وابن مسعود ، وسلمان ، وابن سلام الذي كان يهوديا فأسلم - رضي الله عنهم - فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : هو عاشر عشرة في الجنة . واتقوا زلّة العالم . خذوا الحق عمّن جاء به ، وردّوا الباطل على من**

(١) حياة الصحابة للكند هلوي : (ج : ٣) ، (ص : ٦٦١) وقال أخرجه الحاكم (٤/ ٤٦٦) .

جاء به كائناً من كان » [أخرجه ابن عساكر] (١)

نعم ظل العلم والفقه يمتد حتى قال عمر رضي الله عنه : « **لايبعْ في سوقنا إلا من تفقَّه في الدين** » [أخرجه الترمذي] (١)

القضايا والمشكلات في كلِّ ميدان متنوعة في طبيعتها وفي مستواها وصعوبتها . فهناك قضايا يستطيع المسلم أن يفقهها ويفتي فيها مادامت في حدود مسؤوليته وفي حدود علمه وفي حدود وسعه . فالمهندس المسلم عليه أن يفقه مايعرض له من قضايا هو مسؤول عنها ، وعليه أن يجتهد . والمدرّس والطبيب كذلك . ولكن هناك قضايا قد لايستطيع المهندس أو الطبيب أن يتصدى لها حين تكون معقَّدة . فيحيلها في هذه الحالة إلى رئيسه الذي يُفْتَرَضُ أن يكون أعلم بالدين وأعلم بالاختصاص .

وكان عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه من أبرز المواهب بين الصحابة . وكانوا يعودون إليه في كثير من القضايا . حتى قيل : « **قضية ولا أبا الحسن لها** » . وكان كذلك أبو بكر وعمر ومعاذ بن جبل وعبدالله بن مسعود وسلمان وأبو الدرداء ، وآخرون كثيرون رضي الله عنهم أجمعين .

٤ - أهم العوامل التي تؤثر في امتداد المسؤوليات وامتداد الفقه معها :

لاتمتد المسؤوليات والتكاليف وما يقوم عليها من فقه وهي متفلّتة لاتخضع لعوامل تؤثر فيها وتضبطها . ونوجز هذه العوامل هنا كما يلي :

أ - الإيمان قبل العلم :

فعن سفيان بن عبدالله الثقفي قال : قلت يارسول الله ! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « **قل آمنت بالله ثم استقم** » [رواه مسلم] (٢)

---

(١) الترمذي : أبواب الصلاة : جـ٢ - باب ماجاء في فضل الصلاة على النبي (٢١) - (حديث : ٤٨٧) . وقال حسن غريب .

(٢) مسلم : ١/ ٣٨/ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « **لقد عشت برهة من دهري وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده ، كما تعلمون أنتم القرآن . ثم رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ مابين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ، مايدري ماآمره وما زاجره وماينبغي أن يقف عنده ، وينثره نثر الدقل** » [أخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح] (١)

وعن جندب بن عبدالله قال : « **كنا مع النبيّ ﷺ ونحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً** » . [أخرجه ابن ماجة] (٢)

ب – العلم بمنهاج الله والواقع من خلاله : علماً وممارسة والخبرة الناتجة عن ذلك :

عن أبي عبدالرحمن السلمي قال : حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب محمد ﷺ أنه **كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأُخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل . فعلمنا العلم والعمل** » [أخرجه أحمد] (٣)

وعن ابن مسعود قال : « **كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم مافيه** » فقيل لشريك : من العمل ؟ قال : «نعم» [أخرجه ابن عساكر] (٤)

والعلم بمنهاج الله يدفع لوعي الواقع من خلال منهاج الله ، وعي الواقع الذي يمارس فيه المؤمن منهاج الله . وبذلك يقوم الأساس الذي يُحدِّد التكاليف وفقهها .

جـ – الوسع الصادق للإنسان وليس الوسع الكاذب : الذي يدّعيه تحت ضغط الأهواء والمصالح . إنه الوسع الذي سيحاسِبه الله عليه يوم القيامة ، وهو الوسع الذي تقوم التكاليف عليه وفي حدوده . والوسع الصادق ينبع من فطرة الإنسان السوية ،

(١) حياة الصحابة : ج : ٣ – (ص : ٦٦٣) .
(٢) ابن ماجه ١/ ٩/ ٤٩ .
(٣) أحمد : المسند : ٥/ ٤١٠ ، الفتح : ١٨/ ٢٣ وقال أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الاسناد – كتاب حياة الصحابة : (ج : ٣) ، (ص : ٦٦٤) قال الهيثمي (١/ ١٦٥) وفيه عطاء بن النائب اختلط في آخر عمره . وأخرجه بن أبي شيبة عن أبي عبدالرحمن السَّلمي نحوه (الكنز : ٢٣٢) وأخرجه ابن سعد (٦/ ١٧٢) عن أبي عبدالرحمن .
(٤) حياة الصحابة : (خ : ٣) ، ص : ٦٦٥) وقال كذا في الكنز (١/ ٢٣٢) .

ومن معدنه ، ومن نعم الله عليه :

﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت .. ﴾

[البقرة : ٢٨٦]

﴿ ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتابٌ ينطق بالحق وهم لايظلمون ﴾

[المؤمنون : ٦٢]

والناس معادن : فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا والأرواح جنود مجنّدة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف** » [رواه الشيخان] (١)

والفطرة التي فطر الله الناس عليها تحدد الوسع أيضاً . فقد أودع الله في فطرة الإنسان حقيقة الإيمان والتوحيد ، فلا يضطرب الإيمان والتوحيد ولا يغيبان إلا إذا اضطربت الفطرة أو شُوِّهت وانحرفت بما تكسب أيدي الناس . وأودع الله في الإنسان غرائز وميولاً وطاقات وقدرات ، وأودع في بعض الناسِ مواهب وقدرات متميّزة . وباختلاف الفطرة وما فيها من قدرات وطاقات وغرائز وميول ، وباختلاف المعدن كذلك ، يختلف الوسع من إنسان إلى إنسان .

﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ [الروم : ٣٠]

ويختلف الوسع أيضاً باختلاف الرزق وما ينعم الله به عليه من رزق ونعم شتى لاتُحصى ، كالمسكن والزوجة والأولاد والصحة والقوة وغير ذلك :

﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع** ﴾ [الرعد : ٢٦]

(١) مسلم : ٤٥/٤٩/٢٦٣٨ - صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ص: ٣) حديث : ٦٧٩٧ .

وكذلك :

﴿ وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدُّوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

ففي حدود هذا الوسع الصادق ، حيث يملؤه الإيمان والعلم ، تقوم المسؤوليات ويقوم فقهها ، ويصبح الإنسان ملكفاً مسؤولاً ومحاسباً ، عليه أن يفقه ويجتهد في حدود ذلك . ومن القواعد الثلاث السابقة تأتي القاعدة الرابعة التالية .

د – معرفة المسلم لمسؤولياته ، ومعرفته لحدوده على ضوء مسؤولياته ووسعه :

إنها قاعدة عظيمة من قواعد الفقه بعامة ، وقواعد الإدارة والممارسة الإيمانية وفقهها بخاصة . فالمسلم المؤمن التقيّ واعٍ يحمل الزاد الحق من منهاج الله ، ويعي واقعه من خلال منهاج الله ، فيعرف من ذلك مسؤولياته والتكاليف التي عليه . ويأتي النظام الإداري المبني على منهاج الله والواقع فيحدِّد الصلاحيات والمسؤوليات حتى يستبين المسلم حدوده :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « **من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه** » [رواه مالك والترمذي] (١)

وكلمة « **يعنيه** » هنا لا تُفهم من خلال التفلّت واللامبالاة ، وإنّما تُفْهَم من خلال الإيمان والتقوى ، والعلم والوعي ، والجدّ والعزيمة ، والبعد عن الأهواء والاسترخاء والتيه ، واحترام المسؤوليات وأمانتها .

إن الحياة الإسلامية تقوم على الجدّ والعزيمة الصادقة على عبادة الله في جميع أمور الحياة . ولايكون اللهو المباح والراحة المطلوبة والاستجمام هدفاً في حد ذاته ، ولكنه وسيلة تجمع القوة والعزيمة حتى تمضي الحياة كلها طاعة لله .

من هذا التصور يجب أن يعي المسلم مايعنيه ومالا يعنيه ، دون أن يفلّت شيئاً من

(١) الترمذي : ٣٧/ ١١/ ٢٣١٧ . مالك : باب ماجاء في حسن الخلق (حديث : ١٦٢٩)

التكاليف التي عليه ، ودون أن تضطرب الموازنة لديه ، فيطغى جانب على حساب جانب آخر .

هـ – الموازنة الأمينة : الموازنة التي تقوم على إيمان وعلم حق ، لا على أهواء ومصالح . فعندما تغلب الأهواء يُزَيِّن الشيطان بها للمسلم انحرافاً أو توقُّفاً أو تفلّتاً ، وتضطرب التكاليف في التطبيق ، ويطغى جانب على جانب . أساس الحياة الإيمانية هو العمل الصالح . والعمل الصالح ممكن في كلّ ميدان إن كان المسلم يريد حقّاً العمل الصالح الذي يُرضي الله ، فهو ينهض لكل التكاليف التي أمره الله بها ، ويوازن بينها ليبلغ العمل الصالح ، الذي لا ظلم معه ولا عدوان .

و – الحوافز الإيمانية والمبادرة الذاتية [1] وحدودها :

فكما جعل الله حدوداً للمسلم يقف عندها ، فقد زوّده أيضاً بحوافز إيمانية تدفعه إلى المبادرة الذاتية للوفاء بمسؤولياته . وتنطلق الحوافز الإيمانيّة من صفاء الإيمان وقوة العلم .

ز – أن لايخوض المسلم فيما لايعلم :

المسلم يسعى إلى الحق وإلى العمل الصالح بفقه ونهج وإدارة وتنظيم ، ولا يمكن أن يبلغ ذلك إلا إذا صفا إيمانه وعلمه . فإن جاء أمر لا علم له فيه فإنه لايفتي فيه ولا يخوض فيه . ويقول : لا أعلم . لاأدري . ثم ينظر في الأمر فإن كان من ضمن مسؤولياته وتكاليفه نهض لكي يتعلّمه ، حتى لايبقى على جهل في أمر لايحق له الجهل فيه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « **ياأيها الناس من سُئِل عن علم يعلمه فليقلْ به . ومن لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم** » إن الله تبارك وتعالى قال لنبيه : « **قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين .** » [2]

(١) يراجع كتاب : الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام للمؤلف .
(٢) حياة الصحابة للكندهلوي : ٣/ ٧٢٢ .

ح – النظام الإداري :

فالنظام الإداري يحدّد المسؤوليات والصلاحيات من ناحية ، وينسّق العلاقة بين المؤمنين ، وكذلك بين مختلف مستويات الإدارة الإيمانية . والتنسيق ضروري حتى لاتضيع الجهود ولا تتضارب .

ومن خلال ماسبق عرضه يقوم النظام الإداري ليحمل فقه الإدارة ، ويحمل الإشراف والمتابعة ، والتنسيق والتوجيه ، وييسّر التعاون والتساند .

لذلك يصدر عن النظام الإداريّ قرارات تهدف إلى تحقيق ذلك في الواقع . ويمضي هذا كله على نهج واضح وخطة جليّة من حيث المنطلق ، والدرب ، والهدف . ويكون هذا كله نابعاً من منهاج الله ملبيّاً حاجة الواقع .

الفصل الثاني

المسؤولية بين الوسع الصادق والوسع الكاذب

﴿ لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

قضية « **وسع** » الإنسان قضيّة هامة في الفكر الإسلامي ، لأنّها الأساس الذي حدّد الله بموجبه التكاليف على الإنسان . ووهب الله الناس وسعاً محدّداً يسمح لهم بالقيام بالتكاليف ، حتى يحاسبوا على ذلك يوم القيامة .

وتوالت الآيات الكريمة في القرآن الكريم تؤكد قضية الوسع وتمد من ظلالها وتبيّن دورها وأهميتها . ولنأخذ قبسات من كتاب الله لنعيش مع ظلال هذه القضيّة الهامة :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أرادا أن يُتمَّ الرضاعة وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف لاتكلّفُ نفسٌ إلا وسعها لاتضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ماآتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

هذا مثل من التكاليف الرّبانية في جوّ الأسرة في لحظات شديدة على الزوجين والأبناء ، حين يكون الزوجان على أبواب الطلاق ، وحين تثور العواطف وتضطرب النفوس ، فتأتي التكاليف على قدر وسع هذه النفوس ، لتنضبط النفوس في حدود وسعها الحقيقيّ فلا تتفلّت منه .

ولم تأت التكاليف هنا على أساس وسع طرف واحد ، وإنما على أساس وسع الزوج

ووسع الزوجة ، وعلى أساس مصلحة الأبناء ومستقبلهم وحماية الرضيع وإقرار حقوقه ليقوم الزوجان بالوفاء بهذه المسؤولية وهي في حدود وسعهما .

وقد يحاول أحدهما أن يتفلّت من هذه المسؤلية ، ويجهد نفسه باختلاق الأعذار حتى يسَوّغ تفلته ، فيهلك نفسه .

ومسؤولية أخرى وتكاليف أُخرى :

﴿ ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّة وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلّف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذاقربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون ﴾ [الأنعام : ١٥٢]

ولاتقربوا مال اليتيم . . . ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، وإذا قلتم فاعدلوا . . . ، وبعهد الله أوفوا ! .

تكاليف ربّانيَّة جليّة ! ولكنّ كثيراً من الناس يحاولون أن يتفلّتوا منها ، فيأكلون أموال اليتامى بالباطل ، ولايوفون الكيل ، ولايعدلون بالقول ، ولا يوفون بعهد ، ويختلقون الأعذار ليوهموا أنفسهم أن ذلك فوق طاقتهم ، أو يوهموا الناس بذلك . فجاء قول الله سبحانه وتعالى حاسماً فاصلاً : **﴿ ... لانكلف نفساً إلا وسعها ...﴾** وعلى هذا الوسع سيحاسبهم الله عزّ وجلّ يوم القيامة ، أو يبتليهم في الدنيا . إنها تكاليف ربّانية في حدود الوسع الذي وهبه الله للناس .

وتكليف ربّاني آخر ومسؤولية أُخرى :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾ [الأعراف : ٤٢]

تكليف رَّبانيّ عظيم ومسؤولية كبرى ولكنها في حدود الوسع الذي وهبه الله للناس . إنه : الإيمان والعمل الصالح . والله أعلم بما وهب الناس من وسع ، وأعلم بما يضع عليهم من تكاليف .

لقد جعل الله الإيمان والتوحيد في فطرة الإنسان ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليرى آيات الله المبثوثة في الكون ، وليستقبل منها البيان الجليّ بأنه لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وليستقبل بيسر رسالة الله التي بعث بها الأنبياء والمرسلين ، وليتدبّر القرآن الكريم الذي جعله الله ميسّراً ، فيؤمن ويخشع . حتى إذا آمن نهض للعمل الصالح الذي فصّله الله في منهاج الله .

الإيمان والتوحيد والعمل الصالح في وسع كل إنسان . وامتدت رحمة الله إلى أن يغفر لعبده المؤمن خطاياه وذنوبه إذا تاب وأناب . فأيّ تيسير أوضح من هذا ؟!

ومع ذلك يظل بعض الناس يتفلتون من هذه التكاليف ، فيَضِلّون ويرتكبون الآثام ، ويعملون العمل غير الصالح ، ويُضلّون غيرهم ، ليزداد حسابهم وعذابهم عند الله . إنهم يتلمسون الأعذار الكاذبة في هذه الدنيا ، ولكنها لن تنفعهم في الدار الآخرة يوم الحساب بين يدي الله ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، ولا تنفع أعذار كاذبة ، ولا أولياء أضلوهم ، ولا شياطين الإنس والجن .

وتمضي التكاليف الربّانية كلها على هذا الأساس ، على أساس وسع الإنسان كما وهبه الله .

وللإنسان بعامة وسع عام يشترك فيه الناس جميعا ، خلقه الله لهم ، وعلى أساس هذا الوسع تقوم التكاليف الربّانية العامّة من إيمان وعلم ودعوة وبلاغ وجهاد ، يقوم ذلك كله على الشعائر والأركان الخمسة التي تنهض عليها سائر التكاليف .

وجعل الله لحكمة يعلمها تفاوتاً في الوسع بين بعض الناس في مجالات وميادين أُخرى . فهذا الرجل أغنى من ذاك ، وهذا أقوى أو أضعف ، وهذا موهوب بالأدب وذاك بالطب وآخر بالهندسة ، وآخرون غير موهوبين ، فتزيد المسؤوليات على ضوء هذا الوسع الخاص من حيث حجمها ومداها ، وتقل مع آخرين حسب قدراتهم الخاصة دون أن تسقط عنهم إلا بعذر شرعيّ يقبله الله :

﴿ ألا يعلم من خلقَ وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : ١٤]

فالغنيُّ مكلف أن ينفق في سبيل الله حسب غناه ، ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق على ضوء ذلك :

﴿ ليُنفِقْ ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فليُنْفِقْ مما آتاه الله لا يكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها سيجعل الله بعد عسرٍ يسراً ﴾ [الطلاق : ٧]

وفرض الله الجهاد في سبيل الله في أبوابه المختلفة على كل مسلم ، لا يُعْذَرُ إلا أصحاب الأعذار :

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [التوبة : ٤١]

ثم قبل الله عذر أصحاب الأعذار الذين عرف صدقهم ، وأنكر أعذار الكاذبين :

﴿ وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم . ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل . والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاّ يجدوا ماينفقون . إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ﴾ [التوبة : ٩٠-٩٣]

يتعلّل المنافقون بالأعذار الكاذبة في كل وهن يصيبهم أو عجز يقعون فيه :

﴿ لايستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستئذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابتْ قلوبهم فهم في ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدّةً ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ [التوبة : ٤٤-٤٦]

وتمضي التكاليف في دين الله على الناس على أساس عادل من حكيم خبير ، لايكلّف خلقه بما هو فوق طاقتهم التي خلقهم عليها ، ولا يكلف أحداً إلا في حدود ماآتاه :

﴿ لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسُّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتّعوهنَّ على الموسع قَدَرُه وعلى المقْتر قَدَرُهُ متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين ﴾
[البقرة : ٢٣٦]

فهناك الوسع العام الصادق الذي يسع التكاليف الربانيّة التي فرضها على كل مسلم مكلّف . وهنالك الوسع الخاص الصادق الذي يختلف من مسلم إلى مسلم : **﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قَدَرُهُ ..﴾** .

فالمتاع بالمعروف هو في حدود الوسع العام الصادق : **﴿ ... متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين ﴾** . إنه في حدود الوسع العام الصادق للمحسنين ، ثمّ يختلف الأمر من محسن إلى محسن .

ويظل في جميع الحالات ناس صادقون لهم أعذارٌ صادقة تقعدهم عن بعض التكاليف ، والله أعلم بصدقهم وأعذارهم ، ولكنها قواعد ربّانيّة يبيّنها الله لنا لِتُوَجّهَ سلوكنا وبذلنا وطاعاتنا :

﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ يعذّبه عذاباً أليما ﴾

[الفتح : ١٧]

ويظل المسلم - يجتهد ويجدُّ في أبواب الطاعات مادام يجدلها سبيلاً هو قادر على بلوغه والسعي إليه .

فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**على كل مسلم صدقة** » قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال « **يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدّق** » قال : أرأيت إن لم

يستطع ؟ قال : « **يعين ذا الحاجة الملهوف** » ! قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « **يأمر بالمعروف أو الخير** » قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « **يمسك عن الشرّ فإنها صدقة** » [رواه الشيخان] (١)

ولكن يسعى المسلم إلى الطاعات ويقوم بما يطيقه حقّاً دون تراخٍ ولا كسل :

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ دخل عليها وعندها امرأة . قال : مَهْ ! **عليكم بما تطيقون ، فوا الله لا يملُّ الله حتى تملّوا . وكان أحبُّ الدين إليه ماداوم صاحبه عليه** » [رواه الشيخان] (٢)

وعن أنس رضي الله عنه قال : دخل النبيّ ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين . فقال : «**ماهذا الحبل ؟**» **قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فَتَرتْ تعلّقت . فقال النبيّ ﷺ : « لا ! حُلّوه ، ليصلِّ أحدُكم نشاطه ، فإذا فتر فليقعد** » [رواه الشيخان] (٣)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال : **هلك المتنطعون** » قالها ثلاثاً . [رواه مسلم] (١)

وتمتدّ التكاليف من الشعائر إلى العلم إلى الدعوة والبلاغ إلى الجهاد في سبيل الله . وتأتي التكاليف في كلّ ميدان على أساس من شرع ربّانيّ : هو أعلم بعباده وبوسعهم ، وبوسع كل إنسان . وتعظم التكاليف في البذل والعطاء حتى تبلغ الجود بالمال والنفس في سبيل الله .

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ١١١]

---

(١)البخاري : ٢٤/ ٣٠/ ١٤٤٥ . مسلم : ١٢/ ١٦/ ١٠٠٨ .
(٢) البخاري : ١٩/ ١٨/ ١١٥١ - مسلم : ٦/ ٣١/ ٧٨٥ .
(٣) البخاري : ١٩/ ١٨/ ١١٥٠ . مسلم : ٦/ ٣١/ ٧٨٤ .
(٤) مسلم : ٤٧/ ٤/ ٢٦٧٠ .

وتمتدّ التكاليف والمسؤوليات في منهج ربّاني معجز كلّ الإعجاز ، يأخذ كل تكليف مكانه الحق بالنسبة لوسع الإنسان ، سواء أكان ذلك بالنسبة للوسع العام للناس جميعاً أم الوسع الخاص لكل إنسان .

ويربط هذه التكاليف عهد موثق مع الله ، مفصّل في الكتاب والسنة ، بيّن جليّ ، حتى لايكون لأحد عذر في التفلّت منه أو في التقصير فيه في حدود وسعه الذي وهبه الله والذي سيحاسبه على أساسه يوم القيامة .

ويتحدّد الوسع الذي يهبه الله للإنسان على أساس من عوامل قد نعلم بعْضَها ، ونجهل بعضها الآخر . فمن هذه العوامل «**الفطرة**» التي فطر الله الناس عليها وما أودع فيها من قوى وميول وأسرار .

والفطرة ليست عضوا ماديا محدّدا في جسم الإنسان . وقد تعمل بعض الأعضاء في الإنسان في الفطرة كالقلب والدماغ والجهاز العصبي وغير ذلك . ولنتصورها يمكن أن نعتبرها « **المستودع** » الذي أودع الله فيه ما وهبه للإنسان من قدرات وميول وغرائز .

وأهم هذه القوى الإيمان والتوحيد الذي غرسه الله في فطرة الإنسان : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ [الروم : ٣٠]

وكذلك حديث رسول الله ﷺ :

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « **مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجسّانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** » ثم يقول أبو هريرة : **اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ . . . الآية .**

[رواه البخاري ومسلم وأبو داود] (١)

(١) البخاري : ٢٢/ ٧٩/ ١٣٥٨ (كتاب الجنائز وفي كتب أخرى من صحيحه) . مسلم : ٤٦/ ٦/ ٢٦٥٨ . أبو داود : ٣٤/ ١٨/ ٤٧١٤ .

ومن هذه القوى : التفكير والعاطفة ، والموهبة ، والغرائز والميول والطباع . وكأن الإيمان والتوحيد نبع يروي هذه القوى جميعها ريّاً عادلاً حتى تظلّ تعمل عملاً متوازناً تؤدي كل قوة الوظيفة التي خلقت لها . والنيّة هي التي تفتح هذا النبع ليروي . فإذا فسدت النية وانقطع الريّ عن هذه القوى أو بعضها وانعزلت عن الإيمان والتوحيد ، عملت تلك القوى عملاً غير صالح . **ففي الحالة الأُولى يكون العمل تقوى** ، وفي الثانية فجورا :

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها ﴾ [الشمس : ٧-١٠]

فجميع القوى والميول التي أودعها الله في فطرة الإنسان عامل من عوامل تحديد وسع الإنسان . ويدخل في هذا الإطار ومعناه معدن الإنسان كما جاء في الحديث الشريف :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « **الناس معادن كالذهب والفضّة خيارهم في الجاهليّة خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجنّدة فما تعارف فيها ائتلف وما تناكر اختلف** » [رواه مسلم] (١)

ومن هذا الحديث الشريف نرى أن الفقه عامل مساعد لتحديد الوسع من ناحية والمسؤولية من ناحية أُخرى . أو أن "**العلم**" الذي أمر الله المسلم بطلبه عامل يحدد الوسع كذلك . فهناك فرق بين وسع المتعلم و وسع الجاهل ، وفرق في قدرات المتعلمين والعلماء ووسعهم ، على قدر ماوهب الله لكلٍّ منهم من المواهب المتفاوتة بين الناس .

ومن العوامل التي تعين على تحديد الوسع وفهمه قوة الجسم والعافية والسلامة من الأمراض . وهذا العامل أيضاً يضع أساساً للوسع العام وأساساً للوسع الخاص كذلك . فالمعافَوْن يحملون مسؤولية عامة ، ثمَّ يختلفون في مدى قوة هذا وذاك لينشأ الوسع الخاص .

(١) مسلم : ٤٥/ ٤٩/ ٢٦٣٨ .

ومن العوامل الأخرى التي يجب التأكيد عليها هي المواهب التي يضعها الله في فطرة الناس وكيانهم ، كما أشرنا قبل قليل . ولكنها تحتاج إلى إبراز ليتحمل أصحاب المواهب مسؤولياتهم على قدر ما وهبهم الله . والمواهب تضع كذلك أساسا للوسع العام الذي يشترك فيه الموهوبون ، وللوسع الخاص الذي يتميّز به واحد عن الآخر .

وعامل آخر هو الرزق والغنى وما وهبه الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان من رزق وما وهب لذاك . فيساهم الرزق في تحديد الوسع الذي يحاسَب عليه الإنسان يوم القيامة .

وهذه العوامل كلها تساعد على **«التقوى والعمل الصالح»** مادامت مرتبطة بالإيمان والتوحيد ، مرويّة منه ريّاً عادلاً . أما إذا انعزلت عن الإيمان والتوحيد فإنها تصبح قوى فجور وفساد وفتنة ، تقود إلى عمل فاجر يسعى إليه رجل فاجر .

ويمكن أن نوجز أهم مسؤوليات الإنسان التي بيّنها الله لنا في الكتاب والسنة في إطارها العام :

١ - **التفكير** : حتى يقرر الإنسان نفسه أن يؤمن أم يكفر . ويتحمَّل مسؤولية قراره : **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمّ تتفكّروا مابصاحبكم من جنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾** [سبأ : ٤٦]

وكذلك :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ... ﴾ [الكهف : ٢٩]

٢ - **الشهادتان وأداء الشعائر لمن آمن** : لتكوّن الأركان الخمسة التي تقوم عليها المسؤوليات والإسلام كله ، كما في الحديث الشريف الذي سبق ذكره .

٣ - **طلب العلم الذي أساسه منهاج الله** : وتدبر منهاج الله والنهوض لممارسته في الواقع والوفاء بالتكاليف التي يفصلها حيث تكون هي محور الأمانة التي يحملها الإنسان .

٤ - **الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد** : لإخراج الناس من عبادة

العباد إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو ، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

٥ - النهوض إلى تحقيق الأهداف الربانيّة الثابتة في الواقع البشري : الدعوة إلى الله ورسوله ، التربية والإعداد والتدريب والبناء ، بناء الجيل المؤمن ، الجهاد في سبيل الله ، بناء الأمة المسلمة الواحدة لتكون فيها كلمة الله هي العليا ، عمارة الأرض بحضارة الإيمان والتوحيد .

على المسلم أن يوفي بهذه المسؤوليات من خلال وسعه وطاقته . فقد خُلق الإنسان لعبادة الله ، وعبادته هي الوفاء بالأمانة التي حملها ، الوفاء بالأمانة هذه تجعله خليفة في الأرض يُوفي بعهده مع الله ، محور ذلك كله نشر الإيمان والتوحيد في الأرض وعمارتها بحضارة الإيمان والتوحيد .

من خلال هذا البحث الموجز نكون قد استعرضنا قضيّتين هامَّتين أَساسيّتين سواء في ميدان الفقه وميدان الدعوة الإسلامية وسائر ميادين الحياة : **الوسع ، المسؤولية** .

وسيظل كثير من الناس يتفّلتون من مسؤولياتهم بأعذار واهية غير صادقة ، يدّعون من خلالها أنهم لايقدرون على هذه المسؤولية أو تلك ، وأنهم عاجزون عن البذل أو العطاء أو العبادة أو الدعوة أو الجهاد في سبيل الله . فتتعطل المسؤوليات تحت أعذار غير صادقة .

لذلك ، ومن خلال ماعرضنا ، ولإزالة الغموض والاضطراب نقسم «الوسع إلى قسمين على أساس اشتراك الناس فيه أوتفاوتهم :

أولاً : الوسع العام :

وهو الوسع الذي يستوي فيه الناس المكلفون شرعاً ، وعليه تقوم مسؤوليّات يشترك فيها الناس جميعاً ، لا يُعفى منها إلا أصحاب الأعذار الصادقة ، كما ذكرنا قبل قليل . وبعض هذه الأعذار آنيٌّ مؤقت يسعى المؤمن إلى تلافيه بِجِدٍّ ونشاط . فالجهل عذر مؤقت ، على المسلم أن يسعى بكل وسيلة إلى التخلّص منه ، لينهض إلى العلم الذي أمره الله بطلبه .

ثانياً : الوسع الخاص :

وهو الوسع الذي يتميّز به إنسان من إنسان : كالمواهب والرزق وقوة الجسم وغير ذلك .

ونقسم الوسع كذلك بالنسبة لصدق الأعذار أو كذبها إلى قسمين أيضاً ، نصطلح عليهما بالوسع الصادق والوسع الكاذب .

أولاً : الوسع الصادق :

وهو الوسع الذي ترسمه الآيات والأحاديث . وهو الوسع الذي وهبه الله لهذا الإنسان أو ذاك أو للناس عامة والذي سيحاسبَون عليه يوم القيامة . وهو الوسع الذي يعلمه الله لكل إنسان والذي على أساسه تقوم التكاليف والمسؤوليات ، ولا يُقبل عذر كاذب لتسويغ التفلّت منها أو التقصير فيها .

ثانياً : الوسع الكاذب :

وهو الوسع الذي يرسمه الوهم ويزيّنه الشيطان لابن آدم ، وتحدّده الأهواء والشهوات ، ليسوّغ به الإنسان تخلّفه عن مسؤولياته : كأداء الشعائر ، أو الإنفاق ، أو الدعوة إلى الله ورسوله أو الجهاد ، وغير ذلك . والإنسان بهذه الأعذار الكاذبة يهلك نفسه ، ويقع في آثام بعد آثام ، لايجد لها عذراً بين يدي الله يوم القيامة .

هذا الوسع الكاذب هو الذي انتشر بين الناس اليوم ، فقعدوا عن تكاليف الإسلام ، وما أمرهم الله به أو قاموا بقسط وتركوا قسطاً ، حتى أصبحت الميادين مفتحة لأعداء الله ولشياطين الجن والإنس ، بعد أن انحسر عنها الذين ينتسبون إلى الإسلام ، وشغلوا أنفسهم في ميادين الدنيا وزينتها وزخرفها ، وقد يغلّفون ذلك بغلاف من الإسلام ورایاته وشعاراته . ولكن الله أعلم بما في الصدور .

ولنستمع إلى قبسات من كتاب الله :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم

يـؤمنـــون * والذين هم بربهم لايشركون * والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعـون * أولئك يسـارعـون في الخيرات وهم لها سـابقـون * ولا نكلف نفساً إلا وسعهـا ولـدينـا كتـاب ينطق بـالحق وهم لايظلمـون ﴾

[المؤمنون : ٥٧-٦٢]

نعم ! صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً ، ومن أصدق منه حديثاً :

﴿ ...ولدينا كتاب ينطق بالحقّ وهم لايظلمون ﴾

إن الله يعلم حقيقـة الوسع الصـادق الـذي وهبه لكل إنسـان ، وللناس جميعـاً ، وعلى أسـاس ذلك شرع لهم التكاليف ، وعلى أسـاس ماشرع الله لهم ومـا وهبهم من وسع صادق سيحاسبهم ، فكل صغيرة وكبيرة عنده في كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون .

(١) مسلم : ٤٥/٤٩/٢٦٣٨ - صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ص: ٣) حديث : ٦٧٩٧ .

الفصل الثالث

ماهو الفقه ؟! مفهومه وتعريفه

١- مفهومه وتعريفه :

أول مايجب تأكيده هو أنَّ الفقه ، على ضوء ماعرضناه قبل قليل ، ليس أمراً محصوراً في طبقة معيّنة أو ميدان معيّن ، ولكنه محدَّد بشروط وخصائص . إن الفقه ممتد بين المسلمين ماداموا عالمين بمسؤولياتهم وحدودها على أساس من الإيمان والتقوى ، والعلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع ، قائمين بها يمارسونها في واقع الحياة ممارسة إيمانيّة .

فما هو الفقه الذي يُحصر في طبقة معيَّنة في المسلمين إذن ؟ إنه فقه المعضلات في كلِّ ميدان من الميادين . إنها المعضلات التي تحتاج ، بالإضافة إلى الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلالها ، إلى المواهب والقُدُرات المتميّزة ، إلى أولي الألباب .

في كل علم نجد أمثال ذلك : في الرياضيات نجد مشكلات وقضايا يستطيع أن يَحلَّها كلُّ من توافر لديه العلم اللازم لها من الرياضيات . ولكن هناك مشكلات وقضايا في الرياضيات تحتاج إلى الموهبة والقدرة المتميّزة . وتضيق الدائرة كلما احتاجت القضايا مواهب أكبر وأكبر .

إن الأمة التي لاترعى مواهبها ولاتغذّيها ولا تنميّها على أساس من الإيمان ومنهاج الله أمة تنتحر ، أو تضعف وتذوي وتهون . وإذا برزت المواهب على غير أساس من الإيمان ومنهاج الله ، فإنها مواهب تحمل الفتنة والفساد في الأرض . إنها مواهب الظالمين المجرمين المفسدين المعتدين .

في الإسلام ، في الأمة المسلمة ، تنمو المواهب لتحمل الخير والحق للإنسان ، وليصبح الفقه خيراً للناس كافّة ، وفي ميادين الحياة كلها .

فما هي العوامل التي يقوم عليها الفقه والتي تكوّن مفهومه ودوره ومداه ؟!

يقوم الفقه في الإسلام على عدة عوامل متماسكة أهمها : صفاء الإيمان والتوحيد ،

وصدق العلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع من خلال الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، ومعرفة المسلم لمسؤولياته وحدوده ، والخبرة التي تنمو مع الممارسة الإيمانية ، ممارسة تتميّز بالامتداد والشمول ، وبإدراك العلاقة بين القواعد الإيمانية ونصوصها في الكتاب والسنة وبين الواقع والقضايا التي يجب ردّها إلى منهاج الله ، ممارسة تمتدّ وتتسع حتى تبرز فيها المواهب والقدرات المتميّزة في العلماء والأئمة وأولي الألباب ، ممارسة في الرأي والموقف والنهج والسلوك ، ممارسة تحمل خصائصها الإيمانية وخصائص العمل الصالح ، ممارسة تمتد من حياة الفرد إلى الأسرة ، ومن الوظيفة إلى التجارة وإلى الاقتصاد والسياسة والجهاد وغير ذلك ، ومن الجماعة إلى الأُمة كلها في مختلف مستوياتها ومؤسساتها ، كلٌّ في نطاق وسعه ومسؤولياته وحدوده .

فالفقه إذن هو معرفة النصّ من الكتاب والسنّة وإدراك معناه وممارسته ، النصّ الذي يعطي الحكم الشرعيّ للقضية المطروحة في أي ميدان من ميادين الممارسة ، أو يوجّه إليه لتُعْرَفَ العلاقة بين النصّ والواقع وأحداثه ، كلٌّ على قدر وسعه وعلمه ومسؤوليّته ملتزماً بالعوامل السابق ذكرها .

الفقه في الإسلام يمثل صورة متكاملة متناسقة . إنه ليس فقه الشعائر فحسب ، يحسبها بعضهم أنها هي كل الإسلام ، ولا هي فقه المعاملات وحدها معزولة عن غيرها ، ولا فقه الحدود والتشريع وحده . إن الفقه في الإسلام لايؤخذ أجزاء منفصلة يُغني بعضها عن بعض .

فالإنسان المسلم مطالب بفقه إيماني واسع في بيته ، في تربية أبنائه ، ورعاية زوجته ومعرفة حقوق كلٌّ منهم وواجباته . إن المسلم بحاجة إلى فقه يتعامل به مع الرحم والجار والصاحب ، والقريب والبعيد ، والصديق والعدوّ . إنه فقه السياسة والحكم والاقتصاد والإدارة والجهاد وغير ذلك ، كلٌّ على قدر مسؤوليته وأمانته ، ووسعه وطاقته .

هذا هو الفقه الذي يجب على الأُمة المسلمة أن تغرسه في نفوس أبنائها ، وتنمّيه فيهم ، وتنشره في جميع مستوياتها ومؤسساتها ومعاهدها . إنها مسؤولية الدعوة الإسلامية

كـذلك أن تضع النهج والخُطة ، والمنـاهج والبرامج ، لتحقيق ذلك كلـه في أبنائهـا وهي تدعوهم وتتعهدهم بالتربية والبناء ، والإعداد والتدريب .

انها مسـؤوليـة الطـاقـة البشريـة التي تـدّعي الانتسـاب إلى الإسـلام أو إلى الـدعـوة الإسلامية ، أن تنهض لتحقّـق صدق الادعاء في ممارسة إيمانيـة ، تبني من خلالها الجيل المؤمن الذي يحمل هذا الفقه ، والذي يمضي ليحقّق الأهداف الإيمانيّة الثابتة في الواقع البشري .

من هـذا التصور للفقـه في الإسلام ينطلق فقـه الإدارة الإيمانية في الأُمـة المسلمة في مختلف ميادينها ، وفي الدعوة الإسلامية .

إن الإدارة الإيمانية ضرورة هامّة للمسلم في حياته ، وفي أُسرته ، وفي مختلف نواحي نشاطه في أُمته المسلمة وميـادينها ، على أن يحمل معه علم الإدارة وفقهها ، حتى يستطيع ممارسة الإدارة ممارسة إيمانية . وكذلك في كل ميدان .

إن واقع المسلمين اليوم يكشف لنـا مدى تأخـر نمو الفقه وتطـوره في ميدان الإدارة الإيمانية لدى بعض المسلمين ، وكذلك في ميادين الحياة الأُخرى .

إننا بحـاجة إلى أن نعيـد النظر في بعض التصـوّرات الخاطئة التي حملنـاها مـن عصور الوهن والاضطراب . فلا بد من العودة إلى صفـاء عهد النبوّة الخاتمة والخلفاء الراشدين ، على ضوء واقع المسلمين اليوم ، كما أمر رسول الله ﷺ في حديثه الذي يرويه العرباض بن سارية :

« . . . **فإنـه من يَعِش منكم فسيرى اختـلافـاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنـة الخلفـاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ** . . . » [رواه أبو داود والترمذي] (١)

٢- أبـواب الفقـه :

كثير من كتب الفقـه اعتـادت أن تقسم الأبـواب فيهـا على النحـو التـالي : بـاب العبادات ، باب المعاملات ، وغير ذلك .

و إذا نظرت في باب العبادات تجد أنه محصور في فقـه الصلاة والصوم والزكاة والحج .

(١) أبو داود : ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٧ . الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ . ابن ماجة : المقدمة حديث ٣٥ .

وكأنها هي وحدها العبادات في الإسلام . إن الإسلام يبيّن لنا أن حياة الإنسان كلها عبادة ، المعاملات هي جوهر العبادة ، والدعاء عبادة ، والجهاد في سبيل الله عبادة ، إلى غير ذلك من ميادين الحياة . ولعل تسمية تلك الموضوعات بالأركان أو الشعائر أولى . ولذلك جاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات : ٥٦]

وجاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ..** ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

﴿ **و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ..** ﴾ [البقرة : ٣٠]

وجاء قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **و إلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب** ﴾

[هود : ٦١]

وتتوالى الآيات والأحاديث لتبيّن حقيقة العبادة ومهمة الإنسان ، كل إنسان في الحياة الدنيا . إنها بصيغتها العامة مهمّة واحدة يعرضها القرآن الكريم من خلال أربعة تعبيرات : العبادة ، الأمانة ، الخلافة ، عمارة الأرض بالإيمان وحضارته . فحياة الإنسان المؤمن كلها عبادة ، أما الأركان الخمسة فهي الأساس الذي تقوم عليه العبادة كلها . ففي حديث رسول ﷺ يرويه ابن عمر رضي الله عنه : « بني الإسلام على خمس : «**شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان** » (١)

شبه الرسول ﷺ التكاليف الربانية بالبناء ، والبناء ينهض على أساس . فلا يصلح البناء دون أساس ، ولايصلح الأساس دون بناء ، إلا من قصّر به وسعه الصادق وقدراته الحقيقية لعذر يقبله الله ، فاكتفى بالأركان الخمسة .

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي . صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - حديث : ٢٨٤٠) .

٣- الفقه والمسؤولية الفردية :

إن الفقه لايتحقّق له الامتداد والشمول إلا حين تتحقّق « **المسؤولية الفرديّة** » ، لتقوم عليها مسئوولية الجماعة والأمة والناس كافة . إن «**المسؤوليّة الفردية** » ليست قضية فلسفية أو قضية اجتهاد . إنها تكاليف ربّانيّة نصَّ عليها منهاج الله ، وبلّغها الرسول ﷺ ، ونهض لها أصحابه وتلامذة مدرسته الأبرار رضي الله عنهم » (١)

إننا نريد أن يستأنف الفقه مسيرته في حياة المسلمين ، لتنهَض الأمة المسلمة ، وأبناؤها يعرفون مسؤولياتهم فيوفون أداءها . وإنها من مسؤولية الدعوة الإسلامة ومسؤولية الدعاة والعلماء وأولي الأمر ، أن يتعهَّدوا هذا الأمر وينهجوا له ليوفوا حقَّه . وإن مانعانيه اليوم ليس وليد لحظات طارئة مفاجئة لنا ، إنه نتيجة طبيعية لأمور دفع بعضُها بعضاً خلال عصور متلاحقة ، على سنن لله ثابتة وحكمة بالغة وقدر غالب ، دون أن يُسقِط ذلك كله مسؤولياتنا الفرديّة والجماعية .

عندما امتدت الفتوحات الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، دخلت في الإسلام شعوب مختلفة ، وبلغ الإسلام أقطاراً شتى . وكانت الشعوب لاتعرف العربية ولا تستطيع تدبُّر كتاب الله . ولم يكن من المتيسّر أن يتعلم الناس اللغة ويتدبروا القرآن في زمن قصير . ولكن إقبال الناس على الإسلام كان عظيماً حتى مهّد للفتوح من ناحية ويسّر إقبال الناس على اللغة العربيّة وعلى كتاب الله من ناحية أُخرى ، وكان جنود الإسلام دعاةً حقَّ الدعاة . لم يكونوا غازين لدنيا وثروات واحتلال ظالم ناهب معتدٍ . كلا ! إن الفتوحات كانت دعوةً وبلاغاً لدين الله ولرسالة الإسلام ، مما شجع الناس على الإقبال على الإسلام وعلى اللغة وعلى كتاب الله ، إقبالاً ذاتياً لا إكراه فيه ولا خداع ولا ظلم .

ففي هذه المراحل الأولى كان الدُّعاة يعلِّمون الناس الإسلام شيئاً فشيئاً الأهم فالمهم ، حتى يبلغوا درجة التكامل مع المثابرة وتوافر النهج .

وأخذ الناس يعتادون الرجوع إلى الدعاة والأئمة يستفتونهم في الصغيرة والكبيرة في

(١) يُراجع كتاب : بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية الباب الخامس - للمؤلف .

تلك المرحلة الجديدة على المسلمين .

وكان فضل الله عظيماً أن هدى أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان وعدداً من الصحابة إلى جمع صحف القرآن الكريم أولاً ، ثم إلى جمعه في مصاحف وُزِّعتْ على كلِّ قطر مصحفاً مصحفاً يتدارسه الناس . وهيَّأ الله بعد ذلك رجالاً نهضوا للسنَّة يجمعونها وينشرونها بين الناس .

خلال هذه الفترة من تاريخ المسلمين كان اعتماد كثير من الناس على العلماء والأئمة ، وقلّ الاهتمام «**بالمسؤولية الفردية**» والتكاليف الربانيَّة التي وضعها الله في عنق كل إنسان .

ويبدو أن قلة الاهتمام «**بالمسؤولية الفردية**» استمّرت في تاريخ المسلمين ، وساعد على ذلك عوامل كثيرة برزت في المجتمعات الإسلامية ، وأنظمة مختلفة ، وأفكار مبادىء شتى بدأت تتسلل إلى واقع المسلمين ، حتى أصبح عزل المسلم عن لغة القرآن والسنة قاعدة أساسيّة في مخططات المكر التي وضعها أعداء الله للمسلمين ، حتى وصلنا إلى مانحن عليه اليوم ، يستفتي المسلمُ صاحبُ الشهادات العالية بعضَ العلماء في أبسط أمور دينه التي لاتحتاج إلى اجتهاد وفتوى ، وإنما تحتاج إلى قراءة وتلاوة وتدبّر لمنهاج الله . إنّ طلب الفتوى يكشف أحياناً عن جهل لامسوِّغ له ، وعن خلل يجب معالجته .

لذلك لابدّ اليوم من أن تتكاتف جهود الدُّعاة والعلماء ومؤسسات الأمة لاستئناف المسيرة الأمينة في بناء الأجيال المؤمنة وفي بناء لقاء المؤمنين . وإن تمزَّق المسلمين اليوم شيعاً وفرقاً يقف عقبة كبيرة أمام هذه المسيرة وأمام تحقيق أي نصر للإسلام والمسلمين .

إننا ، باستئناف المسيرة الأمينة ، نستطيع أن نقيم الإدارة الإيمانية وفقهها ، ونستطيع أن نعيد للفقه الإسلامي كله الإشراقة التي حملها من النبُوَّة الخاتمة والخلفاء الراشدين والأئمة الأعلام .

خلال هذه المراحل التاريخية التي مرّ بها المسلمون ، أخذت تقلّ صلة المسلم العاديّ في المجتمع الإسلامي بمنهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية ، وأخذت هذه الصلة

تـزداد ضعفـاً مع الأيـام ، حتى هجـر كثير من المسلمين كتـاب الله ، ثمَّ أخـذت اللغـة العـربيّـة تضعـف في واقع المسلمين ، حتى ظهـر اللحن وأخـذ يـزداد ، وأصبح بعض الخلفـاء يضطـرون إلى إرسـال أولادهم إلى البـاديـة لتستقيم ألسنتهم على اللغـة العـربيـة الصحيحة . (١)

وأخـذ كثير من المسلمين يعتـادون هجر كتـاب الله ، وأخـذت هـذه العادة تمتـدّ وتنتشر ، وأخذ انتشـارها يـزداد وينمو مع ازدياد الضعف في اللغـة العربيـة . ثم أخذت تظهـر لهجات عـاميـة كثيرة تطغى في الأُمة ، حتى أصبح من يتقن اللغـة العـربية قليـلاً بالنسبة لعامة المسلمين ، وامتدت اللغة العـامية ولهجاتها إلى البوادي . ولما جاء أعداء الله لينشروا سمومهم وتفريقهم في الأمّة ، وجـدوا في الأُمة نفسها عوامل كثيرة تعينهم على نشر مفاسدهم وفتنتهم وسمومهم .

من خلال ذلك كلـه أخذ يغيب تصوّر المسؤوليـة الفردية والتكاليف الربـانية التي وضعها الله في عنق كلّ فرد مسلم ، وأخذت تضطـرب الممارسة الإيمانية ، ثم أخذ التصور لقضية الإيمان والتوحيد والبذل لها يضطرب ويضعف .

من هنـا أصبح كل عامل من عـوامل الضعف التي أشرنا لها يسـاهم في تنمية أثـر عـوامل الضعف الأخرى ، وأصبح التأثير متبـادلاً ، وأصبح الضعف في كثير من نـواحي الأمـة يشتد ويـزداد ، ولايجد دائماً العلاج الشـافي الذي يـدرك نواحي الضعف ويمتـدّ في معالجتها في الأرض والزمن .

إن مانعـانيه اليوم من هـزائم متلاحقـة لم يكن نتيجة لأحداث مفـاجئة ، وإنَّما هي أحداث متوالية ، كل حدث يُمهِّد للـذي يليه ، وتمضي الأحداث كلها على سنن الله ثابتة ، سنن ربّانيّة عادلة ، وحكمة ربّانية بالغة وقدر غالب .

إن الدعوة الإسلامية ، إذا استأنفت مسيرتها المباركة لتكون امتداداً لدعوة محمد ﷺ ،

(١) يُراجع كتاب : « لماذا اللغة العربيّة » للمؤلف .

متصلة بها مرتبطة بها ، إنها إذا فعلت ذلك تستطيع أن تشق طريقها إلى النصر الذي يتنزل من عند الله على عباده الذين صدقو ا الله ماوعدوه ، وتستطيع أن تعيد للفقه امتداده وشموله في شتى ميادين الحياة : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكذلك الإدارية ، وتعيد إلى الأدب الملتزم بالإسلام جماله المتميّز ورونقه وإشراقته ، وتعيد إلى الحياة نور الإيمان الذي يزيح الظلمات بإذن الله .

من هذا التصور يقوم «فقه الإدارة في الدعوة الإسلامية » ، ليكون قوة دافعة لفقه سائر الميادين في الحياة الإسلامية ، وليكون حاجة ماسَّة للبشرية كلها .

كتاب مختصر في الفقه وأصوله

الفصل الرابع

بين الفقه والحكمة

١- مع قبسات من الكتاب المبين :

ترد آيات كثيرة في كتاب الله وفي سور متعدّدة منه تذكر « **الحكمة** » وتقرنها بالكتاب حيناً ، وحينا آخر بالملك أو بالخير وأولي الألباب ، وبالتوراة والإنجيل ، وبالدعْوة والموعظة ، وبالتلاوة أو بالتنزيل من عند الله .

ونبدأ أولاً يأخذ قبسات من كتاب الله :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : ١٢٩]

﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١]

﴿ .. ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾

[البقرة : ٢٣١]

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكّر إلا أولو الألباب ﴾ [البقرة ٢٦٩]

﴿ ويُعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ [آل عمران : ٤٨]

﴿ ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة ... ﴾ [النحل : ١٢٥]

﴿ ذلك مما أوحى إليك ربّك من الحكمة ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ [الإسراء : ٣٩]

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن

كفر فإن الله غنيٌّ حميد . ﴾ [لقمان : ١٢]

﴿ واذكرن مايُتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ [الأحزاب : ٣٤]

﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ [ص : ٢٠]

﴿ ولما جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولأُبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [الزخرف : ٦٣]

وآيات أُخرى في سور : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والقمر والجمعة . وإني أعتقد أن القبسات التي أوردتها تكفي لبيان الظلال والمعاني التي ترد فيها كلمة الحكمة .

٢- مع قبسات من السنة :

ونورد ثانياً بعض ماورد في الأحاديث والآثار عن الحكمة :

ففي سنن الدارمي عن عون بن عبدالله عن عبدالله : «**نعم المجلس مجلسٌ يُنشَر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة** » (١)

وعن ابن عباس قال : ضمّني النبيُّ ﷺ إلى صدره وقال : « **اللهم علمه الحكمة** » . وعن عبدالوارث : وقال « **اللهم علمه الكتاب** » وقال البخاري : **الحكمة الاصابة في غير النبوّة** » (٢)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها** » (٣)

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **أتاكم أهل اليمن أَضعف قلوباً وأرق افئدة . الفقه يمان والحكمة يمانية** » (٤)

وعن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ : « **لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويعلمها** » (٥)

وعن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : «**إن من الشعر حكمة** » (٦)

---

(١) سنن الدارمي : المقدّمة : ٢٨/ ٢٩٢ .

(٢) صحيح البخاري : ٦٢/ ٢٤/ ٣٧٥٦

(٣) الترمذي : ٤٢/ ١٩/ ٢٦٨٨ - ابن ماجه : ٣٢/ ١٥/ ٤٢٢١

(٤) البخاري : ٦٤/ ٧٤/ ٤٣٩٠ .

(٥) البخاري : ٩٣/ ٣/ ٧١٤١ . (٦) البخاري : ٧٨/ ٩٠/ ٦١٤٥ .

وأحاديث أخرى كثيرة . وإني آمل أن يكون هذا القدر كافياً ليُوضِّح ظلال هذه الكلمة الكريمة ، الظلال النّدية التي توحي بها الأحاديث الشريفة ، إضافة إلى مارأيناه في القبسات من القرآن الكريم .

٣- مع كتب التفسير :

ومن المناسب بعد ذلك أن نعرض موجز ماورد في بعض كتب التفسير عن معنى الحكمة وظلالها :

ففي تفسير الطبري :

في تفسير الآية (١٢٩) من سورة البقرة يرد : الحكمة هي السنّة كما يقول قتادة . وقيل الحكمة هي المعرفة في الدين والفقه فيه . وقيل لمالك ماالحكمة قال : المعرفة في الدين والفقه في الدين والاتباع له . وقال ابن يزيد : الحكمة هي الدين الذي لايعرفونه إلا بمحمد ﷺ . والحكمة شيء يجعله الله في القلب يُنَوِّرُ به . ويقول الطبري : الصواب عندنا أنها العلم بأحكام الله التي لايدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ والمعرفة بها وما دلّ عليه ذلك من نظائره . وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل .

وعن الآية (١٥١) السابق ذكرها يقول : الحكمة : السنن والفقه في الدين .

وعن الآية (٢٥١) : يقول السدّي : الحكمة هي النبوّة .

وعن الآية (٢٦٩) : يقول الطبري : الحكمة هي الإصابة في القول والعمل . وقال بعض أهل التأويل : الحكمة في هذا الموضع هي القرآن والفقه به . وقال بعضهم : الفهم ، وآخرون : الخشية ، وآخرون : النبوّة .

وقال الطبري عن الآية (٤٨) من سورة آل عمران : الحكمة : السنة التي يُعلِّمها الله لرسوله بغير كتاب .

وعن الآية (٣٩) من سورة الإسراء : الحكمة هي القرآن .

وعن الآية (١٢) من سورة لقمان : الحكمة : الفقه في الدين والعقل والإصابة في القول .

وعند القرطبي :

فلا يختلف عما ورد عند الطبري عن الآية (١٢٩) من سورة البقرة إلا أنه أضاف : الحكمة هي القضاء خاصة .

وعن الآية (٢٦٩) من سورة البقرة أورد تفصيلات أقوال العلماء ، نوجزها بما يلي : السدي قال بأنها النبوّة . ابن عباس قال : المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره . وقتادة ومجاهد : الفقه في القرآن ، ومجاهد : الإصابة في القول والعمل . وابن زيد : الحكمة هي العقل في الدين . ومالك بن أنس كما جاء قوله عند الطبري : المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له . وروى عنه ابن القاسم بأن الحكمة هي التفكير في أمر الله والاتباع له . وقال أيضاً : طاعة الله والفقه في الدين والعمل به . والربيع بن أنس قال : الحكمة الخشية ، وإبراهيم النخعي : الفهم في القرآن . وزيد بن أسلم : الورع .

وعند ابن كثير :

لاتكاد تخرج الآراء عما سبق . وإنما يوجزها ويشير إلى تفسيرها السابق في الآيات اللاحقة ، إلا بالنسبة للآية (٢٥١) من سورة البقرة ، قال : الحكمة هي النبوّة بعد «سمويل»

وفي النهر الماد لابن حيان :

يوجز المعاني ولايفسرها في جميع الآيات ، ولايكاد يخرج عما سبق عرضه : الحكمة : القرآن والفهم فيه (الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة) .

والحكمة : وضع الأمور في مواضعها من الصواب . (الآية : ٢٥١ من سورة البقرة . والحكمة : السنة التي لم تكن في الكتاب (الآية : ٣٤ من سورة الأحزاب) .

وابن عطية :

لايخرج في تفسيره للحكمة عما ورد عند الطبري والقرطبي وغيرهما في معظم الآيات . وبالنسبة للآية : ٢٥١ من سورة البقرة عن داود عليه السلام ، يقول : الحكمة هي النبوة

والزبور . وقال : قال السدي : آتاه الله ملك طالوت ونبوة شمعون . ثم يقول بصدد تفسير الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة ، بعد أن يعرض ماقاله السابقون ، يقول : وهذه الأقوال كلها قريبة بعضها من بعض ، لأن الحكمة مصدر الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول : فكتاب الله حكمة ، وسنّة نبيّه حكمة ، وكلّ ماذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس : ويقول عن الآية : ٤٨ من سورة آل عمران : الحكمة هي السنّة التي يتكلم بها الأنبياء في الشرعيات والمواعظ ونحو ذلك مما لم يوحَ إليهم في كتاب ولا بِمَلَك ، ولكنهم يُلهَمون إليه وتقوى غرائزهم عليه . ويقول عن الآية : ٣٩ من سورة الإسراء : الحكمة : قوانين المعالي المحكمة والأفعال الفاضلة .

وأرجو أن أكون قد استعرضت موجز أهم ماورد في بعض كتب التفسير لكلمة الحكمة .

٤- مع المعاجم :

ففي لسان العرب : الحُكْمُ : الفقه والعلم والقضاء بالعدل ثم يورد مشتقّات عِدَّة ، ومن بينها الحَكَمَةُ : القُضاة ، الحِكْمةُ : العدل . وفي الصحاح : الحُكْمُ أيضاً : الحِكْمةُ من العلم . ويورد كذلك مشتقاتها مما يُعطي معاني الإحكام والقضاء والعلم والعدل ، والإحاطة كإحاطة القيد المحكم .

ومن العرض السابق كله نجد بعض الملامح الجلية لمعاني وظلال كلمة الحكمة :

١ - إنها مما يوحي به الله لأنبيائه ورسله وما يؤتيهم إياه غيرما يوحي به في الكتب المنزلة . وتأتي أحياناً بمعنى الكتاب المنزل .

٢ - إنها نعمة من نعم الله يؤتيها الله من يشاء من عباده : من الرسل والأنبياء ، أو الحكماء العقلاء ، أو الصالحين ، أو الملوك وغيرهم .

٣ - الحكمة فقه يقوم على فهم الكتاب والسنة وتدبرهما وممارستها ممارسة إيمانية وعملاً صالحاً .

٤ - إنها المعرفة في الدين والفقه به واتباعه ، ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، والفصل بين الحق والباطل .

٥ - تحمل الحكمة خصائص الإيمان والتوحيد ، حتى قال بعضهم : هي خشية الله ، والخشوع ، والورع .

٥- التعريف والمعنى الذي نختاره :

من ذلك نرى أن **الحكمة** هي فقه المواهب المتميّزة والقدرات الخاصة من المؤمنين الذين ينعم الله عليهم : بصفاء الإيمان والتوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله ، فتعرف هذه المواهب المتميّزة العلاقة بين النصّ من الكتاب والسنّة وبين أحداث الواقع ، وتملك القدرة المتميزة على إعطاء الحكم في القضايا التي تحتاج إلى تلك المواهب والعلم والإيمان في مختلف ميادين الحياة ، أو تحديد الموقف ، أو وضع النهج والخطة للممارسة والتطبيق .

وبإيجاز **الحكمة** هي الفقه ، ولكنها فقه المواهب المتميّزة في الأمة ، تقوم على جميع الأسس التي يقوم عليها الفقه بتكاملها وترابطها دون فصل بعضها عن بعض ، حتى تستطيع الموهبة الفصل بين الحق والباطل .

وتبرز **الحكمة** في ميادين الحياة المختلفة كلما صعُبت القضايا وتشابكت الأمور . فبالحكمة يمكن تحديد فقه المواقف السياسية ، وفقه الاقتصاد ، ووضع النهج والخطة ، وتقديم المناهج والنماذج ، وتوفير السبيل للتدريب وبلوغ الأمة لأهدافها الإيمانيّة الربانيّة .

من الحكمة أن يعرف المسْلِم مايعنيه ليمارسه ، ومالا يعنيه ليتركه ولايتسنّى ذلك إلا بالإيمان أولاً حتى يلجم الأهواء ، وبالعلم بمنهاج الله حتى يعرف حدوده ، وبوعي الواقع حتى يعرف مسالكه ، وبالموهبة التي ينعم الله بها على من يشاء من عباده ، ليتميّزوا بالفصل ومعرفة الحكم وتحديد الموقف واتباع النهج في حدود المسؤولية .

فالحكمة هي فقه المسؤولية والموهبة ، يجلوها العلم والتجربة والخبرة وتزيدها ألقاً ، وتمتد بامتداد المسؤولية .

هذا كله بالنسبة للحكمة في أجواء المؤمنين . ولكن هذه الكلمة : «**الحكمة**»

تحمل ظلالاً تشير إلى أنها موهبـة ينعم الله بها على من يشاء من عباده ، وأنها قـد توجد في معنى من المعاني في غير المؤمنين ، فتدفعهم إلى أعمال حسنة في ظاهرها ، لاتقبل عند الله إلا إذا ارتبطت بالإيمان والتوحيد . ويُسمّـى أمثال هؤلاء في مختلف الشعوب «**بالحكماء**» وقد عرف العرب في الجاهلية أمثال هؤلاء ، وعرفت أمثالهم شعوب أُخرى .

ونرى أن ذلك يكون ثمـرة لثلاثة أشياء تتوافر في وقت واحـد : الموهبة المتميّزة التي يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وبقايا الفطرة التي فطـر الله الناس عليها ، وبقايا أثر رسالة الأنبياء والمرسلين الذين بعث الله منهم في كل أُمة رسولا .

ولعل حديث رسول الله ﷺ الذي يـرويه أبو هريرة يشير إلى ذلك : « **الناس معادن كمعـادن الذهـب والفضة خيـارهم في الجاهليّـة خيارهـم في الإسلام إذا فقهـوا ، والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » [رواه مسلم] (١)

(١) مسلم : ٤٥/ ٤٩/ ٢٦٣٨ . صحيح الجامع الصغير وزيادتـه : (ط : ٣) ، (ج : ٢) ، (حديث ٦٧٩٧)

الفصل الخامس
الفقه بين المنهاج الرباني والواقع

برزت الرغبة مؤخّراً إلى تسمية الفقه تسمية جديدة ، فيسمون الفقه في الإسلام بـ «**فقه الواقع** » ، أو يسمون به جزءاً من الفقه أو باباً من أبوابه إذا كانوا يعتقدون أن هنالك باباً آخر من أبواب الفقه غير باب «**فقه الواقع** » .

وربما ظن البعض أن ربط الواقع بالفقه في الإسلام أمر جديد . إن علاقة الفقه بالواقع أمر ثابت بالكتاب والسنة وسيرة النبوة الخاتمة ، وحياة الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم ، وأئمة الإسلام في مختلف العصور . ولو أردنا أن نتلمس الأدلة بالأمثلة من الاجتهادات والفتاوى لطال بنا الأمر وأعجزنا حصرها ، ذلك لأن كل اجتهاد يصدر أو فتوى تُعْطَى يجب أن تأخذ في اعتبارها عدة عوامل أساسية كان الواقع أحدها ، ولكنه لم يكن العامل الوحيد ، ولا كان عاملاً يصحّ نزعه من بقيّة العوامل ليبرز عليها فيرتبط الفقه به وحده .

لذلك لانرى أن تسمية الفقه في الإسلام بفقه الواقع تسمية سلمية . إننا نطوي بهذه التسمية سائر العوامل التي يقوم عليها الفقه في الإسلام ، أو أننا نعتبر أن عامل الواقع أخطرها أو يمكن نزعه من بينها . فالعوامل التي يقوم عليها الفقه عوامل متماسكة مترابطة لايصحّ فصل بعضها عن بعض ، ولايمكن للفقه أن يقوم على عامل وحيد معزول ، ولاتبرز أهمية عامل الواقع في الفقه إلا من خلال ارتباطه بسائر العوامل ، لا من خلال انفصاله .

لقد سبق أن بحثتُ دور الواقع في الفكر الإسلامي في مختلف ميادينه النظرية والتطبيقية في كتابي : «**دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلاميّة** » في عدة فصول منه ، وفي جميع طبعاته التي صدرت اعتباراً من سنة ١٣٩٩هـ حتى طبعته السادسة . وكذلك في كتابي « **منهج المؤمن بين العلم والتطبيق** » في الباب الأول حيث تُعرض النظرية ،

وفي سائر الأبواب حيث يُعرَض التطبيق والممارسة ، وفي الباب الخامس ينحصر البحث في الفقه خاصة ودور الواقع فيه . ثم يستمر عرض الواقع بعد ذلك في كل كتاب صدر لنؤكد دور الواقع مع سائر العوامل في كل ميدان من ميادين الإسلام ، ويبرز ذلك بصورة مركَّزة في « **النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » ، التي عرضناها في أكثر من كتاب .

وأساس التصوّر الذي نعرضه هو مانستطيع وعيه من منهاج الله – قرآناً وسنّة ولغة عربيّة – . إننا نرى أن أساس التصوّر والعمل في كل ميدان هو القاعدة الصلبة «**قضية الإيمان والتوحيد** »، القضية التي تمثّل الهدف الثابت الأول في الدعوة الإسلامية وجوهرها . وعلى هذه القاعدة الصلبة ينهض ركنان أساسيّان هما :

المنهاج الرباني

الواقع الذي يُدرَس من خلال المنهاج الرباني .

وعلى هذين الركنين القائمين على القاعدة الصلبة يقوم الفكر في الإسلام ، وتقوم الممارسة الإيمانيّة ، ويقوم الفقه كله . ولايمكن فصل أحد هذين الركنين عن الآخر ، ذلك لأن المنهاج الرّبانيّ أُنزِل ليمارس في الواقع البشري ، ولأن الواقع يجب أن يُدْرَس ويفهَم من خلال منهاج الله . فالمؤمن يرى الواقع خلاف مايراه الكافر ، ويحلّله ويدرسه على أسس وقواعد تختلف عما لدى الكافر والمشرك من أُسس وقواعد .

والمسلم مدعوٌّ إلى « **الموازنة** » بين التكاليف الربّانيّة التي أُمِر بها ، ليوفي بالأمانة التي يحملها في هذه الحياة الدنيا . ولا تصدق الموازنة إلا إذا قامت على الركنين الرئيسين معاً : المنهاج الرّباني والواقع ، الركنين اللذين ينهضان على القاعدة الصلبة ويتماسكان معها – **قضية الإيمان والتوحيد** – . لذلك عرضنا في كتاب «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق » في الباب الخامس ، في الفصل الرابع الأسس التي يقوم عليها الفقه في الإسلام ، والتي تنبع كلها من الركنين الأساسيين : المنهاج الرباني والواقع ، ومن القاعدة الصلبة .

وهذا يقتضي ردَّ الواقع إلى منهاج الله كما يأمر الله سبحانه وتعالى . وهذه الأسس النابعة من الركنين والقاعدة الصلبة يمكن إيجازها بنقاط محدّدة هنا :

١ - النيّة وإخلاصها لله سبحانه وتعالى ، والتجرّد من أيّ هوى .

٢ - العلم بمنهاج الله علماً صادقاً ، علماً ممتداً مع الحياة ، نابعاً من مدرسة النبوّة الخاتمة ، وسنة الخلفاء الراشدين ، والسلف الصالح .

٣ - دراسة القضية أو الواقع من خلال منهاج الله وردّه إليه .

٤ - معرفة الحدود والتزامها ، والمسؤوليّة والوفاء بها .

٥ - جمع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تتعلق بالقضيّة أو الواقع أو تشير إليه ، دون الاعتماد على جزء وإهمال جزء آخر .

٦ - الاستعانة بما صدر عن أئمة المسلمين الأعلام مما يتعلّق بالقضية أو يعين عليها والاستئناس به ، أو الأخذ به حسب القضية المطروحة .

٧ - الشورى كلما استدعت القضية ذلك قبل إصدار الرأي أو الفتوى .

٨ - الخبرة من خلال الممارسة والمداومة على طلب العلم .

وعند دراسة الواقع تبرز لنا حالات عامة مختلفة ، حين نردّ الواقع إلى منهاج الله . ذلك أن الرأي قد يختلف أحياناً في بعض الأمور ، حين تُدْرَسُ القضية في واقع تكون فيه كلمة الله هي العليا ، أو واقع متفلّت يحكمه الشرك والكفر ، أو واقع مغلوب على أمره . فمنهاج الله أنزله الله صالحاً لكل زمان ومكان ، وليُقَدِّم الفقه للمؤمنين في جميع الظروف التي تحيط بهم أو يكونون فيها . ولكنها مسؤولية المسلمين أن يصدقوا الله في نيّاتهم حين يَرُدّون الواقع إلى منهاج الله ، دون أن يعبث بها الهوى أوالمصالح أو الخوف من غير الله .

لقد عرف التاريخ كيف أن الأهواء والمصالح كانت تعصف في بعض القلوب حتى تُفسِد النيّة ، فيفسد الاجتهاد والفتوى ، بالرغم من وجود العلم الواسع بالواقع . إن صفاء الإيمان والتوحيد ، وإخلاص النيّة وتجردها هي الأساس الأو ل للفقه ، أو هي القضيّة التي يغفل عنها الكثيرون .

وربما نجد من يلجأ إلى علمه بمنهاج الله ليؤول الآيات أو الأحاديث تأويلاً باطلاً

فاسداً ، ليسوّغ الباطل ويدعمه ، أو يخفي بعض الواقع ويكشف بعضه للغاية ذاتها من تسويغ الباطل . وتبرز خطورة هذا الأمر في واقع الإنسان اليوم ، حيث أصبح الإعلام هادراً يُدوِّي بما يشاء ليل نهار ، حتى يُقْنع الناس بالباطل والانحراف والفتنة وسوء الاجتهاد . وعند دراسة الواقع وردّه إلى منهاج الله على أساس من صفاء الإيمان والتوحيد وصدق النيّة وإخلاصها لله ، يجب أن تكون النظرة شاملة على جميع قضايا الواقع ، وفي جميع العصور والأمكنة . فلا تُدرس قضيّة من خلال منهاج الله ، ثم تدرس قضايا أُخرى من خلال الأهواء والمصالح . ولا تدرس قضايا ميدان وتهمل قضايا ميادين أُخرى .

لابد أن يُطبَّق منهاج الله على جميع قضايا الأُمة وميادينها ، فلا ينحصر الفقه في البيوع والمعاملات الشخصية مثلاً ، ولكنه يمتد إلى ساحة الدعوة الإسلامية وميادينها ، والتربية والإعداد ، والجهاد ، والاقتصاد والسياسة والاجتماع وغير ذلك من الميادين ، وحتى في ميدان الأدب .

وخلاصة ذلك أن الفقه في الإسلام يقوم على عوامل متعدّدة تعمل كلها معاً في آن واحد ، لاينفصل بعضها عن بعض ، ولا يُبْرَزُ عامل ليُخفىٰ عامل آخر .

وإن منطلق جميع العوامل ثلاث قواعد :

الإيمان والتوحيد ليمثل القاعدة الصلبة للفكر والفقه وكل الميادين.

المنهاج الرباني .

الواقع الذي يُدْرَس من خلال المنهاج الرباني .

ويمكن للإيجاز أن نعتبر أن قضية الإيمان والتوحيد هي محور المنهاج الرباني وأساس جميع مايعرضه ، وبه ترتبط كل قضايا الفكر والتشريع والقصص والترغيب والترهيب ، فنكتفي بذكر الركنين الأساسيين : المنهاج الرباني والواقع الذي يُدْرَس من خلال المنهاج الرباني .

وإذا كان لابدّ من أن نقرن الفقه في الإسلام بعامل واحد من العوامل السابقة ،

عاملٍ يكـون أرجحها وأشملها فهـو منهاج الله . فهو يشمل الـواقع ، ويضمّ قضية الإيمان والتوحيد ، ويفصّل جميع قواعد الفقه وأسسه . فهو **فقه المنهاج الرباني** . ولكنني أعتقد أن تسميته **بالفقـه** أو **فقه الإسـلام** تسمية كافيـة ، ذلك لأن كلمة «**الفقه**» أصبحت في اللغة العربيّة ، تـدلُّ وحدها على **فقه الإسلام** ، **فقه الدين** ، بامتداده وشمولـه حاملة معها جميع العوامل التي يقوم عليها **الفقه** . ولذلك جاء حديث رسول الله ﷺ :

عن معاويـة بن أبي سفيان قال قـال رسول الله ﷺ : « **من يُرِد الله به خيراً يفقّهُه في الدين**» [رواه أحمد والشيخان] (١)

فجاء التعبير النبـوي : « . . **يفقهه في الـدين** » فربـط كلمة الفقه بـالديـن كله ، ليظلّ الفقه في الإسلام ، ولتظل كلمة «**الفقه** » تشير إلى شموله وامتداده .

ومن هـذا التصوّر يمكـن أن نستخدم كلمـة «**الفقـه**» مع كلّ ميـدان من ميادينـه الخاصة ، لنبيّن أن الفقه ليس محصوراً في هذا الميدان ، وإنما هنالك فقه لميادين أخرى .

فيمكن أن نقول مثـلاً : فقه الشعائر ، فقـه الاقتصاد ، فقه السيـاسة ، حيث مع كل تعبير منها ندرك أن هنـالك فقهاً غير فقه الشعائر ، وفقهاً غير فقـه الاقتصاد ، وفقهاً غير فقه السياسة ، وهكذا . فكل ميدان من هذه الميـادين لايمثّل عاملاً رئيساً يقوم عليه الفقه كله .

أما «الواقع » فهو أحد العوامل الرئيسـة للفقه في الإسلام كما ذكرنا سابقاً . وكذلك المنهاج الربـاني . فلا يوجد فقه لايقـوم على المنهاج الربّاني والـواقع الذي يُفهم من خلال المنهاج الرباني .

وأعتقد أن الصورة التي نعـرضها يمكن أن تزداد وضوحـاً إذا عرضنا موجـز النظريّة العامّة للـدعوة الإسلامية ، النظريّـة التي نراها أساس الفكـر الإسلامي المنضبط بمنهاج الله ، وأساس العمل الإسـلامي كله في ميادينـه المختلفة ، وبذلك فهي أسـاس الفقه في الإسلام بامتداده وشموله وعوامله المختلفة .

---

(١) سبق تخريجه في ص : (١٥)

لقد استغرق عرض **النظرية العامة للدعوة الإسلامية** عدداً غير قليل من الكتب ، ولكننا هنا نورد موجزاً سريعاً عسى أن يزيد وضوح الرأي الذي نقدمه .

فالنظرية العامة للدعوة الإسلامية تتألف من البنود التالية :

١ - **القاعدة الصلبة : وهي قضيّة الايمان والتوحيد ، الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، والهدف الربانّي الاول الثابت في الدعوة الإسلامية .**

٢ - **الركنان الرئيسان وهما : المنهاج الرباني ، والواقع** الذي يدرس من خلال منهاج الله .

والقاعدة الصلبة والركنان الرئيسان يمثلان **الزاد الرئيس الاول للمسلم والداعية ، ولكل عامل في كل ميدان** . حتى اذا نزل الداعية الى الميدان وجد مشكلات كثيرة يصعب حصرها ، لو شُغِل بكل واحدة منها لما بلغ شيئا ، واستُنْفِذ جهده ووقته . ولكن هذه المشكلات كلها يمكن أن تُجمع في أربع قضايا رئيسة كبرى ، ترتبط كلُّ قضيّة جزئيّة بواحدة منها أو أكثر . وهذه القضايا والمشكلات الأربع تمثل البند الثالث من النظرية العامة .

٣ - **القضايا والمشكلات الاربع الرئيسة الكبرى وهي** : الخلل في التصور لقضية الإيمان والتوحيد وفي البذل لها ، هجر منهاج الله ، عدم دراسة الواقع من خلال منهاج الله ، الخلل في الممارسة الإيمانية .

٤ - **عناصر التنفيذ** : وهي العناصر التي يحتاجها الدعاة عند الانطلاق للعمل ، بعد دراسة الميدان وتحديد مشكلاته . وأول عناصر التنفيذ الأسس الأربعة التي كانت أولا « المشكلات والقضايا الأربع الرئيسة الكبرى » ، فإنها تتحوّل عند الدعاة الى أسس أربعة متماسكة ، بعد أن عولجت في أنفسهم ، من خلال الإعداد والبناء ، والتربية والتدريب ، لتكوّن العنصر الأول للتنفيذ ، ومنه تنطلق سائر العناصر . فتكون العناصر الضرورية للتنفيذ على النحو التالي :

أ - الأسس الأربعة التي سبق ذكرها .

ب- المنهج الإيماني للتفكير.

ج - النهج والتخطيط العام للعمل أو الدعوة الإسلامية .

د - النهج والتخطيط لكل ميدان يخوضه المسلم ، أو الأُمّة ، أو الدعاة ، أو الدعوة الإسلامية ، مثل :

د - ١ : ميدان الدعوة والبلاغ .

د - ٢ : ميدان التربية والبناء .

د - ٣ : ميدان التدريب على الممارسة الإيمانيّة .

د - ٤ : ميدان الأدب الملتزم بالإسلام وفقهه ودوره .

د - ٥ : كل ميدان آخر .

هـ - الإدارة الإيمانية : فقهها وأسسها وممارستها .

و - ميزان المؤمن .

ز - المؤسسات الإيمانيّة .

ح - التقويم الدوري بأنواعه ونماذجه المختلفة .

٥ - **المضيّ على الصراط المستقيم** : حتى ينمو الإتقان والإحسان في الجهد البشريّ المؤمن على أساس الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلالهما .

٦ - **الهدف الأكبر والأسمى في الحياة الدنيا** : الدار الآخرة ورضوان الله والجنّة- ، إذا أنجى الله عبده من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة .

وكل بند أو عنصر أو قضيّة في هذه النظرية العامة ، نال دراسات مفصلة ، ووضعت المناهج العملية والبرامج التطبيقية والنماذج لها ، على صورة تغذي نموّ الجهد البشريّ وتطوره على أساس قواعد الإيمان والتوحيد ، ومنهاج الله ، ووعي الواقع من خلال منهاج الله .

وفي هذا العرض الموجز للنظرية العامة أدخلنا تطويراً لما سبق عرضه في كتب سابقة . فقد أدخلنا المنهج الايماني للتفكير عنصرا من عناصر التنفيذ ينبع من الأسس الأربعة السابق ذكرها . وأضفنا بندين آخرين هما :

أولا : المضي على الصراط المستقيم : لينمو بذلك الإتقان والإحسان في الجهد البشري المؤمن ، واستخدمنا مصطلح الإتقان والإحسان ليشير إلى معنى النموّ والتطور في المفهوم الإيماني. فقد أصبح بنداً بدلاً من أن يكون عنصرا من عناصر التنفيذ ، ذلك لأن الاتقان والإحساس في الجهد البشري المؤمن ثمرة لممارسة عناصر التنفيذ .

ثانيا : الهدف الأكبر والأسمى للمؤمن في الحياة الدنيا .

فأصبحت البنود ستة . وكلُّ هذه الإضافات كانت متوافرة في دراسات النظرية العامة للدعوة الإسلامية في الكتب التي صدرت ، ولكنها لم تأخذ الموقع الذي أخذته الآن .

لعل هذا العرض السريع يزيد الإيضاح لدور الواقع في الفقه الإسلامي ، حتى يأخذ الفقه صورته التطبيقية العملية ، وحتى تظلّ جميع العوامل المؤثرة في الفقه متناسقة مترابطة .

ولقد درستُ علاقة الواقع ودوره في الفكر والفقه والعمل في جميع الكتب التي صدرت ، حتى في الكتب الأدبية ، مما أعطى التصوّر الشامل لدور الواقع وتماسكه مع سائر العوامل التي ترتبط كلها بالمنهاج الرباني ، من أجل قيام فقه يجابه مشكلات المسلمين اليوم ويقدّم الحلول لها .

إن بعض من يفتي اليوم ، وكذلك بعض الدعاة ، لم يهملوا الواقع ولم يغفلوا عنه . فلم يكن الواقع القضيّة التي تحتاج إلى تأكيد . ولكن القضيّة التي تحتاج إلى تأكيد اليوم هو دور المنهاج الرّباني – قرآناً وسنّة ولغة عربيّة – في الفكر وفي جميع ميادين الواقع .

لقد اهتم الأدباء بالواقع ودوره في الأدب ، ولكنّ الواقع عند بعضهم لم يُرَدَّ إلى منهاج الله ، فدلف الأدب الغربيّ ومذاهبه تحت شعار الإسلام أحياناً ! وكذلك في بعض النظريات الاقتصادية ، والنظم الإدارية كان الواقع يؤخذ بالاعتبار ، ويكون هو المسوّغ

لتحريف الحكم تحت حجة «الواقع» ، أو المصلحة العامة على إطلاقها ، دون ردّ ذلك إلى منهاج الله .

إننا اليوم بحاجة إلى تأكيد النظرة الفقهيّة التي تُبرز الأسس التي يقوم عليها الفقه ، لتظل هذه الأسس متماسكة ، تنشأ الأجيال وهي واعية لهذا التماسك ، قادرة على الاستفادة منها جميعاً .

إن المصدر الأول لنا نحن المسلمين في إدراك دور الواقع في الفكر والأدب والسياسة والفقه كله هو منهاج الله . فالمنهاج الرباني أكّد على ضرورة دراسة الواقع . فالنيّة مثلاً تصاحب المؤمن في كل عمله . ونزل القرآن الكريم منجّماً حسب الأحداث والوقائع ، حتى تعجّب الكافرون وتساءلوا وقالوا لو نُزّل جملة واحدة . والمنهاج الرباني يدعو إلى التفكّر في السموات والأرض وما بينهما وفي خلق ذلك ، حتى امتد الواقع في ميزان الإسلام أوسع امتداد . ودعا الإسلام الإنسان ليفكّر في نفسه وخلقه ، وفي الحياة والموت ، وفي النبات والحيوان والأمطار والرياح والجبال وكثير غير ذلك . ودعا القرآن الكريم إلى السير في الأرض والنظر في تاريخ الشعوب ومصائرها . وجاء التشريع الرّبانيّ علاجاً لواقع الإنسان . والقرآن الكريم الذي يدعو إل الحذر والتبصّر وعدم الغفلة وغير ذلك ، إنما يدعو المسلم ليعي الواقع ، واقعه وواقع غيره . ونرى كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على وعي الواقع وردّه إلى منهاج الله ، وكيف كان الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة في ذلك كله . ويؤكد الإسلام أن دراسة الواقع علم وليس ظنّاً ولا تخميناً ولا هوى .

ووضع الإسلام قواعد وأسساً لدراسة الواقع ، نوجزها بنقاط سريعة : [1]

١ - المنهاج الرباني يقدّم النماذج البشرية وأحوالها ونفسياتها ونشاطها .

٢ - يعرض المنهاج الرباني الفطرة البشرية وما أودع الله فيها من رغبات وقوة وضعف . وأهم من ذلك ماغرس فيها من إيمان وتوحيد ، وبيّن لنا أهمية ذلك في فهم الواقع والتعامل معه .

---

(١) دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية : للمؤلف : في طبعاته الست في بابه الأخير. الشورى وممارستها الإيمانية للمؤلف : (ط : ٣) - الباب الرابع - والباب العاشر .

٣ - يعرض لنا المنهاج الرباني مصائر الأمم وتاريخها ويربط ذلك بالإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، لتبرز الفائدة من دراسة الواقع ولنأخذ العبرة .

٤ - يعرض خصائص الإنسان ، خصائصه التي يتشابه الناس فيها ، وخصائصه التي يختلفون فيها ، وما أثر ذلك .

٥ - يعرض سنن الله الثابتة في الحياة والكون لتكون أساساً في دراسة - الأحداث من خلال منهاج الله .

٦ - يعرض نفسيّة الإنسان عامة ، ونفسيّة الجماعات ، واختلاف الشعوب .

٧ - يعرض أعداء المؤمنين ويفصّل نماذجهم ومناهجم وأساليبهم .

٨ - يوجه المؤمنين ويضع قواعد للتعامل مع ذلك كله .

٩ - ويربط ذلك كله بالإيمان والتوحيد وبمنهاج الله . فلا تجد قضيّة في كتاب الله لايربطها كتاب الله بقضية الإيمان والتوحيد وبمنهاج الله .

وقواعد أُخرى كثيرة ، كلها نابعة من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

وفي السنّة قواعد إيمانيّة هامة تضبط دراسة الواقع وتدعو إليها ، وتقدّم النماذج التطبيقية .

وكذلك كان شأن الصحابة والخلفاء الراشدين ، يعون الواقع ويردّونه إلى منهاج الله على ضوء ماتعلّموه وتدرّبوا عليه في مدرسة النبوة . وسار على ذلك أئمة الإسلام في مختلف العصور .

وكما ذكرنا سابقاً ، فلو أردنا أن نأتي بأمثلة فإن الأَمثلة لا حصر لها أبداً . ذلك لأن كلَّ اجتهاد يحتاج إلى أن تُدْرَس القضيّة المطروحة ، ثمَّ تردّ إلى منهاج الله ، ثم تُلْتزَمَ سائر القواعد الإيمانية التي سبق عرضها . ولكننا نشير إشارة سريعة إلى بعض المصادر التي توضح ذلك .

فكتاب « أعلام الموقعين » لابن قيّم الجوزية رحمه الله ، يوضح كثيراً من القواعد لدراسة الواقع وردها إلى منهاج الله . فهو يربط الفقه بشروط إيمانية وخصائص لابد من توافرها فيمن يجتهد أو يفتي . وحين يضع النظرية أو الرأي فإنه يأتي بالمثل . ولقد أفاض في شرح كتاب عمر رضي الله عنه في القضاء على أساس من القرآن والسنة ، حتى استغرق بحثه في الجزئين الأول والثاني بحدود أربعمائة وثمانين صفحة . ودرس التقليد والرأي ومنزلة السنة ، وتغيّر الفتوى بتغيّر الأزمنة والأحوال ومنزلة النيّة في الشريعة ، وتحريم الحيل ، ومنزلة فتاوى الصحابة والتابعين وأسس ذلك . وبايجاز فإنه فصّل كثيراً في الشروط التي يقوم عليها الفقه ، وما اكتفى بعامل واحد ولا حصر الفقه بصورة عامة إلا بالكتاب والسنة ، فكانا محور التأكيد والتثبيت .

وابن تيميّة رحمه الله في فتاواه أوضح أسس الفقه ، وبيَّن منزلة كل عامل ، وأكد أن أساس ذلك الكتاب والسنّة . ودرس الواقع في مجالات مختلفة ، وردها كلها إلى منهاج الله دون أن يحصر الفقه مصطلحاً أو نظرية أو تطبيقاً في عامل واحد .

وكتاب «السياسة الشرعية » في إصلاح الراعي والرعية » لابن تيمية رحمه الله نموذج تطبيقي للفقه في الإسلام : يدرس الواقع في ميدان الحكم وسياسته ويردّه إلى منهاج الله ، ويعطي الرأي جامعاً بإذن الله لجميع الأسس التي يقوم عليها الفقه .

لقد كان هذا الفقه ، وهو يقوم على جميع العوامل الشرعية نابعة كلها من منهاج الله ، دون أن يطغى عامل منها ، يقدّم العلاج للواقع إن كان فيه خلل . وما ظهر العلاج إلا بتماسك قواعد الفقه وارتباطها بمنهاج الله ، حتى تُغْلَقَ سبل الانحراف وتُسَدَّ المزالق .

وعندما غفل المسلمون عن ردّ الواقع إلى منهاج الله بالشروط الإيمانيّة ، وقعوا في اضطراب واسع وخلافات كبيرة ، وهم يدرسون الواقع ، كأنما فُقِد العامل الرئيس الذي يضبط سائر العوامل . ولم يكن الاختلاف في الرأي فحسب ، ولكنه كان كذلك في الموقف والنهج حتى بلغ هذا الاختلاف درجة الصراع والافتراق . وفُقِد الأساس الذي

يمكن أن تلتقي عليه الجهود ، لا لإنكاره فما أحد ينكره ، ولكنه لم يعد الأساس العمليّ الذي تردّ إليه الخلافات وأحداث الواقع . وكثرت الشعارات ولكن لم تتحقق في كثير من الأحيان معانيها في الواقع .

إذن لم تكن المشكلة التي تحتاج إلى معالجة في حياة المسلمين عدم دراسة الواقع أو إغفاله . الكثيرون أو الجميع يدرسون الواقع بدراسات تفصيلية . ولكن المشكلة كانت دائماً هي عدم ردّ الواقع إلى الكتاب والسنة على أساس من صفاء الإيمان والتوحيد وصدق العلم .

إن من أهم وظائف الفقه المساهمة في حل مشكلات الأمة وما تعاينه من تحدّيات . ومن أجل هذا الهدف الرئيس لابد أن يكون هنالك نهج تسير عليه مختلف الأنشطة والميادين .

وإننا نرى أن كلمة « الفقه » بشمولها أقرب لأداء المهمة . وإن حديث رسول الله ﷺ الذي سبق ذكره يقدّم لنا هذا الشمول ، حين يربط الفقه بالدين : « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** » .

وكذلك معاجم اللغة العربيّة تعطي هذا الشمول لكلمة «الفقه» ، حين تُعرِّفه بأنه غلب على الارتباط بالدين .

وحين نرى أن نكتفي بكلمة « **الفقه** » مصطلحاً ، نرى أنه من الضروري أن نقدّم نهجاً يعيننا في ميادينا المختلفة اليوم ، يقوم على أساس من الكتاب والسنّة ويلبي حاجة الواقع .

ولعل النظريّة العامة للدعوة الإسلامية التي أشرت لها سابقاً ، توضح ماذهبت إليه ، من أهمية النهج وترابط الأسس وتماسكها فيه .

ليس الخلاف إذن حول دور الواقع وأهميّته ، ولا نقصد أنَّ من يطرح مصطلح «**فقه الواقع** » يريد إلغاء دور المنهاج الرباني وسائر العوامل التي يقوم عليها الفقه .

لانقصد هذا أبداً ، فكل من طرح هذا المصطلح أجلُّ من أن يُظَنَّ به ذلك . ولكنّ القضية هي مايحمله المصطلح من إيحاءات نفسية في واقعنا اليوم وفي المستقبل ، حيث يفقد هذا المصطلح طبيعة الشمول ، شمول العوامل كلها ، الشمول الذي يحمله مصطلح « **الفقه** » وحده ، المصطلح الذي جاء في الكتاب والسنة ، ولدى علماء المسلمين في تاريخ طويل ، وأخذ من هذا كله امتداده وشموله ، وأصبح تعريف المعاجم له بهذا الشمول .

وكذلك الإيحاء النفسيّ الذي يمكن أن ينمو ويُغالى به مع الأيام ، أو يجد فيه بعضهم الفرصة لدعم مذهب من مذاهب الانحراف ، مما لم يكن يخطر ببال أحد أولاً .

فللمصطلح أثر بعيد في توجيه الفكر من حيث النظرية ومن حيث الممارسة والتطبيق . وقد لايظهر الأثر آنيّاً أو فوراً ، وإنما يبرز الأثر مع الأيام حين تسنح الفرصة للمغالاة والانحراف .

ولقد عُرِفت هذه الظاهرة كثيراً في التاريخ البشري ، وخاصّة بالنسبة لكلمة «الواقع» ، وأثرها العميق في نفسيّة الناس لارتباط الإنسان عملياً بواقعه المعاش وضغوطه عليه ، مما يولّد تصوّرات فكريّة ومذاهب تأخذ بالاتجاه إلى الانحراف ، والابتعاد عن تصوّر الغيب والدار الآخرة والتوحيد .

« **فأنتستينس** » اليوناني الذي عاش قبل أكثر من ألف سنة من الهجرة دعا إلى «الواقعية » منحرفاً عن الدين المتوارث ، والمنحرف أصلاً عن رسالة الأنبياء الذين دعوا إلى التوحيد . وانطلق مع الأيام المذهب « الفلسفي الاسمي » وكان من جملة مادعا إليه أن ترتبط المصلحات بالواقع ، وترك الألفاظ العامة الداخلة على الأنواع والأجناس مثل : «**الوجود** » وغيرها .

وفي القرن السابع الهجري تقريباً دعا "ويلهلم فون أوكام Wilhelm Von Occam» إلى إرجاع المعرفة الإنسانية كلها إلى التجربة الحسّية أو النفسية ، ثم ظهر المذهب الفلسفي التجريبي بحدود القرن الثاني عشر الهجري ، وكان ذلك كله أساس النظريّة

المادية وفلسفتها ، والعَلمانيّة والعِلمانية ، وأساس المذاهب الأدبية ، والمذاهب التي أخذت «**بالواقع**» كله ملغية الغيب والدار الآخرة .

لقد برزت هذه الانحرافات والنصرانيّة تصارع في أوروبا لتثبيت وجودها ، وفي ظل وجود الكنيسة .

لذلك أرى أن نحافظ في مصطلحاتنا على شمول الدلالة والإيحاءات ، حتى يظل الناس مرتبطين فكرياً ونفسياً وعملياً بجميع العوامل التي يقوم عليها الفكر والفقه وغيرهما . ومصطلح « الفقه » يفي بهذه الغاية . وإذا كان لابد أن نشير إلى الواقع ودوره في الفقه ، فيمكن أن نقول « **الفقه والواقع** » .

وأختم هذه الكلمة بإيراد ما ورد في المعاجم عن كلمة الفقه :

لسان العرب : الفقه العلم بالشيء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم كما غلب النجم على الثريا والعود على المندل . قال ابن الأثير : واشتقاقه من الشق والفتح ، وقد جعله العرف خاصّا بعلم الشريعة . . . »

تاج العروس : الفقه : العلم بالشيء ، وفي الصحاح الفهم له ، يقال أوتي فلان فقهاً في الدين ، وقد غلب على علم الدين لشرفه ، وذكر ماورد في لسان العرب .

معجم مقاييس اللغة : الفقه : إدراك الشيء وعلمه ثمّ اختصّ بذلك علم الشريعة . وكذلك قال الصحاح ، وقال القاموس المحيط أيضاً : وغلب على علم الدين لشرفه .

ونعرض في الصفحة التالية الرسم والمخطط لبنود «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» التي أوجزناها في صفحات سابقة .

النظرية العامة للدعوة الإسلامية

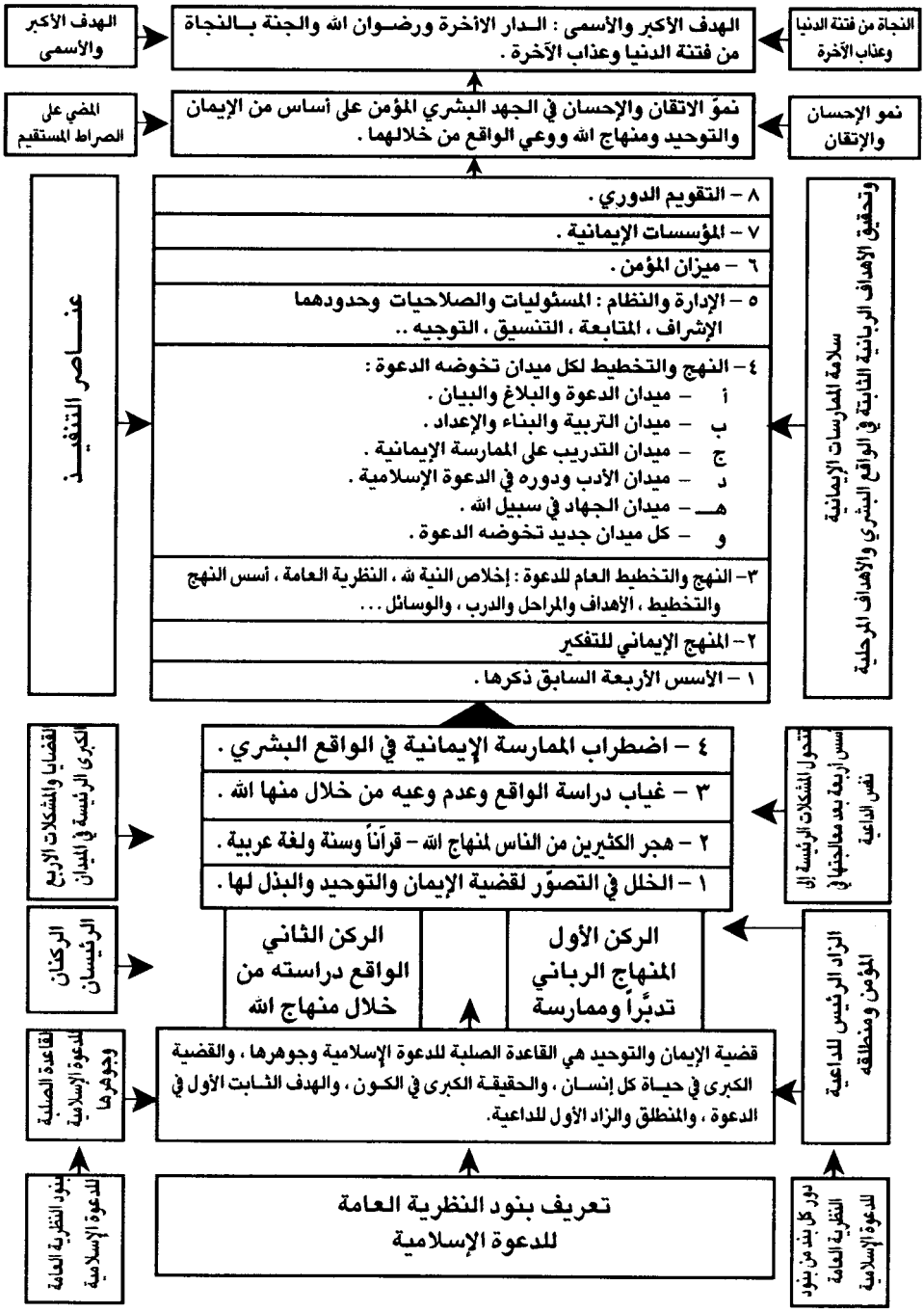

الموجز والخاتمة

ولأهمية هذا الموضوع رأينا إيجازه في نهاية هذا الباب بنقاط كما يلي

أولاً

امتداد الفقه وشموله في الإسلام

١ - **إن حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه معاوية رضي الله عنه** : « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** » حديث جامع للتصّور الفقهيّ ، يربط الفقه بالدين وبمنهاج الله ، ويجمع بذلك سائر العوامل التي يقوم عليها الفقه ، وكلها نابعة من الإيمان والتوحيد ، ومنهاج الله .

٢ - **امتداد التكاليف والمسؤولية في الإسلام جعل الفقه يمتدّ معها** . فكل مسلم مكلّفٍ مسؤول ومحاسَبٌ عن مسؤوليته . فوجب عليه أن يعرف مسؤولياته التي كلّفه الله بها كما هي مفصّلة في منهاج الله ، ووجب عليه أن يعرف كيف يمارسها ويوفي أمانتها ، وهذا يعني أنّ عليه أن يعرف فقه مسؤولياته . فالرجل في بيته مكلف بالقوامة ، والزوجة عليها مسؤوليات ، والأبناء كذلك ، والمهندس ، والطبيب ، والتاجر ، وغير ذلك . ولهذا جاء حديث رسول الله ﷺ يرويه ابن عمر رضي الله عنه : «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته . .** » وكذلك الحديث الذي يرويه حذيفة رضي الله عنه : « **لا تكونوا إمّعة . . . .** » .

جعل الله طلب العلم فريضة عل كل مسلم بحديث رسول الله ﷺ :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وكل مسلم مكلف أن يمارس إيمانه ومنهاج الله في دائرة مسؤولياته . وجاءت النصوص في الكتاب والسنة تؤكد ذلك وتلحّ به .

وكذلك الحديث الذي يرويه وابصة والذي يرد فيه : « **اسْتَفْتِ قلبك ولو أَفتاك الناس وأَفتوك . .** » حين يكون القلب عامراً بالإيمان وآخذاً نصيبه من العلم . وأساس العلم منهاج الله .

وكذلك الحديث الذي يرويه العرباض بن سارية : « . . **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي . عضّوا عليها بالنواجذ** . . » .

على هذه الأسس يجب أن تبنى أجيال المؤمنين في كل مكان وكل عصر .

٣ - امتداد الفقه في مختلف ميادين الحياة :

إن مسؤوليات المسلمين ممتدّة مع امتداد ميادين العمل . ولذلك يظل الفقه بأسسه يمتدّ مع امتداد الميادين . ويخضع الفقه مع هذا الامتداد لشرطين متلازمين : العلم بمنهاج الله كلٌّ على قدر وسعه ومسؤوليته ، والعلم بالميدان الذي يعمل فيه . ومنهما تنبع شروط أخرى . ولكن بعض القضايا تحتاج إلى المواهب المتميّزة . ونرى الإشارة إلى ذلك في قول معاذ رضي الله عنه حين حضرته الوفاة : « **إن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة ، ومن ابتغاهما وجدهما : الكتاب والسنّة ، فاعرضوا على الكتاب كلَّ الكلام ، ولاتعرضوه على شيء من الكلام . وابتغوا العلم عند عمر وعثمان وعلي ، فإن فقدتموهم فابتغوه عند أربعة . . .** » .

ويكشف لنا هذا أيضاً قول عمر رضي الله عنه : « **لايبعْ في سوقنا إلا من تفقّه في الدين** » .

٤ - أهم العَوامل التي تؤثر في امتداد المسؤوليات وامتداد الفقه معها : إن امتداد المسؤوليات والفقه ليس متفلّتاً من الضوابط . ونوجز أهم هذه العوامل والضوابط :

أ - الإيمان والتوحيد .

ب - العلم بمنهاج الله علماً وممارسة مع المداومة .

جـ - الوسع الصادق وليس الوسع الكاذب الذي تبرزه الأعذار والأهواء والمصالح . والفطرة أساس من أسس وسع الإنسان ، وكذلك ماينعم الله به على الإنسان من نعم لاتحصر .

د - معرفة المسلم لمسؤولياته ، ولحدوده على ضوء مسؤولياته ووسعه .

هـ الموازنة الأمينة التي تقوم على الأسس الأربعة السابقة .

و - الحوافز الإيمانية التي تطلق المبادرة الذاتية وتلزم المسلم حدوده .

ز - لايخوض المسلم فيما لايعلم أولا يقوى عليه أو ما كان خارج حدوده .

ح - النظام الإداري الذي يحدّد المسؤوليات والصلاحيات ، ويوفّر الإشراف والمتابعة والتوجيه والتنسيق بين مختلف المستويات ، على أن يكون النظام الإداريّ نابعاً من منهاج الله والواقع .

ط - الخبرة التي تنمو مع نموّ العلم وطلبه الدائم ونموّ الممارسة والتطبيق .

ثانياً
المسؤولية بين الوسع الصادق والوسع الكاذب

قضية « **الوسع** » قضيّة هامة في الفكر الإسلامي ، لأنها الأساس الذي حدّد الله التكاليف على الإنسان بموجبها . فلقد وهب الله للناس برحمته طاقة وقدرة ليقوموا بالأمانة التي خلقوا لها ، وليحاسبوا عليها يوم القيامة .

وتمتد قضية « **الوسع** » إلى جميع ميادين الحياة ، حياة الإنسان ، ابتداء من نشاطه الشخصي ، إلى البيت والأسرة ، إلى المجتمع والأمة ، إلى الشعوب والأمم والإنسانية كلها . فجاء التشريع ربّانياً يحدّد المسؤولية الفردية ومسؤولية الجماعة على ضوء ذلك .

فالشعائر كلها ، وأموال اليتامى ، والفرائض ، وأحكام الطلاق وغير ذلك ، وقبل ذلك كله الإيمان والتوحيد الذي جعله الله في فطرة الإنسان ، وسائر التكاليف ، قامت كلها في حدود وسع الإنسان الذي وهبه الله له ، والذي سيحاسبه عليه .

ولكن بعض الناس يتفلتون من هذه التكاليف بأعذار كاذبة يتعللون بها ، ولكنها لا تغْني عنهم شيئاً عند الله يوم الحساب ، يوم القيامة .

وجعل الله لحكمة يعلمها تفاوتاً بين الناس في بعض نواحي النشاط والتكاليف : فرجل أقوى من رجل ، وآخر أكبر موهبة ، ومنهم من هو أكثر غنى وهكذا .

ولقد كان المنافقون يتعللون بالأعذار الكاذبة عن التكاليف الشرعية . وأما الصادقون من أصحاب الأعذار فقد بينهم الله سبحانه وتعالى وقبل منهم أعذارهم .

وكما لا تقبل الأعذار الكاذبة للتفلّت والتراخي ، كذلك لايقبل الغلوّ في الطاعات غلواً يخرج الإنسان عن سنة رسول الله ﷺ. ويتحدّد الوسع بعوامل نعلمها وعوامل لايعلمها إلا الله . فالفطرة التي فطر الله الناس عليها عامل رئيس . ويمكن أن نتصور أن الفطرة مستودع القدرات والمواهب التي أودعها الله في الإنسان ، وأهمها الإيمان والتوحيد الذي يمكن أن نمثله بالنبع الغنيّ الذي يروي جميع مافي الفطرة من قوى ريّاً عادلاً متوازنا حتى تؤدي كل قوة عملها والمهمة التي خُلِقتَ لها ، وليكون عملها تقيّاً طاهراً . أما إذا انفصلت هذه الطاقة أو تلك عن الإيمان والتوحيد ولم تُرْوَ بريّة الغني ، فيصبح عملها فجوراً ، كما بيّنت لنا الآية الكريمة :

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : ٧-١٠]

ومعدن الإنسان ، ومواهبه ، ورزقه وغناه أو فقره ، وقوة بدنه وسلامته من الأمراض ، وكذلك العلم والخبرة كل ذلك من العوامل التي تحدّد الوسع للإنسان .

وعلى أساس ذلك يمكن أن نوجز أهم مسؤوليات الإنسان التي سيحاسبه الله عليها كما يلي :

١ - التفكير واتخاذ القرار : أيؤمن أم يكفر ، وتحمّل نتائج قراره .

٢ - الشهادتان والشعائر لتكوّن كلها الأركان الخمسة التي تقوم عليها سائر التكاليف والمسؤوليات والإسلام كله .

٣ - طلب العلم وتدبّر منهاج الله .

٤ - الدعوة إلى الإيمان والتوحيد .

٥ - النهوض إلى تحقيق الأهداف الربانية الثابتة .

وعلى ضوء ذلك نقسم الوسع إلى قسمين من حيث اشتراك الناس فيه أو تفاوتهم :

أولاً : الوسع العام .

ثانياً : الوسع الخاص .

ويمكن أن نقسم الوسع أيضاً من حيث صدق الأعذار أو كذبها إلى نوعين .

أولاً : الوسع الصادق الذي وهبه الله للناس والذي سيحاسبهم عليه .

ثانياً : الوسع الكاذب الذي يدّعيه الإنسان بأوهامه وأهوائه ومصلحتة الدنيوية .

ثالثاً
الفقه مفهومه وتعريفه ومداه

الفقه ، كما نلاحظ مما سبق ، مسؤولية كل مسلم في حدود وسعه وتكاليفه ومسؤوليته التي سيحاسَب عليها بين يدي الله . فالفقه ليس فقه طبقة محصورة ، يُحظر على غيرها ، إلا فقه المعضلات التي تحتاج إلى الوسع الأكبر ، والموهبة المتميّزة والتجربة والمران ، إنها تحتاج إلى أولي الألباب والعلماء الأئمة المتميّزين . والفقه يتحدَّد بشروط وأُسس إيمانية لابمستويات اجتماعية . لذلك نقول : **« يقوم الفقه على عدة عوامل متماسكة أهمها : صفاء الإيمان والتوحيد، وصدق العلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع من خلال ذلك ، ومعرفة المسلم لمسؤولياته وحدوده ، والخبرة التي تنمو مع الممارسة الإيمانية ، ممارسة تتميّز بالامتداد والشمول ، وبإدراك العلاقة بين القواعد الإيمانيّة ونصوصها في الكتاب والسنّة وبين الواقع وقضاياه حين تردّ إلى منهاج الله ، ممارسة تمتد وتتسع حتى تبرز فيها المواهب والقدرات المتميّزة في العلماء والأئمة وأولي الألباب ، ممارسة في الرأي والموقف**

والنهج والسلوك ، ممارسة تحمل خصائصها الإيمانية وخصائص العمل الصالح ، ممارسة تمتد من حياة الفرد إلى الأُسرة كلها ، ومن الوظيفة إلى التجارة والصناعة والاقتصاد والسياسة والجهاد وغير ذلك ، ومن الجماعة إلى الأمة كلها بمختلف مستوياتها ومؤسساتها ، كلٌّ في نطاق وسعه ومسؤولياته وحدوده . » .

فالفقه إذن هو معرفة النصّ من الكتاب والسنّة وإدراك معناه وممارسته ، النصّ الذي يعطي الحكم الشرعي في أي ميدان من ميادين الممارسة ، أو يوجّه إليه ، لتُعرَف العلاقة بين النصّ والواقع وأحداثه ، كلٌّ قدر وسعه وعلمه ومسؤولياته ، ملتزما بالعوامل السابق ذكرها .

الفقه في الإسلام صورة متكاملة متناسقة . إنه ليس فقه الشعائر فحسب ، يحسبها البعض أنها هي كل الإسلام ، ولا هي فقه المعاملات وحدها معزولة عن غيرها ، ولافقه أي باب أو ميدان وحده معزولاً عن غيره . فالمسلم مطالب بفقه واسع في شؤون بيته حتى يوفي الأمانة تربية وتعليماً وتدريباً وإعطاء كل ذي حق حقّه . والمسلم بحاجة إلى فقه يتعامل فيه مع القريب والجار ، والصديق والعدو . وقس على ذلك .

هذا هو الفقه الذي يجب أن نغرسه في نفوس أبنائنا وننميه ونرعاه ، من خلال نهج وخطة تطبيقية ، ليُبنى الجيل المؤمن الذي يحمل هذا الفقه ، ويحمل معه هموم أمته ، ومسؤوليته في ذلك . من هذا الفقه ينشأ فقه الإدارة الإيمانيّة ليعرف المسلم كيف يدير شؤونه ومسؤولياته في مختلف ميادين الحياة حيث ترتبط الإدارة بالنهج والتخطيط ويرتبط النهج والتخطيط بالإدارة . ولقد اعتادت كتب الفقه أن تقسم أبوابها إلى : باب العبادات ، وباب المعاملات ، وغير ذلك . ونجد أن باب العبادات لايحوي إلا الشعائر وكأنها هي وحدها العبادة . وفقه الإسلام يبيّن لنا أن حياة المسلم كلها عبادة بالشعائر والمعاملات وغيرها . ويعرض لنا القرآن الكريم مسؤولية الإنسان عامة في الحياة الدنيا من خلال أربعة تعبيرات : العبادة ، الأمانة ، الخلافة ، العمارة ، وكلها تدلّ على أمر واحد يُنظر إليه من نواحيه المتعدّدة . إلا أن الشعائر أساس ذلك كله .

ويظن بعض المسلمين أن تكاليف الإسلام هي الأركان الخمسة فحسب ، وأنه لا بأس أن يؤدي المسلم الأركان الخمسة ثم ينصرف إلى دنياه ومصالحه ، تاركاً ميادين المسلمين يخوضها أعداء الله يفسدون فيها . وبذلك يسيؤون فهم حديث رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس . . » فقد شبَّه الرسول ﷺ الإسلام كله بالبناء ، له أساس يقوم عليه . فلا يصلح البناء دون أساس ، ولا يوفّر الأساس المأوى والسكن وغير ذلك مما يوفّره البناء .

إن كثيراً من المسلمين تخلّوا عن « المسؤولية الفرديّة » التي عليها تقوم مسؤولية الجماعة والأُمة : ولعلنا ورثنا ذلك من عصور تلت الفتوح ، حين دخل في الإسلام شعوب لايعرفون العربيّة ولايتلون الكتاب ولا يعرفون السنة ، خلافاً لما كان عليه الحال في مدرسة النبوّة الخاتمة . وكانت هذه المرحلة تحتاج إلى فقهها ، فبذل الخلفاء الراشدون والصحابة رضي الله عنهم غاية جهدهم وبذلهم حين انطلقوا دعاة إلى الله ورسوله يبنون الإيمان والعلم في النفوس . ثم أخذت هذه المهمة تضمر مع الأيّام في الأجيال التي تلت .

إننا باستئناف المسيرة الأمينة اليوم نحتاج إلى إعادة المسؤولية الفرديّة في الإسلام إلى سابق إشراقتها الإيمانية لتقوم مسؤولية الجماعة والأمة على أسس سليمة ، بعد أن أصبح كثير من المسلمين يجهلون اللغة العربيّة ويهجرون كتاب الله ، ويتفلتون من مسؤولياتهم التي كلفهم الله بها .

رابعاً

بين الفقه والحكمة

ترتبط كلمة الحكمة في القرآن الكريم بقضايا متعددة وبكلمات أخرى ، ترسم كلها ظلالها ومداها . فهي ترتبط : بالملك ، والخير ، وأولي الألباب ، والكتاب ، والتوراة ، والإنجيل ، وغير ذلك . وقد وردت آراء متعددة في معنى كلمة الحكمة في

القـرآن الكريم . ونميـل إلى أن نفهم من كلمة الحكمـة من خـلال الآيـات الكريمـة أنها «**الفقه الذي تحملـه الموهبة المتميّزة وتحمله المسـؤوليّة معها متماسكة مع سـائر العوامل التي يقوم عليها الفقه**» .

خامساً
الفقـه بين المنهـاج الربـاني والواقع

يقوم الفقـه على عوامل متماسكة سبق ذكرهـا كلها تنبع من ثلاثـة عوامل : الإيمان والتوحيـد ، ومنهاج الله ، والـواقع الذي نفهمـه من خلال منهـاج الله . وهذه العـوامل مترابطـة فيما بينها متنـاسقة ، تعطـي الفقه في الإسـلام مداه وشمـولـه ونهجه من خـلال الترابط والتناسق ، حتى لايحسن أن نفصل عاملاً عن سائر العوامل .

لانرى تسمية الفقـه في الإسلام بفقه الواقع ، وذلـك للأسباب الآتية التي نـذكرها بايجاز :

١ - **يقوم الفقه في الإسـلام على عدة عوامل رئيسة، الـواقع من بينها** ، ولكنه ليس العامل الوحيد ولا الأهم أو الأشمل .

٢ - **العوامـل التي يقوم عليهـا الفقه في الإسـلام ثلاثـة : الإيمان والتوحيـد ، المنهاج الربـاني ، الـواقع** . وهي تعمل بتماسكهـا معاً . ويمكن أن نختصرهـا إلى اثنين : المنهاج الـرباني والواقع ، إذا اعتبرنـا قضية الإيمان والتـوحيد هي محور المنهاج الـرباني ،مشمولة فيه . ويمكن أن نقتصر على عامل واحد عند الرغبة بالإيجاز ، فنقول فقه المنهاج الـرّباني ، لأنه هو المصدر الرئيس الذي يشمل فكرة الواقع . وجميع العوامل الرئيسة التي يقوم عليها الفقه ، والعوامـل التابعة ، كلها نابعة من منهاج الله . وإذا أردنا أن نشير إلى الواقع ودوره في الفقه ، فيمكن أن نقول «**الفقـه والـواقع**» وليس «**فقه الواقع**» .

٣ - **الفقه يحتاج إلى « الموازنة »** . والموازنة تحتاج إلى علم بمنهاج الله ، وبالواقع الذي يُدْرس من خلال منهاج الله .

٤ - **إن تسمية الفقه بفقه الواقع تبرز عامل الواقع على غيره من ناحية ، وتعزله عن سائر العوامل** . والواقع لايظهر دوره في الفقه الإسلامي إلا من خلال ارتباطه بسائر العوامل ، لا من خلال انفصاله عنها أو تميّزه عليها .

٥ - **إنّ هذه التسمية « فقه الواقع »** ، حين تُبرز هذا العامل وحده ، قد تفتح المجال أمام الضعفاء ليبنوا فقهاً على غير أسس منهاج الله ، تحت حجة ضرورة الواقع أو شعار المصلحة العامة ، على غير ما يرضي الله ، حسب الأهواء والمصالح ، خاصة في أجواء يكثر فيها الجهل بين الناس بمنهاج الله وأحكام الإسلام . ويُخشى من ذلك أن يصبح مع الأيام للفقه نهج آخر . ولقد رأينا مثل ذلك كثيراً اليوم ، من أناس لهم أثرهم بين الناس .

٦ - **منهاج الله يقدّم الفقه للمسلم في جميع الظروف والأحوال** ، حتى حين يكون المسلمون مستضعفين أو أقوياء ، دون أن يعبث بالفقه الهوى أو المصالح أو الخوف من غير الله . لقد أثّر ضغط الواقع في ظروف كثيرة حتى أخذ البعض يدعو إلى مناهج تخالف الإسلام تحت شعار الإسلام .

٧ - **لم يكن الواقع هو القضيّة التي يغفل عنها المسلمون في فقههم** ، أو الناس عامة . معظم الناس يهتمُّ بالواقع ويدرسه ويفكّر فيه ، وتنهال المؤلفات والكتب والمجلات تبحث في الواقع ، وكذلك سائر وسائل الإعلام .

ليست القضية التي يجب إبرازها ومعالجتها عدم دراسة الواقع ، ولكنْ عدم دراسة الواقع من خلال منهاج الله ، وعدم ردّ الخلاف إلى الله ورسوله ، واضطراب النيّة ، وتشويه فهم الواقع . فالواقع حاضر في أذهان الناس لايحتاج إلى إبراز ، لكنّ منهاج الله هو الغائب عن قلوب الكثيرين ، وهو الذي هجره الكثيرون ، كما هجروا اللغة

العربية الفصحى . إن واقع المسلمين اليوم يبرز خطورة هذا الأمر ، وخطورة الانزلاق في مناهج لايرضاها الإسلام .

٨ - لذلك دأب المسلمون منذ عهد الرسول ﷺ على الاكتفاء بكلمة الفقه كمصطلح عام ، وكذلك أئمة الإسلام ، وكذلك المعاجم أصبحت تعطي معنى الفقه بأنه فقه الدين . ولذلك جاء حديث رسول الله ﷺ : « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** » فظلت كلمة الفقه مرتبطة بالدين مصطلحاً ومعنى ومدى ، لأن الدين يشمل جميع العوامل الأخرى .

٩ - وإذا أردنا أن نخصص فلا مانع ، كأن نقول : فقه الشعائر ، فقه الاقتصاد ، فقه الإدارة وغير ذلك .

وحين نود أن نتوسع بعد المصطلح ، فلا بدّ أن نقدّم من خلال الفقه نهجاً مفصّلاً يساعد على الممارسة والتطبيق .

ومن أجل ذلك قدّمت النظرية العامة في الدعوة الإسلامية لتبرز النظرية والنهج والتطبيق . ويمكن إيجاز ذلك :

١ - تتألف النظرية العامة من : القاعدة الصلبة ، الركنين الرئيسين ، القضايا أو المشكلات الأربع ، عناصر الممارسة والتنفيذ ، النمو والتطور ، الهدف الأكبر والأسمى .

٢ - القاعدة الصلبة هي قضيّة الإيمان والتوحيد .

٣ - الركنان الرئيسان : المنهاج الرباني والواقع .

٤ - المشكلات الأربع الكبرى : الخلل في التصوّر لقضيّة الإيمان والتوحيد ، هجر منهاج الله ، عدم ردّ الواقع إلى منهاج الله ، الخلل في الممارسة الإيمانية .

٥ - عناصر التنفيذ :

أ - الأسس الأربعة : سلامة التصور للإيمان والتوحيد ، تدبّر منهاج الله ، ردّ الواقع إلى منهاج الله ، سلامة الممارسة الإيمانية .

ب - النهج والتخطيط العام .

جـ- النهج والتخطيط لكل ميـدان : الدعوة والبلاغ ، التربية والبنـاء ، التدريب ، الأدب ، الجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك .

د - الإدارة الإيمانية والنظام : تحديد المسؤوليات والصلاحيات ، الإشراف ، المتابعة ، التوجيه ، التنسيق ، وغير ذلك .

هـ - ميزان المؤمن .

و - المؤسسات الإيمانية .

ز - التقويم الدوري .

٦- نموّ الجهد البشري وتطوره على أساس الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

٧- الهدف الأكبر والأسمى .

إن هذه النظرية العامة ترسم النهج الذي ينبع من الإيمان والتوحيد ومن منهاج الله ، ويلبّي حاجة الواقع : في الفكر ، والفقه ، والممارسة في جميع الميادين .

ولكل بند أو جزء من هذه النظرية دراسات تفصيلية تقدم النهج والمناهج والنماذج .

ليس الاختلاف حول دور الواقع وأهميته بالفقه الإسلامي ، ولكن الاختلاف حول مصطلح « **فقه الواقع** » وإيحاءاتـه النفسية التي قـد لايبدو أثـرهـا آنيّاً وإنما يظهـر مع الأيام . ولا نظن أن الإخـوة الأساتـذة الذي طرحـوا المصطلح كانـوا لايرون أهميـة العوامل الأُخرى في الفقه الإسلامي .

إن كلمـة «الواقع » والـواقع نفسـه شـديد التأثير على النفـوس والضغط عليهـا . والمصطلحات لها أثرها في مسيرة الفكر نظريـة وتطبيقاً . ولقد لمسنا ذلك في عصور مختلفة في التاريخ وفي بقاع مختلفة ، حيث ظهرت مذاهب فلسفية ، وأدبية أخذت تحصر نفسها في «الواقع » وحملتـه مصطلحاً وفكراً ، ثمّ أخـذت تبتعد بعد ذلك عن التصـورات الغيبية

والدار الآخرة ، فكانت أساس ظهور الفلسفة المادية ، والعَلْمانيّة والحداثة ومذاهبها : كالفلسفة الوضعية والاسمية ، والفلسفة التجريبية والاشتراكية الواقعية وغيرها .

خلاصة ذلك أننا نرى أن مصلح « الفقه » وحده كافٍ ، كما ورد في الكتاب والسنة ، وكما استخدمه الخلفاء الراشدون والصحابة رضي الله عنهم ، وأئمة الإسلام الأعلام .

ونجد ذلك واضحاً في تعريف المعاجم كلها لكلمة الفقه حيث اعتبرت اللفظة وحدها دالة على فقه الدين بشموله وامتداده . وإذا أردنا أن نشير إلى دور الواقع في الفقه ، فيمكن أن نقول : « **الفقه والواقع** » ، وليس « **فقه الواقع** » .

الباب الثاني

القـــواعـــد والأســـس

الفصل الأول

بين الإيمان والعلم والفقه وبين النهج والتخطيط تمتدُّ طريق النصر

في واقع المسلمين اليوم تصورات مضطربة كثيرة وممارسات خاطئة أكثر ، ومن الخطأ الكبير أن يبدأ العلاج بأخذ كل قضيه جزئية ومعالجتها بردود الفعل والارتجال ، وبتصرُّفات فرديّة لاتستند على فقه أمين ، ولا علم صادق ، ولا نهج واضح . ولقد عمَّ هذا الاضطراب كثيراً من المواقف في حياة المسلمين في العصر الحاضر .

يُضاف إلى ذلك مارافق بعض المجتمعات من ظلم واعتداء وإلغاءٍ لأحكام دين الله ، وانتشار الحرّية الفرديّة في مجال اللهو والجنس ، وخنقها في مجال الفكر الإيماني وحرّيته التي قدرها الإسلام على أساس من الكتاب والسنة وفي حدودهما ، ونشرٍ للعَلمانيّة وتغذيتها وتبنّيها أو تبني أفكارها .

لقد أدَّت الظروف المعقّدة المتشابكة إلى أمور غير ملتزمة بالإسلام ، تتمّ تحت شعار الإسلام أحياناً ، وتأويلات فاسدة لبعض نصوصه . نودّ أن نعرض مثلاً واحداً هنا على مانعنيه . فأحيانا عالج بعض المسلمين مشكلة نزع المرأة حجابها وانطلاقها بصورة سافرة ، أقول عالجوها بطريقة ارتجالية تحمل ردود فعل آنيّة فوريّة عاطفيَّة ، ولكنها تخلو من : العلم والفقه والنهج . وكان بعضهم يطارد الفتاه غير المحجّبة أو المرأة ، ويطلقون عليها أو على ثيابها أو على وجهها «**ماء النار**» . وأخذ بعضهم يفرض الحجاب بالإكراه في مجتمع يحمي السفور ونَزْع الحجاب ، حتى أصبح الكثير من الفتيات يرغبن بنزع الحجاب ويدعين إليه . وتحت الضغط أو الخوف من مرحلة معيّنة التزم عدد من الفتيات الحجاب على غير قناعة ولا رضى ، وظل المجتمع يُغذّي نزع الحجاب ويدعو له . ثم

تبدّل الحال حتى مَلكت الفتاة «حقّها» في نزع الحجاب ، فأول ماواتتها الفرصة نزعت الحجاب وانطلقت باندفاع شديد إلى أكثر من نزع الحجاب .

لقد كان سبب ذلك أن الأسلوب الذي اتُّبع كان خاطئاً ، كان ارتجالياً ، ردّ فعل آنيّ ، خالٍ من الخُطة والنهج ، والعلم والفقه .

لقد كان الذي تحتاجه الفتاة شيئاً أخطر من الحجاب . كانت تحتاج إلى حقيقة الإيمان والتوحيد ، إلى جهد حقيقي منهجي يدعو الرجال والنساء إلى الإيمان والتوحيد ، بأسلوب يناسب الواقع الذي يعيشه الناس ، على أن يكون الأُسلوب والنهج والخُطة وكلُّ ذلك نابعاً من منهاج الله . ذلك حتى تؤمن الفتاة أوّلاً بربّها وخالقها ، فتستجيب لأمره وشرعه . ولو أن الفتاة لاقت ربّها بغير حجاب . فلن يكون وضعها كما لو لاقته بغير إيمان . فتظل قضية الإيمان والتوحيد هي القضية الأولى .

لقد كان أخطر عمل قام به المجرمون أعداء الله أن نزعوا الإيمان من قلب الفتاة قبل أن ينزعوا عنها الحجاب . فكان يجب علينا أن نعيد إلى قلبها الإيمان أولاً أو نعيده ونحن نعيد الحجاب ، أن نعيده ونغرسه وننمّيه .

نعم ! لقد كان هناك جهود أدت إلى التزام الفتاة بالحجاب عن قناعة ورضى ، وكان لذلك أثر كبير حين أصبحت هي التي تدافع عن الحجاب وعن سائر الأُمور الشرعية .

هذا مثل جزئي واحد . ولكن هناك أمثلة أُخرى لقضايا لم يتمّ علاجها على أساس من العلم والفقه والنهج . ولقد أدى ذلك إلى صراع حزبيّ شديد ، وفتنة مزّقت قوى المسلمين ، وأضاعت فرصاً ثمينة على جميع المسلمين ، وكانت عاملاً من عوامل الهزائم المتلاحقة التي منينا بها .

وانتشرت العصبيات الجاهليّة ، والانحرافات عن نهج الكتاب والسنَّة ، واشتدّت الخلافات وتنابذ الآراء ، وغلبت العادات والأعراف على حكم الشرع .

ونعرض هنا مثلاً على ذلك . فالله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين جميعاً أن يكونوا إخوة ، وجاءت الأحاديث الشريفة تفصّل ذلك وتؤكده ، وتبيّن حقوق الأُخوّة في الإسلام ومسؤولياتها . فهذا الأمر نزل من عند الله سبحانه وتعالى وبلّغه رسول الله ﷺ بلاغاً واضحاً كاملاً . ولكنَّ الأُخوة في الواقع أصبحت أخوّة حزبيّة صاغها البشر على غير مانزل به الوحي . ومن المسلمين من ترك أمر الله ورسوله وأخذ أمر البشر ، فتفرّق المسلمون شيعاً وأحزاباً ومذاهب متصارعة .

إن من أهم غايات الفقه اليوم أن يعالج الواقع الذي نعيشه ، أن يعالج المشكلات القائمة فيه . وسيصعب معالجة هذه المشكلات إن لم يكن هنالك نهج عمليٌّ محدّد ، يحمل النظريّة بكامل أبعادها ، ويحمل التفصيلات الضرورية للتنفيذ ، ويبني ذلك كله على أساس منهاج الله ليكون ملبّياً لحاجة الواقع ، ولذلك نعرض في هذا الباب بعضاً من القواعد والأسس التي تناسب هذا البحث ، على أن تكون هذه القواعد والأسس نابعة من منهاج الله مرتبطة به ، وأن تكون جزءاً من النهج العام والنظريَّة العامة التي ندعو لها ، والتي نجد تفصيل كل جزء منها في الكتب المخصصة لذلك ، وأن تكون في الوقت نفسه ملبيّة لحاجة الواقع .

ومهما تكن القواعد والأسس ، ومهما يكن النهج ، فلا بدّ أن تحمل ذلك الطاقةُ البشريّةُ المؤمنة ، وتجاهد من أجل تحقيقه في الواقع البشري ، حتى لاتتحول الأسس والنهج إلى شعارات فحسب ، أو إلى أمانيَّ وأحلام . فهذه هي سنّة الله الماضية في الحياة الدنيا ، أن تنهض الطاقة البشرية إلى ماتؤمن به ، وأن تتحمل مسؤولية ماآمنت به وما نهضت إليه ، أن تتحمل المسؤولية في الدنيا والآخرة .

وإنّ من سنة الله كذلك ، ومن وعده الذي لا يُخلِفُه ، أَن يُنزل نصره على عباده المؤمنين الصادقين الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق ، فالنصر من عند الله وحده ، يتنزّل على من صدق وأوفى .

إن الفكر والفقه والنهج ، والعمل والسعي ، يجب أن يقوم على أسس ثابتة ، لا

بد من إعادتها وتأكيدها دون ملل . إنها هي الأسس التي ظلّ منهاج الله يعيدها ويؤكدها حتى تستقرَّ في القلوب . ونحن سنظل نعيدها ونذكّر بها .

في واقع المسلمين في كلّ عصر مؤمنون على درجات متفاوتة من الإيمان ، وضعفاء ، ومنافقون . إن مسؤولية المعالجة والإنقاذ تقع على كاهل المؤمنين الصادقين الذين يوفون بعهد الله : ولاؤهم الأول لله ، وعهدهم الأول مع الله ، وحبّهم الأكبر لله ورسوله ، ومن هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ينشأ كل عهد وولاء وحبٍ في الحياة الدنيا ويرتبط به . هؤلاء المؤمنون الصادقون يكون أول أمارة من أمارات صدقهم أن يحققوا معاني الإيمان فيما بينهم ، فيصدق المؤمن ربّه في نفسه ومع المؤمنين ، فإذا المؤمنون صفٌّ واحد كالبنيان المرصوص .

لن يتحقق للمسلمين النصر حتى يحققوا النصر في أنفسهم أولاً ، وحتى يرى الله ذلك في واقعهم .

ولن يستطيع المسلم أن يحقّق النصر في نفسه ، حتى يجاهدها وحتى يتمسَّك بالكتاب والسنة وهو على طريق مجاهدة نفسه . ولن يستطيع المسلمون أن يجاهدوا حتى يتمسّكوا بالكتاب والسنة ، وحتى يكونوا صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص .

إن المعركة الأولى في ذات المسلم ، في داخله ، في نفسه ، يجاهدها حتى تستقيم على أمر الله . فإن انتصر في هذه المعركة سهل الانتصار في المعارك الأخرى .

فعن فضالة بن عبيد عن الرسول ﷺ قال : **«المجاهد من جاهد نفسه في الله»**

[رواه الترمذي وابن حبان][1]

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٦٦٧٩) .

الفصل الثاني
مصدر التشريع في الإسلام
وأبواب الاجتهاد

١ - أهمية المصطلح ودوره بعامّة وفي التشريع الإسلامي بخاصة :

للمصطلح أثر كبير في الفكر والدلالة . ويزداد أثر المصطلح كلّما عمّ بين الناس وامتد وطال به الزمن ، حتى يصبح له أثر نفسيٌّ ، فينزله بعض الناس منزلة الحق المطلق الذي لايجوز تعديله أو حتى النظر فيه . ويصبح جزءاً من العرف والعادات يأبى الناس الخروج عنه ولو خالف نصوصاً أخرى أوثق ، أو نصوصاً من الكتاب والسنة . وهذا الانحراف عرفناه في غير المصطلح حيث يألف الناس بعض الأمور المخالفة للدين ، فتصبح عرفاً وعادة يخضع لها الناس لأنهم عرفوها وألفوها واعتادوها ، فما يطيقون تغييرها إلا بجهود كبيرة .

هذه نفسية الجماهير والعامة من الناس ، عرفها التاريخ في شعوب كثيرة ، وأشار إليها القرآن الكريم في آيات متعدّدة ليبيّن خطرها :

﴿ و إذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه أباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ [لقمان : ٢١]

وتتوالى الآيات في كتاب الله لتذكر الناس بعامة والمؤمنين بخاصة أن يظلّ ماأَنزل الله هو المرجع الأول المتميّز من أيِّ مرجع آخر ، وهو المرجع للمؤمنين والمنطلق لكل ممارسة إيمانية . وتتوالى الآيات الكريمة كذلك لتذكِّر الناس بأن عليهم أن يردُّوا دائماً مايجدون آباءهم عليه إلى ما أَنزل الله ، فيأخذوا ماوافق ويذروا ماخالف ، لتظلَّ العادات والأعراف والمصطلحات نابعة من منهاج الله ، مرتبطة به ، خاضعة إليه . وهذه الآيات الكريمة ترسي القاعدة الأساسية للنمّو والتطور في حياة المؤمنين ، ليكونوا في جميع

العصور هم الأسبق والأولى ، والأقرب من كل خير وصلاح وقوة وعزّة ، حتى تظل كلمة الله هي العليا في واقع الإنسان ، ويظل المؤمنون أقرب للتقوى .

ليس كل مانرثه عن الآباء يجب تركه ، ولا كل العادات والأعراف منحرفة . إننا نرث من الفضائل والخير الشيء الكثير الذي يجب أن نتمسَّك به ونعتزَّ به ، لأنه متصل بالحق النابع من منهاج الله . . وليس كل تطور ونمو نرضاه . فمنه ماهو منحرف غارق في الفتنة والفساد في الأرض ، بعيد عن منهاج الله .

والميزان في ذلك كله هو منهاج الله وحده ، أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نردَّ أمورنا كلها ، صغيرها وكبيرها ، إلى منهاج الله ، لا إلى سواه .

والمصطلحات كذلك منها ماهو حق وخير ، نأخذ به ونمضي عليه ، ومنه مايحتاج إلى إعادة نظر ، ومنه ماهو خطأ يحتاج إلى تبديل . فللمصطلحات أثر في الفكر وفي النفس ، خاصة إذا كانت مصطلحات تتعلق بالفكر والدين والمعتقدات .

وكلمة « **مصادر التشريع** » في حد ذاتها تحمل دلالة التعدد ، والإسلام جعل للتشريع مصدراً واحداً هو المنهاج الرباني ، وجعل « التشريع » والشرع ربّانياً .

ولاترد كلمة شرع أو مشتقاتها في الكتاب والسنة إلا مرتبطة بأمر الله ورسوله . ولنأخذ قبسات من الكتاب والسنة :

﴿ ثمَّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون ﴾
[الجاثية : ١٨]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ماآتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة : ٤٨]

ففي الآية الأولى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر ...** ﴾ ، فكانت الشريعة من عند الله ، ثم جاء الأمر باتباعها وحدها .

وفي الآية الثانية : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ..** ﴾ فالشِّرْعة دائماً من عند الله لنا وللأمم السابقة يأتيها الرسل بالشِّرْعة والمنهاج من عند الله . وتؤكد لنا سورة الشورى أن الشرع من عند الله ممتد مع جميع الرسل والأنبياء :

﴿ **شَرَع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب** ﴾ [الشورى : ١٣]

هكذا تأتي الآية الكريمة : ﴿**شرع لكم من الدين ...** ﴾ ! فالله هو الذي شرع ، فالشرع من عند الله وحده . فأصبح هذا المصطلح : شَرَع ومشتقاته مصطلحاً ربّانيا ، جعل فحواه ومادته من عند الله .

ويأبى الله سبحانه أن يدّعي أحد من الناس أنه شرع للناس من عنده شرعاً غير ماشرع الله ، فيكون هؤلاء الذين يدّعون ذلك ، قد جعلوا من أنفسهم شركاء ، أو أن الناس جعلوهم شركاء إذا قبلوا ذلك : ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم و إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ [الشورى : ٢١]

فهؤلاء الشركاء ومن رضي بهم كلهم جميعاً ظالمون لهم عذاب أليم من عند الله .

لقد ارتبط هذا المصطلح بمشتقاته : شَرَع ، شريعة ، شِرْعة . . ، بالله سبحانه وتعالى ، ليكون الشرع مصطلحاً ومادّةً ربّانيّاً ، من عند الله ، يمثّل الحق المطلق الكامل الذي يجب اتباعه وحده ، دون غيره .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**لاتزال طائفة من أمّتي قوّامة على أمر الله ، لايضرّها من خالفها** » [رواه ابن ماجة][1]

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) (رقم : ٧٢٩١) ابن ماجه : المقدمة : (رقم : ٦) .

وهذا الحديث الشريف الصحيح يذكرنا بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين ﴾

[الأعراف : ١٧٠]

« . . **قَوّامة على أمر الله** . . » « . . **يمسّكون بالكتاب** . . . » ، إشارة واضحة إلى أن أمر الله هو التمسُّك بالكتاب .

وتأتي الأحاديث الشريفة لتربط مصطلح « الشرع » بالله روسوله ، وكذلك تأتي أقوال الصحابة رضي الله عنهم عما تعلموه في مدرسة النبوّة الخاتمة :

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : « **حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس حيثُ ينادي بهنّ فإنهنّ من سنن الهدى ، وإن الله شَرعَ لنبيّه سُنَنَ الهدى** . . »

[رواه مسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه وأحمد] (١)

نعم ! « .. **إن الله شرع لنبيّه** .. » . فيظل مصطلح الشرع متعلقاً بالله سبحانه وتعالى .

وفي حديث يرويه طلحة بن عبدالله : « . . . **قال : فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام** . . . » [رواه البخاري والنسائي وغيرهما] (٢)

وعن عبدالله بن بسر : أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : « **إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ . فأنبئني بشيء أتشَبّثُ به ؛ قال : لايزال لسانك رطباً من ذكر الله عزّ وجلّ** . » [رواه ابن ماجة واحمد] (٣)

فلقد جاء في هذين الحديثين : « **شرائع الإسلام** . . » ! فما الذي تعنيه هذه الكلمة في هذه الأحاديث وما يرويه الصحابة ؟! إنها تعني مايبلغهم إياه رسول الله ﷺ . إنها الكتاب والسنة .

---

(١) مسلم : ٥/ ٤٣/ ٦٥٤ أبو داود : ٢/ ٥٥٠ . النسائي : ١٠/ ٥٠/ ٨٤٩ . ابن ماجه : ٥/ ١٤/ ٧٦١ أحمد : ج/ ٥ ، ص : ١٦٣ ، (حديث : ١٢٨٨) .

(٢) البخاري : , ٣٠/ ١/ ١٨٩١ .

(٣) ابن ماجة : ٢٣/ ٥٣/ ٣٨٣٨ . أحمد : الفتح : ١٤/ ٢٠٣ .

وروى البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان في الباب الأول منه : « . . . **وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدىٍّ : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان** . . » . فما هي هذه الفرائض والشرائع والحدود والسنن التي كان يعينها عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه . إنها الكتاب والسنة اللذان يمثّلان شرع الله . فلم يكن عمر بن عبدالعزيز يرضى إلا بالكتاب والسنة شرعاً للأمة .

هذه قبسات فحسب . وإن سيرة الرسول ﷺ وحياة الصحابة رضي الله عنهم تكشف لنا بجلاء أن الشرع في الإسلام ربّاني .

وسنجد فيما سنذكره من قبسات أخرى أن هذا الشرع الربّاني هو الكتاب والسنّة ، ولا شيء سواهما .

ويبيّن لنا منهاج الله – قرآناً وسنة ولغة عربية – أن الناس على مر التاريخ اختلفوا من بعد ماجاءتهم البيّنات عندما اتخذوا شرعاً غير ما أنزل الله . ولنأخذ قبسات من ذلك :

﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بيّنات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ [الجاثية : ١٦ , ١٧]

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾

[آل عمران : ١٩]

نعم ! « . . **إلا من بعد ماجاءهم العلم** . . » ! فما هو العلم الذي تعنيه هذه الآيات الكريمة ؟! إنها ماأنزل الله على رسله فبلّغوه أقوامهم . إنه العلم من عند الله . إنه ماشرع الله لعباده ، كما بَيَّنتْ لنا الآية التي سبق ذكرها من سورة الشورى : « **شرع لكم**

من الدين ماوصى به نوحاً . . . » وانظر إلى هذه الآية الجامعة :

﴿ **كان الناس أُمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .** ﴾ [البقرة : ٢١٣]

نعم ! « أنزل الله الكتاب بالحق ليحكم بين الناس . . » وما الذي يحكم في الناس ؟! إنه شرع الله الذي جاء في الكتاب الذي أنزله الله بالحق ، ليفيء الناس إليه فيما اختلفوا فيه » .

وتذكرنا هذه الآية الكريمة بآيات أخرى كثيرة في كتاب الله تؤكد هذه الحقيقة . وحسبنا أن نذكِّر هنا بالآية من سورة الشورى :

﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلتُ وإليه أنيبُ** ﴾ [الشورى : ١٠]

وتؤكد سورة الشورى كذلك أن الاختلاف لم يقع إلا عند مخالفة ماأنزل الله :

﴿**وما تفرّقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ...**﴾ [الشورى : ١٤]

وبهذا الانحراف جعل أهلُ الكتاب أَحبارهم ورهبانهم مصدراً للتشريع :

﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ [التوبة : ٣١]

ولقد رأينا مثل هذا الانحراف عند أبي الحسن الكرخي الذي قال « كلُّ آية أَو حديث يُخالف ماعليه أصحابنا فهو مؤوَّل أو منسوخ . » فلقد اعتبر قول أصحابهم أعلى من الكتاب والسنة .

ولكن أئمة الإسلام الأَعلام على مدى العصور ظلوا يُلحُّون على ضرورة العودة إلى الكتاب والسنة ، ويدعون الناس ليأخذوا من حيث أخذوا هم ، ويؤكدون أن أقوالهم

أقوال بشر تخطىء وتصيب ، وأن منهاج الله وحده هو الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لقد كان لأئمة الإسلام الأعلام فضل عظيم في تثبيت هذه القاعدة العظيمة ، وبتذكير الناس بها كثيراً . ولكن مع ابتعاد الناس عن منهاج الله وعن اللغة العربية ، سهل عليهم أن يجعلوا قول البشر بمنزلة الكتاب والسنة أو أعلى منهما على قدر الانحراف الذي يقعون فيه .

نخلص من هذا البحث إلى أن « **التشريع** » مصطلحاً ومادَّةً ربّانيٌّ من عند الله . وأنه هو الأساس والمصدر الوحيد الذي ينطلق منه الناس ليجتهدوا في أمور دنياهم .

ونخلص كذلك إلى أن اجتهاد البشر لايمكن أن يرقى إلى منزلة النصّ من الكتاب والسنة . فاجتهاد البشر يخطىء ويصيب ، وماجاء من عند الله حق مطلق . واجتهاد البشر يخطىء ويصيب كما أكد ذلك منهاج الله :

فعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « **كلُّ بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** . » [رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم] (١)

فلا بد إذن أن يكون لما أنزل الله مصطلح يُمَيِّزُه عمّا يأتي به البشر من اجتهاد وفتاوى في كل ميدان من ميادين الحياة ، ليظلَّ المنهاج الربانيُّ بارزاً في تميّزه وعلوّه ، بارزاً في تميّزه من حيث الفكر والقانون وغيرهما ، وليظلَّ هو الأساس الذي يقوم عليه كل نشاط إيماني ، والنبع الذي ينطلق منه كل عطاء إيماني ، والمصدر الذي يغني كلَّ اجتهاد وفتوى ، ورأي وموقف في ساحة الإيمان .

إن تميّز منهاج الله لايعني انفصاله . ولكنه يعني أن يكون المصدر الوحيد الذي يَرْوي كل الميادين ويُغذِّيها ، والذي يروي الجهد البشريّ وينمّيه ويطوّره ، والذي يوجّه الجهد البشريّ ليمضي على صراط مستقيم ، ونهج قويم ، إلى أهداف ربانيّة ثابتة ، على طريق ممتد إلى الهدف الأكبر والأسمى ، الجنّة .

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) – حديث رقم ٤٥١٥ .

لذلك يكون « **التشريع** » في الإسلام ربّانياً ، والاجتهاد ممارسة إيمانية يقوم بها الجهد البشريّ المؤمن وهو يمارس منهاج الله في الواقع البشري . أي أننا نمارس « **التشريع** » في واقعنا **لنجتهد** ونقدم الحلول لما نواجهه من قضايا في واقعنا المتجدّد بأحداثه ومشكلاته .

فالتشريع الرباني هو منهاج الله ، والاجتهاد في صوره المختلفة وميادينه المتعدّدة جهد بشريّ ينبع من منهاج الله ويرتوي منه ، ولايبلغ مستواه أبداً . إنه المصدر الوحيد للاجتهاد البشريّ ، من أجل تقديم حلول وآراء ومواقف ، أو فتاوى ، لما يتجدّد في حياة الإنسان أو الجماعة أو الأمة ، أو البشرية كلها .

ولكن ظهرت في بعض عصور التاريخ الإسلامي المتأخرة تعبيرات تقول «**مصادر التشريع** .. » فقد جعلت « **للتشريع** » مصادر متعدّدة ، فنزعت عنه بذلك الصفة الربّانيّة من حيث « **المصطلح** » ، وساوت بين ما أُنزل من عند الله وبين ما وضعه البشر من آراء واجتهادات معرّضة للخطأ من ناحية ، ومعرضة للتبدّل من ناحية أُخرى .

ثم أخذ هذا التعبير : « **مصادر التشريع** .. » يتردّد في الاستعمال ويكثر ويمتدّ . وأخذ يغيب عن أذهان العامة من الناس تميّز المنهاج الرباني عن الاجتهاد البشري ، وأخذ يغيب هذا التميّز في المصطلح لدى المثقفين وبعض الخاصة . وأخذ بعض الناس يرفعون الاجتهاد البشريّ إلى منزلة أعلى .

ولما كثر استخدام هذا التعبير ، اختلطت الظلال والمدلولات في الأذهان وعلى الألسنة ، وكثر القول بأن مصادر التشريع أربعة : الكتاب والسنّة والإجماع والقياس . وأخذت هذه المصادر تزيد مع الأيام ، فأُدخل الاستحسان ، والاستصلاح ، والعرف ، والاستصحاب ، وغير ذلك . وسماها البعض «**مصادر التشريع فيما لانصّ فيه** »

وعلى ضوء ماعرضناه في الصفحات السابقة نرى ضرورة تمييز هذه المصطلحات عن مصطلح التشريع ومصدره ، لنؤكد أن **مصدر التشريع** في الإسلام واحد ، وأن

أبواب الاجتهاد متعددة . ولذلك نودّ أن نقسم ماسُمّي بمصادر التشريع إلى قسمين :

أولاً : **مصدر التشريع واحد** ، هو مصدر ربّاني ، وهو منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - .

ثانياً : **أبواب الاجتهاد** وأنواعه عند ممارسة منهاج الله في الواقع البشري :

من قياس وإجماع واستحسان وغير ذلك .

٢ - مصدر التشريع في الإسلام ربانيّ هو منهاج الله :

لقد سبق أن أوردنا الأدلة من الكتاب والسنة على أن مصطلح «**التشريع**» ربانيّ وكذلك مادته وفحواه . وسبب ذلك أن منهاج الله ليس موضع تغيير أو تبديل أو إعادة النظر في أحكامه . إنه للتدبّر والتصديق والالتزام . وعلى ذلك جاءت النصوص الكثيرة .

قبسات من القرآن الكريم

﴿ اتبعو ماأُنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون ﴾
[الأعراف : ٢]

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّرروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾
[ص : ٩]

﴿ والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر المصلحين ﴾
[الأعراف : ١٧٠]

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : ٤١ ، ٤٢]

فمنهاج الله وحده هو الحق المطلق ، فلا يُقْرَن مع غيره . لا يُنزَل إلى مستوى غيره ولايرفع غيره إلى مستواه .

ومن السنّة :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب**

الله وسنّتي ، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض » [رواه مالك والحاكم] (١)

نعم ! ولن يتفرّقا حتى يظلاّ مصدراً واحداً ، هو مصدر التشريع في الإسلام ، التشريع الربّاني الحق المطلق ، الذي لاتصحّ مُساواته باجتهادات البشر أبداً .

والأحاديث عن أهمية دراسة القرآن والسنة وتدبرهما كثيرة ، تلحُّ بشدة على هذا الموضوع . ولايوجد نصّ من كتاب أو سنّة يقرن قول أحد من البشر بما أُنزل من عند الله .

٣ - أبواب الاجتهاد وأنواعه مصادر بشريّة للاجتهاد والفتوى :

الاجتهاد يأتي عند ممارسة منهاج الله في الواقع الذي يُدَرس ويفهم من خلال منهاج الله ، ويُرَدُّ إليه . فمنهاج الله هو أمر الله وحكمه وإليه تردُّ كل قضايا الخلاف :

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلتُ وإليه أنيب﴾ [الشورى : ١٠]

وكذلك الآية التي سبق ذكرها من سورة النّساء وفيها :

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩]

فعند ممارسة منهاج الله في الواقع ، لابد من الاجتهاد فيما يعرض من قضايا متجددة لانجد عليها نصّاً مباشراً في الكتاب والسنة . وكان الصحابة رضي الله عنهم يعون هذه الحقيقة وعياً تاماً :

فهذا أبو بكر رضي الله عنه عندما سئل عن معنى الكلالة في الآية الكريمة في سورة النساء ﴿ **و إن كان رجل يورث كلالة ..** ﴾ ، قال : أقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنّي : الكلالة قرابة غير الولد والوالد . ففصل أبو بكر رضي

---

(١) موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى الليثي شرح وتعليق أحمد راتب عمروش - دار النفائس بيروت - (ط : ١) (رقم : ١٦١٩) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٢٩٣٧) والمشكاة : ١٨٦ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١٧٦١ .

الله عنه منزلة رأيه وحكمه عن منزلة منهاج الله . واعتبر الرأي البشريّ والاجتهاد قابلاً للخطأ والصواب وإعادة النظر ، وهذا لايصّح بالنسبة لمنهاج الله . ولذلك لاخلاف بين الأصوليين حول هذا الموضوع حتى اشتهر قولهم : « **لامساغ للاجتهاد فيما فيه نصٌّ قطعي** . »

ومعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وسأله رسول الله ﷺ « **كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟** » قال : أقضي بكتاب الله . قال : « **فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال فبسنّة رسول الله** ﷺ . قال : « **فإن لم تجد في سنة رسول الله** ﷺ» قال : أجتهد رأيي ولا آلو . قال : فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال « الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يُرْضي الله ورسوله » . [رواه أحمد وأبو داود والترمذي] (١)

وعن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، فإذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر** . » [رواه الشيخان وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة] (٢)

ولقد سبق معنا حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه وابصة بن معبد ، والذي جاء فيه : « . . . **استفت قلبك واستفت نفسك ، (ثلاث مرات أعادها) ، البِرُّ ما اطمأنت إليه النفس والإثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك** » .

ومن هذا الاجتهاد الضروري الثابت في الكتاب والسنة تخرج نماذج وأنواع ، وحالات وأبواب . فهنالك اجتهاد المسلم فيما يطرأ عليه في بيته وعمله وتجارته وغير ذلك . وهناك اجتهاد المؤسسات الإيمانية في المجتمع الإيماني ، واجتهاد المعاهد والمراكز العلمية وغيرها ، وهناك اجتهاد القضاة في قضائهم ، وهناك اجتهاد الدولة وأجهزتها ، واجتهاد الأئمة العلماء وأولي الألباب ، واجتهاد ولي الأمر ، أنواع وأبواب تمتدّ وتتسع مع الزمن يصعب حصرها .

---

(١) أحمد : الفتح : ١٥/ ٣/ . أبو داود : ١٨/ ١١/ ٣٥٩٢ . الترمذي : ١٣/ ٣/ ١٣٢٧ وجاء في الفتح الرباني : « وأحسن ماقيل فيه قول الحافظ بن القيم » ثم ذكر أنه صححة وبين حجته في ذلك .

(٢) البخاري : ٩٦/ ٢١/ ٧٣٥٢ . مسلم : ٣٠/ ٦/ ١٧١٦ . الترمذي : ١٣/ ٢/ ١٣٢٦ أبو داود : ١٨/ ٢/ ٣٥٧٤ . ابن ماجه : ٤٩/ ٣/ ٣٥٨١ .

ولكن هذه كلها تنبع وتظهر عند ردّ الواقع إلى منهاج الله وفهمه من خلاله ، كما ذكرنا سابقاً . وهنا في هذا المجال تدخل أبواب الاجتهاد المختلفة من : قياس ، وإجماع ، واستحسان ، واستصلاح (**المصالح المرسلة**) ، وعُرْفٍ واستصحابٍ (**استبقاء الحكم الذي ثبت في الماضي قائما في الحال حتى يوجد دليل يغيره**) ، وأقوال بعض المذاهب وغير ذلك . . وربما تتجدّد أبواب أخرى مع الحياة ، ولكنها تظل تمثل الجهد البشري ولا تمثل وحياً نزل من عند الله ، فلا يصح إنزالها منزلة الوحي ، أو تقديمها على الوحي كما حدث في بعض فترات التاريخ ، أو كما يظهر في واقع بعض المسلمين اليوم .

إن دمج الاجتهاد البشري مع المصدر الرباني واعتبارهما مصادر للتشريع في الإسلام ، له أضرار متعددة لمسناها في التاريخ ونلمسها في واقع المسلمين اليوم .

إن الضرر الأول يمسّ الناحية النفسية والفكر والتصوُّرَ العام ، حين نقلل من عظمة المصدر الرباني وجلاله وقدسيَّته في النفوس ، ولا نظهر أنه متميّز في كل نواحي الحياة الإسلامية ، ويختلف عن دور العطاء البشري ، ذلك لأن العطاء البشريّ يجب أن ينبع من منهاج الله ويرتبط به . فمنهاج الله هو النبع الوحيد الذي لا ينضب أبداً يُغني ميادين الحياة كلها والعصور كلها : الدعوة الإسلامية ، الدعوة إلى الله ورسوله ، التربية ، التدريب ، الحكم ، السياسة ، الاقتصاد ، القضاء ، الأدب ، الاجتماع ، علم النفس ، وغير ذلك ، وليظلّ الجهد البشري بهذه الخصَائص نامياً متطوراً على أسس ثابتة وحق مطلق كامل .

الجهد البشري والاجتهاد البشري قابل للتغيير والتطوير ، أو الرجوع عنه إذا ثبت خطؤه . فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري في رسالة القضاء التي وجهها إليه : « . . . **ولايمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعْت فيه نفسك ، وهُديتَ لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم لايبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل** . . » .

وحين نضع المنهاج الرباني في مستوى القياس وغيره من أبواب الاجتهاد البشري ،

فإن الناس مع الأيام ستعتبر أن المرجع الأول هو هؤلاء البشر أو أولئك ، وسَيَنْسَوْن تميُّزَ المنهاج الرباني من غيره . وقد ضربنا أمثلة سريعة على ذلك ، والتاريخ والواقع يقدّم لنا أمثلة كثيرة .

ولنفس الأسباب يمكن أن تنفتح أبواب للاختلاف لاحصر لها ، ويتحوّل الاختلاف إلى صراع مذهبي أو حزبي أو صراع دنيوي يحمل أيَّ مصطلح ولون .

لابدّ من أن يظل مصدر التشريع في الإسلام مصدراً واحداً لامجال للتنازل عنه أبداً . مصدراً متميّزاً ربّانياً تنبع منه كل جهود المؤمنين ، إنه المنهاج الرباني . وإن التهاون في هذا الأمر مصطلحاً أو شعاراً أو عملياً سيؤدي إلى مسلسل من التنازلات . فقد حدث في بعض بلاد المسلمين أن تدرّج مسلسل التنازل على نحو قريب من الصورة التالية :

الإسلام هو مصدر التشريع ، الإسلام أحد المصادر ، الفقه الإسلامي مصدر التشريع ، الفقه الإسلامي أحد مصادر التشريع ، يُستأنس بالفقه الإسلامي ، ثم بمذهب من المذاهب الفقهية ، ويستمر التنازل حتى تصبح العلَمانية هي التي تسود ، وربما يظل للإسلام حق الشعار فقط .

ولقد أشرنا إلى أهمية هذه القضية في دراسة النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، وبيّنا علاقة الواقع بالفقه ، وبيّنا العوامل التي يقوم عليها الفقه في الإسلام .

نريد أن نؤكد هنا أننا نتحدث عن مجتمع مسلم فيه الجيل المؤمن الذي بناه الإسلام وصاغه وصاغ نفسيّته وفكره ، ورسم له نهجه ومناهجه ، وعرف مسؤولياته ومنزلتها ، وعرف واجبه في ذلك كله .

٤ - أسس الفقه والاجتهاد :

من الصفحات السابقة وضح لنا أن الفقه والاجتهاد يقومان على أسس إيمانيّة مفصّلة في منهاج الله . ويمكن أن نوجز هنا دون شرح أو تفصيل :

أ - صفاء الإيمان وصدق النيّة وإخلاصها لله سبحانه وتعالى ، وتجرّدها من أي هوى .

ب - العلم بمنهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - ، علماً صادقاً ممتداً مع الحياة .

جـ - العلم بالواقع أو القضيّة المطروحة علماً صادقاً من خلال منهاج الله ، وردّ الواقع أو القضية إلى منهاج الله .

د - معرفة الحدود والتزامها ، والمسؤوليات والوفاء بها ، على قدر الوسع والطاقة ، وما تحمل من موهبة وخبرة ، ومايحدّده النظام الإداري من مسؤوليات .

هـ - جمع النصوص من القرآن والسنّة التي تتعلّق بالقضيّة أو الواقع أو النصوص التي تشير إليه ، دون الاعتماد على جزء وإهمال جزء .

و - الاستعانة بما صدر عن أئمة المسلمين الأعلام .

ز - الشورى كلما لزم الأمر قبل إصدار الرأي أو الحكم .

ونعيد لنؤكد أن مسؤولية المسلمين بناء الجيل المؤمن الذي يعرف دينه إيماناً وتصديقاً، وعلماً وممارسة . أما حين يفشو الجهل وتغلب الأهواء ، وتتضارب الشعارات ، وتتصارع الاتجاهات ، فذلك وضع آخر يبدأ الفقه فيه بواجب رئيس وفرضٍ لاغناء عنه ، ألا وهو البدءُ ببناء الجيل المؤمن وبناء الأمة المسلمة الواحدة ، كما أمر الله سبحانه وتعالى ، وكما بلغنا رسول الله ﷺ .

في واقعنا اليوم ، يجب أن نضع النهج والمناهج ، والخطة والأهداف ، والدراسات لبناء القلوب والعقول والنفوس والسواعد ، لتنطلق على درب قويم وصراط مستقيم في سبيل الله .

الفصل الثالث

قواعـــد أربـــع

[أولا]

القاعدة الأولى : قضية الإيمان والتوحيد ومنزلتها ودورها

إن قضيـة الإيمان والتوحيـد هي القضية الـرئيسة الأولى في واقع المسلمين اليـوم ، وهي المنطلق لجميع الحلول وأنواع العلاج والأدواء . ولقد قـدمنا درسات منهجيّة لهذه القضيّة لتكون المنطلق الفكري والعملي والمنهجي . ونضع هنا أهم النقاط حول هذه القضية :

١ - قضيّـة الإيمان والتوحيـد هي القضيّة الـرئيسـة الأولى ، والقاعـدة الصلبة التي يقـوم عليهـا الفكـر والنهج والعمل ، وهـي تمثل الهدف الثـابت الأول في مسيرة الـدعـوة الإسلامية ، وهي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة .

٢ - إن المصدر الأول لفهم هـذه القضية هو منهـاج الله - قرآناً وسنـة ولغة عربيّـة - وهو المصدر الوحيد الذي يصلح لكل زمان ولكل جيل .

٣ - في واقع المسلمين خلل واضطـراب بالنسبـة لفهم هـذه القضية ، فـلا بد من تحديـد نقاط الخلل وتحديد وسائل معالجتها في الواقع وأساليبه .

٤ - يجب أن تهتمّ الكتب الوضعيّـة البشرية بـدراسة نواحـي الخلل والاضطراب ، ووضع أساليـب المعالجة من نـاحية ، ونهج الـدعوة والبـلاغ ومراحلهـا وخطواتها ، على أن تكون هـذه الدراسـات منهجية نابعـة من الكتاب والسنـة ملبيّة لحاجـات الواقع ، موفية بالمناهج .

٥ - أهم مواضع الخلل والاضطراب نوجزهـا بنقاط ، كما تبدو لنا من خلال ردّ الواقع إلى منهاج الله وفهمه من خلاله :

أ - قضية الإيمان والتوحيد هي قضية الفطرة أولاً ، ثم واجب الدعوة الإسلامية أن تقوم بالبلاغ والتعهد والبناء ، ليرى الإنسان آيات الله في الكون ، وتدبّر الرسالة الخاتمة للنبوّة .

ب - فهم الألوهية والربوبية وتصورهما ، وكذلك عبوديّة الإنسان لربّه وخالقه ، يمكن تصحيحه من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، ومن خلال منهج تطبيقيّ لتدبّر منهاج الله ومصاحبته مصاحبة عمر وحياة ، ومن خلال التعهُّد الدائب والرعاية الحانية لحماية الفطرة وتنقيتها ، وتنمية الإيمان وتغذيته .

ج - معالجة قضية الولاء والعهد والحب الأكبر ، ليكون الولاء الأول لله والعهد الأول مع الله ، والحب الأكبر لله ولرسوله ، وليكون كل ولاء وعهد وحب يقيمه الإنسان في حياته الدنيا نابعاً من الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ، ومن التزامه بها في واقع حياته التزاماً يوجّه موالاته وعهوده وحبه في الحياة الدنيا ، ويصونه من أن ينحرف إلى عبادة العباد والأوثان والأهواء .

د - الإيمان والتوحيد قضية مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤولية وحساب ، يحدّد ذلك كله ويفصله منهاج الله ، وعلى الدعاة التذكير بهذه التكاليف والمسؤوليات ، ومدى خطورتها في الدنيا والآخرة ، ووضعها في نهج يسهّل الالتزام بها في واقع المسلمين اليوم .

هـ - لم ينحصر الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد لدى بعض المسلمين ، ولكنه كان كذلك في الجهد الحقيقي المبذول لهذه القضية الكبرى ، حين انشغل الكثيرون بقضايا أقلّ شأناً ، أو بقضايا دنيوية ، أو جهلوا خطورتها . فلا بد من وضع النهج الذي يعالج خلل التصور ، والنهج الذي يطلق الجهود من أجلها ويوحّدها ، حتى يفيء الناس إلى الإسلام ، لايعطلهم تضارب الجهود .

و - أن يكون أول ثمار نجاح الدعوة والبلاغ ، وبعد الشهادتين ، الخشوع بين يدي الله في أداء الشعائر والأذكار والأدعية ، ثمّ الإقبال على تدبر منهاج الله ، ثم الانطلاق للوفاء بالمسؤوليّات والتكاليف الربانيّة القائمة على الأركان الخمسة .

ز - أن تكون هذه الخطوات والمراحل مرتبطة بنهج عملي يعين على سلامة التنفيذ .

لكل قضية من هذه القضايا المتعلقة بقضية الإيمان والتوحيد دراسات منهجية ، ومناهج تطبيقية ، تعطي فقهها وفقه ممارستها ، فقهاً يقوم على قواعد الفقه التي سبق عرضها .

[ثانيا]

القاعدة الثانية
المنهاج الربانيّ أساس الفقه والتصور والنهج والتخطيط والعمل

١ - ما هو المنهاج الرّباني ؟!

المنهاج الرباني هو القرآن والسنّة كما جاءا باللغة العربية . ولإيجاز نقول المنهاج الرباني - قرآناً وسنة ولغة عربية - . ويمكن أن نقول أيضاً منهاج الله ، أي المنهاج الذي أنزله الله ، وحياً على رسوله محمد ﷺ النبيّ الخاتم ، والذي بلغنا إياه الرسول ﷺ كما أُنزل عليه . شهد الله على ذلك والملائكة والنبيون والمؤمنون وكفى بالله شهيداً .

٢ - ماهو دور المنهاج الرباني ؟!

إن دور المنهاج الرباني عظيم في حياة الإنسان بعامة وحياة المؤمنين بخاصة . إن دوره أن يعود ليؤديّ في واقع المسلمين اليوم نفس الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوّة الخاتمة ، ليصوغ للمؤمنين فكرهم وتصوراتهم ، ويغذّي إيمانهم ، ويكون أساس علمهم ، وليصوغ نفسياتهم وأخلاقهم ، ويبني لهم فقههم في كل واقع ، وليوجّه ممارستهم الإيمانية في واقع الحياة ، وينظم علاقاتهم فيما بينهم ويبيّن روابطهم الإيمانيَّة ، وليوجّه علاقة المؤمنين مع سائر شعوب الأرض ، لتكون حياتهم كلها عبادة لله ، ووفاء بالأمانة التي حملها الإنسان ، وقياماً بالخلافة التي جُعِلتْ للإنسان ، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان والتوحيد حتى تكون كلمةُ الله هي العليا في واقع الإنسان .

٣ - ماهو دور الإنسان ومسؤوليّته ؟!

أما الإنسان عامة فدوره ومسؤوليته أن يُفكِّر ويقدر : هل يؤمن كما تدلُّه فطرته على ذلك ، وكما تدلّه آيات الله في نفسه وفي الكون ، وكما تدله الرسل والأنبياء الذين

ختموا بمحمد ﷺ ، والكتب المنزلة من عند الله ، الكُتب التي ختمت بالقرآن الكريم مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، أم يضلُّ ويكفر ؟! ثمّ يتحمّل مسؤوليّة قراره في الدنيا والآخرة . فإذا آمن يكون أول مسؤوليته أن يُقرَّ بالشهادتين ، ثم ينهض لأداء الشعائر ، لتكوّن هذه كلها الأساس الذي بُني عليه الإسلام ، كما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره : « بُني الإسلام على خمس . . . » . ويكون أول واجب عليه يُبنى على هذا الأساس المتين الإقبال على منهاج لله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - ، إقبال طاعة وعبادة ، وتدبُّرٍ وخشوع ، بعزيمة وجد . ثمّ ينهض إلى سائر التكاليف الربّانية التي يتعلمها من منهاج الله ، والتي سبق أن أوجزناها ، والتي يمكن أن نوجزها هنا بقضيتين :

أ - النهوض إلى دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد ، إلى الله ورسوله ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد والأوثان والأهواء إلى عبادة الله الذي لاإله إلا هو ، ليكون هذا هو الهدف الأول الثابت .

ب - النهوض للمساهمة في تحقيق سائر الأهداف الرّبانية الثابتة في الواقع البشري .

٤- ماهو النهج والأسس لتدبر منهاج الله في واقع المسلمين اليوم ؟!

نظراً لجهل الكثيرين من المسلمين اليوم باللغة العربية ، ونظراً لهجر الكثيرين لمنهاج الله ، وعلى ضوء مختلف ظروف الواقع اليوم ، لابد من وضع قواعد وأسس ، وخطة ومناهج ، لتيسير تدبُّر منهاج الله على المسلم .

أ - القواعد والأسس :

أ - ١ : على كل مسلم أن يسعى إلى تدبَّر منهاج الله ودراسته على قدر وسعه الصادق الذي سيحاسَب عليه ، مستفيداً من جميع الإمكانات المتوافرة حوله .

أ - ٢ : على كل مسلم أن يتدبر منهاج الله صحبة عمر وحياة لا تتوقف أبداً ، يتدبّره بتكامله لايأخذ جزءاً ويترك جزءاً .

أ - ٣ : وأن يكون التدبّر منهجياً خاضعاً إلى منهج وخطة .

أ - ٤ : ذلك كله لحديث رسول الله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » ولآيات وأحاديث أُخرى .

أ - ٥ : تكون المصاحبة المنهجية للقرآن : تلاوة يوميّة بأحكامها من تدبّر والتزام ، ودراسة تفسير وحفظ ، حسب منهج مقرّر .

أ - ٦ : يرافق هذه الدراسة دراسة السنة ودراسة اللغة العربية دراسة منهجيّة وفق منهج مقرر .

أ - ٧ : يرافق هذه الدراسة كلها دراسة الواقع دراسة منهجية من خلال منهاج الله وفق منهج مقرر كذلك .

وإننا نقدم المنهج والنهج والنماذج التطبيقية لكل ذلك في كتبها الخاصة بها ، ليتكامل النهج ويترابط ، ولايكون قطعاً متناثرة ، أو آراء نظرية متفلتة عن الواقع .

[ثالثاً]

القاعدة الثالثة

دراسة الواقع من خلال المنهاج الرباني

إن منهاج الله جاء ليمارسه المؤمنون في واقع الحياة . ولابد من فهم الواقع حتى يتيسر للمسلم ممارسة منهاج الله فيه ، ولايدّ أن تكون دراسة الواقع من خلال منهاج الله ، حيث يختلف فهم الواقع حسب التصور والعقيدة التي يدرس من خلالها . ونضع من أجل ذلك قواعد رئيسية :

١ - يدرس كل مسلم الواقع الذي يعنيه حسب وسعه الصادق الذي سيحاسبه الله عليه .

٢ - تكون دراسة الواقع دراسة منهجية وفق منهج محدّد مقرر ، تحدّد فيه الميادين والموضوعات .

٣ - نقسم الواقع لتيسير دراسته وفهمه إلى ثلاثة أقسام :

أ - الواقع الشخصي .

ب - الواقع الآني .

جـ - الواقع المنهجي .

٤ - يُدْرَسُ كلُّ قسم من هذه الأقسام حسب خطة ومنهج وأسلوب تحدِّدُه الإمكانات في كل حالة ، ويحدِّدُه النهج العام ونهج الدعوة ونهج التربية والبناء ، على أن يكون كل ذلك نابعاً من القرآن والسنّة ومرتبطاً به .

٥ - تكوِّن دراسة الواقع وفهمه ووعيه من خلال منهاج الله ، ودراسة المنهاج الربانيّ وتدبّره كما ذكرنا ، الركنين الرئيسين في النظريّة العامّة للدعوة الإسلامية ، ويقوم الركنان على القاعدة الصلبة ، قاعدة الإيمان والتوحيد ، ويكوّن الثلاثة معا الزاد الرئيس للمسلم في دربه إلى الأهداف الربانيّة الثابتة ، وإلى الهدف الأكبر والأسمى -

الجنّة ورضوان الله والدار الآخرة - . كما يكوّن الثلاثة معاً الأساس المتين للفقه في الإسلام ، للفقه في جميع الميادين ولجميع العاملين وفي جميع العصور .

على هذه الأسس الثلاثة يقوم الفقه في حياة المسلم ، ومنها تنبع العوامل الأخرى التي تؤثر في الفقه كما ذكرنا سابقاً .

ولكن الفقه يجب أن يكون له ثمرة ونتيجة وحصاد ، وليكون ذلك الصورةَ التطبيقية للفقه في الميدان ، ولتكون جزءاً من الفقه مرتبطة به ، حتى لايكون الفقه نظرية مجرّدة ، ولايكون تصوره أنه خاص بالقاعدين ، وليظل الفقه هو فقه العمل والحركة والسعي ، لافقه القعود والتراخي والعجز والتقصير .

إن ثمرة الفقه التي لاتنفصل عنه هي العمل الصالح ، أو الممارسة الإيمانية التي تقود إلى العمل الصالح .

من أجل ذلك نطرح النهج والمنهاج والنماذج لتكوّن كلها القاعدة التي يُبنى عليها الفقه من خلال دعوة ، وتعهد وبناء ، وإعداد وتدريب ، وبناء للجيل المؤمن ، يمضي على درب ممتد إلى الجنة .

ونعرض تفصيلات هذا النهج وكلّ جزء منه في كتب خاصة بكل جزء ، أو موجزة له موضحة ترابطه وتكامله وقدرته على النموّ .

[رابعاً]

القاعدة الرابعة

الممارسة الإيمانية والعمل الصالح

١ - ماهي الممارسة الإيمانيّة :

إن ثمرة القواعد الثلاث الماضية ، وغاية الفقه الأخيرة ، هي العمل الصالح الذي أمرنا الله به ، وفصّل خصائصه وشروطه في المنهاج الربّاني .

فالممارسة الإيمانيّة : هي ممارسة منهاج الله في الواقع البشري ، كلٌّ في حدود وسعه الصادق وحدود مسؤوليّاته ، لتؤدّي هذه الممارسة الإيمانيّة إلى العمل الصالح بخصائصه الربانية ، وللوفاء بالعهد والأمانة والخلافة وبعمارة الأرض بحضارة الإيمان ، ليكون هذا كله جوهر عبادة الله ، من خلال ابتلاء وتمحيص كتبه الله على بني آدم .

٢ - العوامل الرئيسة في الإنسان ، التي تؤثر في الممارسة الإيمانية :

أ - العوامل الذاتيّة : الوسع والطاقة ، المعدن ، الفطرة والإيمان والتوحيد .

ب - العوامل المكتسبة : العلم بمنهاج الله والواقع من خلال منهاج الله ، النيّة ، الحالة النفسية وصياغتها ، المنهج الإيماني في التفكير .

جـ - الغرائز والميول : وهي جزء من الفطرة ، يرويها الإيمان والتوحيد بالنيّة الصادقة لتتجه إلى التقوى والعمل الصالح التقيّ . وإذا فسدت النيّة ينقطع الريّ ، وينقطع كذلك عند فساد الفطرة بالآثام ، فتتجه الميول والغرائز عندئذ إلى الفجور والعمل الفاجر .

٣ - خصائص الممارسة الإيمانية :

تبتدىء الممارسة الإيمانيّة في حياة المسلم بالشهادتين ، لتقرّا في نفسه معنى التوحيد ومعنى الألوهية والربوبية ، ومعنى عبودية الإنسان لربه وخالقه ، ومعنى الولاء الأول لله

سبحانه وتعالى والعهد الأول معه والحب الأكبر لله ولرسوله ، ومعنى التضرّع والخشوع ، وسائر معاني الإيمان والتوحيد . ثم تنطلق خصائص الممارسة الإيمانية في الميدان . ويمكن أن نوجزها بنقاط :

أ - النيّة الصادقة الخالصة لله سبحانه وتعالى ، نقيّة من الهوى والشرك .

ب - الشمول في حدود المسؤوليات والوسع .

جـ - الشعائر والأذكار .

د - العلم .

هـ - الموازنة الإيمانيّة .

و - استيعاب الوسع .

ز - التعاون في ميدان الأمة المسلمة الواحدة .

ح - النصيحة والتذكير .

ط - الإدارة : الإشراف والمراقبة والتوجيه .

ي - التقويم .

ك - دراسة الخطأ ومعالجته .

ل - النهج والتخطيط .

م - الشورى .

ن - تجميع الخبرات وردّها إلى منهاج الله ، والأخذ بما يوافق منهاج الله .

س - النمو والتطور في الجهد البشري . ويقوم النمو والتطور على :

س -١ : الثوابت الإيمانية والأسس الثلاثة التي سبق ذكرها .

س -٢ : فهم سنن الله في الحياة والكون والاستفادة منها .

س - ٣ : المداومة والاستمرار

س - ٤ : بذل الجهد الصادق لإتقان العمل والإحسان .

س - ٥ : المبادرة الذاتية .

س - ٦ : التعاون وجمع الجهود وعدم تفرّقها .

س - ٧ : الاستفادة من الخبرات السابقة والتجارب ليظلّ عمل المؤمنين متصلاً متواصلاً نامياً .

إن هذه الخصائص للممارسة الإيمانية ضرورية حتى يستقيم الفقه لدى المسلم ولدى الأمة كلها . فإذا غابت هذه الخصائص فكيف يكون الفقه عندئذ ، وكيف يبنى في النفوس ؟!

٤ - أهم العوامل الضرورية لبناء الممارسة الإيمانية :

إن الممارسة الإيمانية بهذه الخصائص تحتاج إلى بناء وإعداد في نفسيّة المسلم وفكره ، حتى تظهر في سلوكه ونشاطه ، ورأيه ومواقفه ، وتحتاج إلى رعاية حانية منهجية - تتبع نهجاً وخطة . ويمكن إيجاز أهم العوامل الضرورية بنقاط محددة كما يلي :

أ - النهج والتخطيط العام ، والنهج والتخطيط لكل مرحلة وكلّ ميدان .

ب - الإدارة والتنظيم وما يتبعه من إشراف وتوجيه وَمتابعة .

جـ - التدريب بأنواعه : الفوري ، والدوري ، والمرحلي ، والمستمر .

د - ميزان المؤمن .

هـ - المؤسسات الإيمانيّة .

و - التقويم الدوري .

ز - تطوير الجهد البشري وتنميته خاضعاً إلى القواعد الثلاث السابقة : الإيمان والتوحيد ، منهاج الله ، وعي الواقع من خلال منهاج الله .

ويمكن دراسة تفصيلات كل نقطة ذُكرت أعلاه من خصائص الممارسة الإيمانيّة ، ومن العناصر والعوامل الضرورية ، في الدراسات والكتب الخاصة بها .

ليس المقصود أن يحفظ كل مسلم هذه الخصائص والعوامل . ولكن المقصود أن تُغْرَس هذه الخصائص في المسلم لتظهر في نشاطه وحياته ، وأن تُتّبع العوامل والعناصر حتى يسهل غرس هذه الخصائص .

الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي كله مدرسة للإسلام بمختلف مراكزه ومؤسساته : البيت ، المسجد ، المعاهد بمختلف درجاتها ، المؤسسات الإيمانية ، كلها تمدُّ المسلم بالعلم والخبرة والفقه ، مادامت متصلة فيما بينها ، تحمل كلها رسالة الإسلام ، تبني أبناء الإسلام ، وتدعو غير المسلمين إلى الإسلام .

إن الصعوبة في الفقه تنشأ أمام المسلم حين تنفصل مراكز الأُمة ومؤسساتها بعضها عن بعض ، أو حين يغلب الجهل ويهجر الناس كتاب الله ، ويجهلون لغة القرآن ، فأي علم وفقه يتيسّر في هذه الأجواء إلا أن تعالج الأمراض ، ويتبع المؤمنون نهجاً وخطة ليجاهدوا أنفسهم ويمدّوا الدعوة الإسلاميّة صفاً واحداً كالبنيان المرصوص .

٥ - الوسائل والأساليب :

نكتفي هنا بذكر وسيلتين نراهما ضرورتين على طريق بناء الممارسة الإيمانية . وهما مبنيتان على أساس من الكتاب والسنّة ملبّيتين لحاجات الواقع ، مستوفيتين العوامل الضرورية التي سبق ذكرها . والوسيلتان هما :

أ - المنهاج الفرديّ أو الذاتيّ لكل مسلم . وهو مرن يناسب كل وسع وطاقة ، وكل واقع وحال ، وينمو مع المسلم نموّاً مطرداً ليبلغ صورته المتكاملة ، حسب الوسع الصادق للمسلم .

ب - منهج لقاء المؤمنين : وله صور متعددة في حياة المسلمين ، نشير إلى خمس صور منها : الدوري ، والجانبيّ ، والتخصّصي ، والاجتماعي ، والعائلي .

وهو كذلك مرن كل المرونة ينهض بالمؤمن حسب وسعه الصادق .

وهاتان الوسيلتان تعملان معاً . وكل واحدة تغذّي الأخرى ، ومنهج لقاء المؤمنين لايمكن أن ينجح إلا بالتزام المنهاج الفردي .

جـ - الاستفادة من إمكانات الواقع المتجددة لتنمية قدرة الاستفادة من الوسيلتين الرئيستين .

وتنمو الأساليب الوسائل مع الممارسة والتطبيق . ويمكن دراسة تفصيلات كل من الوسيلتين السابقتين في الكتب الخاصة بهما . وكذلك دراسة سائر الوسائل النامية من الكتب الخاصة بذلك .

الباب الثالث

الفقـــه في الميـــدان

تمهيـــد

إن الغـايـة الأخيرة من الفقـه هـو سـلامـة الممارسـة الإيمانيـة لمنهـاج الله في الـواقع البشري، كل على قـدر مسؤوليـاته وحـدودهـا ، وفي نطاق وسعـه الصادق الـذي سبق تعريفه .

إن معظم الكتب أو جميعها التي أصـدرناها كانت تهدف إلى تنـاول بعض القضايا الحيّة الثائرة في الميدان وبيان فقهها من ناحيـة ، وكذلك ترتيبها في إطار نهج يحمل النظريّة والتطبيق ، ويقدّم المناهج العملية والنماذج التطبيقيـة ، لتظل الكتب مترابطة فيما بينها ، متناسقة ، من خلال النهج والنظرية .

ولا نهدف هنا إلى استعراض ذلك كله ، ولكـن نشير إلى نماذج من هذه الدراسات والكتب لنزيد الأمر وضوحاً وبياناً .

فكتاب « **دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية** » يعرض الركنين الرئيسين في النظريـة العامة للـدعوة الإسلامية : المنهـاج الربّاني والـواقع . فيبيّن أنه من الضروري أن يعود منهـاج الله ليؤدي الـدور الذي كان يـؤديه في مدرسـة النبوة من بنـاء التصور الإيماني والتوحيـد ، والتربية والتعهد ، وغير ذلك من الموضـوعات المرتبطة بـه . ويبيّن في الوقت نفسه أهميّة الـواقع في الإسلام ودوره في الفكر والممارسة ، والأدلـة على كل ذلك من القرآن والسنـة . وكتـاب « **منهج المؤمن بين العلم والتطبيق** » يلخّص في أوّلـه القضيّتين السابقتين في كتـاب « **دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية** » . ويقدّم مـوجز النظريّـة العامـة للدعوة الإسـلاميّة ، ثم يعـرض نظريّة المنهـاج الفرديّ أو الـذاتي ليكون منهجـاً عملياً لممارسـة الركنين الـرئيسين . ثم يعرض مـوضوعـات ترتبط بهذه الممارسـات الإيمانية .

وكتاب « **منهج لقاء المؤمنين** » يعرض نظريّة لقاء المؤمنين ، ليكون منهجاً عملياً في الميدان ، يأخذ عدة صور ونماذج ، أهمها خمس صور للقاء عُرِضَتْ فيه .

وكتاب « **النظرية العامة في الدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء** » ، يعرض فقه الطاقة البشرية ودورها ، وفقه قضايا أخرى في الواقع ، ثم موجز النظرية العامة في الدعوة الإسلامية ، ويتناول بالتفصيل دراسة عناصر التنفيذ في النظرية العامة : النهج والتخطيط العام ، والنهج والتخطيط لميدان الدعوة الإسلامية ، والنهج والتخطيط لميدان التربية والبناء ، وميدان التدريب ، وميدان الأدب ، ويقدم النماذج والصور التطبيقية .

وكتاب : « **الشورى وممارستها الإيمانية** » «**والشورى لا الديمقراطية** » «**والصحوة الإسلامية إلى أين ؟** » « **والتعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام** » « **وواقع المسلمين أمراض وعلاج** » « **وبناء الأمة المسلمة الواحد والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية** » ، هذه الكتب كلها تعرض فقه هذه القضايا الهامة الثائرة في واقعنا اليوم ، وفقه ممارستها ، من خلال النهج نفسه والنظريّة نفسها ، لترتبط هذه الكتب مع سابقتها .

وينطبق الشيء ذاته على كتب الأدب الملتزم بالإسلام والنصح الأدبيّ المرتبط به ، ولتقدم هذه الكتب النهج المتميّز لهذا الأدب ولهذا النصح الأدبي أيضاً ، ولتردَّ على نظريات الأدب الغربيّ حجة بحجة ، وبيّنه ببيِّنة في كتب ودراسات .

وتأتي الدواوين والملاحم وبعض الكتب الأُخرى لتقدم نماذج عملية تطبيقية للنهج الأدبيّ الملتزم بالإسلام والنصح الأدبي كذلك ، وللدراسة الإيمانية التي تقدّم فقه أهم أحداث الواقع في العالم الإسلامي .

من هنا نعتبر هذه الدراسات كلها صورة للفقه في الميدان ، وهو يعالج أهم قضاياه . وهذه القضايا واسعة ممتدّة ندرس منها ما نستطيعه ، لتظل هذه الدراسات التي ذكرناها مرتبطة جميعها بنهج واحد ونظريّة عامة واحدة نابعين من الكتاب والسنّة مُلبِّيَيْن لحاجات الواقع ، ولتكون الدراسات كلها منْهجيّةً .

ونعرض في هـذا الباب قضـايا أخـرى وقع اضطراب في تصـورها في واقع المسلمين اليـوم ، حين لم يعـد ميزان الإسـلام الأمين هـو الـذي يطبق في كثير من الأحيـان ، حتى اختلطت الصور واضطـربت المفاهيم وتضـاربت ، ونتج عن ذلك اضطـراب في الممارسة والتطبيق .

لقد اعتـاد الناس ، أو بعضهم ، أن يطلق اليوم اسـم الشهيد على كلّ من يُقتل أو يموت ، ولو كان كافراً عُرِف كفره ، أو غير مسلم مُعْلناً مخالفته للإسلام .

واعتاد بعضهم اليوم أن يـرى أن الشهادتين تكفيه ولا حاجة لـه إلى صلاة أو صيام أو حج أو زكاة . وأخـرون يأتون بعض هـذه الأركان ويتركون بعضهـا ، وأخرون يـرون أنه تكفيهم الأركـان الخمسة ثم ، يجلسـون في بيـوتهم تاركين الميـدان مفتوحـاً للتنصير ولكل أنواع الغزو الفكري والثقافي والسياسي والديني وغير ذلك .

وآخرون رأوا أنه حسبهم تحريك الشفاه والأصـابع بذكر الله فهذا هو خير الأعمال ، فليتركوا ماسواه .

وآخرون رأوا أنه لاحرج في سرقة مقالـة أو كلمة أو فكرة وصل إليها غيرهم ، رأوا أنه لاحرج لو ادعوا أنها لهم من أجل نشرها . حتى قال بعضهم نعيد الصياغة فيذهب الحرج . فكـان من أبسط مـا قيل ردّاً على هـذه الفتنة : مـاذا لـو سرقت سيـارة وأعدت طـلاءهـا وتـزييف رقمها ، وتغيير دواليبهـا ، وقدتها بين النـاس ، فهل تسقط جـريمة السرقـة ؟! فكيف بالمقال والفكرة والكلمة ، وهي أثمن من السيارات .

قضايا كثيرة في واقع المسلمين تحتاج إلى فقه سليم دقيق يردّ الأمور إلى منهاج الله .

ولكننا نؤكد أن مجرّد طرح الفقه لهذه القضية أو تلك لايصلح وحده ليعالج أمراض الواقع . ذلك أن طرح فقه قضيـة جزئية كافٍ في عالم ملتزم كل الالتـزام بالإسلام ، يعمر قلوب أبنائه الإيمانُ وخشيةُ الله ، حتى إذا عرفوا الحكم . أسرعوا إلى التزامه .

نحن اليوم في عـالم اختلت فيه موازين كثيرة واضطـربت المفاهيم . لذلك طـرحنا

النظرية العامة لنرى من خلالها المشكلات الأربع الكبرى التي يجب البدء بعلاجها . وجميع القضايا الأُخرى ترتبط بواحدة أو أكثر من المشكلات الكبرى .

نعرض في هذا الباب بعضاً من هذه القضايا ، ونعرض معها فقهها حتى تسهل الممارسة والمعالجة ، ويسهل التدريب والتربية والبناء ، ويسهل التقويم .

إن القضايا الثائرة في واقعنا اليوم كثيرة كما ذكرنا قبل قليل . ولا نستطيع أن نغطيها كلها ونوفيها حقها . ولكننا نقدّم فقه عدد من القضايا الأساسية المتنوّعة التي يمكن أن يُبنى عليها فقه قضايا أخرى . والقضايا التي نعرضها هنا :

١ - فقه الحديث الشريف : « **بُني الإسلام على خمس . . .** » ، والتصور الخاطيء المنتشر بين بعض الناس .

٢ - فقه « **ذكر الله** » بعامة وفقه الحديث الشريف : « **ألا أنبئكم بخير أعمالكم . . .** » بخاصة .

٣ - فقه كلمة « **في سبيل الله** » ، و « **الشهيد** » ، وما انتشر من تصور خاطيء لها وممارسة خاطئة .

٤ - فقه « **أمانة الكلمة والفكرة** » حيث استباح بعضهم حقوق بعض ، وانتشرت « **سرقة** » المقال والقصيدة والكتاب والكلمة والفكرة .

ولابد أن نذكّر أن من أهم القضايا التي عرضنا فقهها على أساس من الكتاب والسنة والنهج النابع منهما قضية **العَلمانيّة** ، **والحداثة** ، **والحرّية لدى الغرب والحرّية في الإسلام** ، **وحقوق الإنسان الوضعية وحقوق الإنسان في الإسلام** .

وعرضنا الفقه الضروري للمسلم الذي يعيش في دار غير مسلمة ، وقضايا أخرى كثيرة تمّت دراساتها في كتب منهجيّة كما ذكرنا قبل قليل .

ونعتبر هذه الدراسات المنهجية جزءاً من هذا الباب - باب الفقه في الميدان - ، بحيث يمكن الرجوع إلى هذه الدراسات الخاصة بكل موضوع .

الفصل الاول

« بُني الإسلام على خمس .. »

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « **بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لاإله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان** » [رواه أحمد والشيخان والترمذي والنَّسائي] (١)

إن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا التكاليف الربّانية على الفرد المسلم وعلى الأمة بصورة جليّة في منهاجه الربّانيّ . كيف لايبيُّنها وهو الغفور الرحيم ، العزيز الحكيم ، القائل في كتابه المبين :

﴿ **ألر * كتاب أحكمت آياته ثمَّ فُصّلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود : ١ , ٢]

وبلَّغَنَا رسول الله ﷺ رسالة ربّه وأدّى الأمانة أدقَّ أداءٍ وأوفاه ، بلسان عربيّ مبين .

كان من بين التكاليف الربانيّة الشهادتان والشعائر من صلاة وزكاة وحجّ وصوم . وجعلها الله أساس التكاليف كلها ، لا تصحّ ولاتقبل دونها ، كما بيّن لنا الحديث الشريف . ولكن هذه لم تكن النقطة الوحيدة التي نفهمها من فقه هذا الحديث الشريف العظيم .

لقد اعتاد كثير من المسلمين اليوم في شتى أنحاء الأرض ، أن يكتفوا بالشعائر ويقفوا عندها ، ثم ينصرفوا بعد ذلك إلى لهو الدنيا ولعبها ، وإلى زخرفها ومتاعها ، وإلى أهوائهم ومصالحهم ، معتقدين أن هذه الشعائر هي غاية التكاليف المفروضة عليهم .

ربما تولَّد هذا التصوّر من بعض فترات التاريخ الإسلامي ، حين كانت الأُمة المسلمة أُمةً واحدةً ، عزيزة الجانب مرهوبة من الأمم ، مستقرَّة الأوضاع . وربما كان ينفر للدعوة إلى الله عدد ، وينفر إلى الجهاد عدد وتبقى الأعداد الكبيرة منصرفة إلى مصالحها ،

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٢٨٤٠) .

دون أن يُعـرّض هـذا الانصراف الأمـة إلى خطـر . وربما تولّـد هـذا التصـوّر من عصـور الضعف والوهن .

ولكن هـذه الصـورة تختلف عما كـان عليـه الحال أيـام النبـوّة الخاتمة ، حين كـان الرسول ﷺ يبني دعوة الله في الأرض ، ويبنى أمـة الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا . في هذه المرحلة كان كل مسلم مكلفاً بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس حين فُرض الجهاد . وما كان يُعذَر إلا من كان له عذر شرعيٌّ يقبلـه الله سبحانه وتعالى . وكان كل مسلم قادراً على القتال ، مستعـداً له ، مـدرّباً عليـه ، وكان كل مسلم مكلفـاً بتعلُّم القرآن الكـريم ومتابعة أحـاديث الرسول ﷺ ، ليُبلّغ الشاهدُ الغـائب . وكان العدد الكبير ينطلق ليبلّغ رسـالة الله ويـدعو النـاس إليها ، ليخـرجهم من الظلمات إلى النـور ، ومن عبادة العبـاد والأوثان والأهـواء والمصالح إلى عبـادة الله وحده ، حتى كـان الجهاد في سبيل الله بـاباً من أبواب الدعوة والبلاغ .

كانـت الأمة المسلمـة كلها صفّـاً واحداً يقـودها رسـول الله ﷺ ، على درب واحد قـويم ، وصراط مستقيم ، محدَّد الاتجاه والمعـالم والأهـداف ، مـاضيـاً إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنّـة ورضـوان الله والـدار الآخـرة - . كـان الجميع يعملـون إلا المتخلفين والمنافقين . وكان الجميع ينفقون إلا المتخلفين والمنافقين .

وامتدَّ التـاريخ الإسلامي ، وتبدَّل الواقع ، ولكن دين الله لم يتبـدّل . وظل المنهاج الربـاني بنوره الممتـد يُشرق في قلوب ، وتنصرف عنـه قلوب . وأخـذ الجهل يظهـر ويمتدّ وينتشر بين الناس مع امتـداد التاريخ ، إلا أولئك الـذين نذروا أنفسهم للعلم والـدعوة والتعليم ، ومن تَيسَّرتْ له ظروف العلم حسب إمكانات كل واقع .

ومع مظاهـر الاستقرار في الأمـة مال الكثيرون إلى دنياهم ، حتـى أصبح هذا الميل يولّد مفهومـاً خاطئاً لدى قطاع واسع من المسلمين ، مفهوماً لايقـرّه الإسلام ولا يقرّه أئمة الإسلام وعلماؤه المجاهدون ، وكأنه أصبح قضيّـة نفسيّة لدى الكثيرين قضيّة نفسيّة تهب القناعة والرضى بالعزوف عن بعض التكاليف الربّانية التي وهبهم الله الوسع والقدرة على

القيام بها ، كتعلّم القرآن والسنة وتدبرهما ، والدعوة إلى الله ورسوله ، ومتابعة التكاليف الأُخرى ، كل قدر وسعه الصادق الذي سيحاسِبُه الله عليه ، نفسيّة ترضى بالاكتفاء بالشعائر ثم الركون إلى الدنيا .

ويذهب هؤلاء إلى البحث عن آيات وأحاديث تسوّغ لهم هذا الانقطاع عن التكاليف التي يستطيعون القيام بها ، لايصدُّهم عنها إلا الدنيا وتجارتها . وربما ظنّ بعضهم أنه يجد ضالته في الحديث الشريف الذي أوردناه أول هذه الكلمة ، فَهُيىء لهم أن معنى كلمة « بني الإسلام على خمس . . » أن هذه الأركان الخمسة هي كل الإسلام ، ولا تكاليف ربّانيّة بعدها .

إنّ الحديث الشريف يُشبِّه تكاليف الإسلام كلها بالبناء الذي يقوم على أسسه ، فلا يصلح البناء دون الأسس ، ولاتوفّر الأسس وحدها مايوفّره البناء من مأوى وسكن وغير ذلك . وشبّه رسول الله ﷺ الشهادتين والشعائر بالأسس التي يقوم عليها البناء كلّه ، الأُسس التي يقوم عليها الإسلام كله ، والتي تقوم عليها بقيّة التكاليف الربانيّة ، والتي لاتصحّ التكاليف إلا بها . ولكنها وحدها لاتمثل كامل البناء الذي يقيمه الإسلام ، ولا كمال البناء الذي يقيمه الإسلام ، ولا كامل التكاليف والواجبات والمسؤوليات .

إن هذه التكاليف تمتد على سبيل واحدة ، لاسبل متفرّقة . إنّها « في سبيل الله » :

﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ٨٠]

وحين يتخلى المسلم عن التكاليف الرّبانية من تدبّر لكتاب الله ودعوة إلى الله ورسوله وغير ذلك مما فصّله منهاج الله ، ومما هو في حدود وسعه وطاقته ، فإنه بذلك يفتح الفرصة لأعداء الله لينزلوا إلى الميدان بدعواتهم الضالة وجنودهم الكثيرين الذين يعملون ليل نهار لنشر فتنتهم وفسادهم . وكلما تخلّى مسلم قادر عن مسؤولياته فتح المجال لمفسد أن ينزل الميدان ليضلّ ويفسد . فكيف يكون الحال عندما يتخلى ملايين

المسلمين عن الميدان ، ومن سيقف عند ئذٍ في وجه جنود الشيطان ! وكيف لاينتشر الفساد في الأرض ، وتمتدُّ الفتنة بعد الفتنة ، والفواجع بعد الفواجع .

إن هذا الحديث الشريف يقدّم لنا فقهاً عظيماً . إنه يضع الأُسس التي لايصلح العمل دونها ، ويشير إلى سائر التكاليف التي يجب على المسلمين أن ينهضوا لها ، كلٌّ قَدْرَ وُسْعه وطاقته ، وحدوده ومسئوليته ، والأمانة التي جعلها الله في عنقه .

إن الواقع ، حين يُرَدّ إلى منهاج الله ويُدْرَس من خلاله ، يكشف لنا خطورة هذه المسؤوليات وأهميتها من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه . ويُبرز لنا الواقع عندئذ أهميّة الرجوع إلى منهاج الله وردّ الأمور إليه ، حتى تتبيّن لنا التكاليف من منهاج الله ، ويتبيّن لنا أنها تكاليفُ ربّانية .

ونرى من هذا الحديث الشريف كيف يقوم الفقه أولاً على القاعدة الصلبة قاعدة الإيمان والتوحيد ، ثمَّ على الركنيْن الرئيسين : المنهاج الرباني والواقع الذي يُدْرَس من خلال المنهاج الرّباني .

واليوم ، في واقع المسلمين ، أصبح من الضروريّ أن يعرف كلُّ مسلم مسؤوليَّاته وواجباته كما شرعها الله سبحانه وتعالى ، وكما فصَّلها في المنهاج الربَّاني ، لينهض كلُّ مسلم إليها ليوفي بأمانته وعهده مع الله ، ولينصُر دين الله !

ومن هنا ندرك أهمية ربط الفقه بمنهاج الله ، ليكون منهاج الله هو مصدر سائر العوامل التي تساعد على قيام الفقه في الإسلام ، والتي تُدرَس كلُّها مع ترابطها وتماسكها من خلال منهاج الله .

إن مسؤوليات المسلم والتكاليف الرَّبانية الملقاة على عاتقه متناسقة مترابطة كما يعرضها منهاج الله . تنطلق كلها من الإيمان والتوحيد . فقضيّة الإيمان والتوحيد قضية مفاصلة وحسم ، وقضية تكاليف والتزام ، وقضية مسؤولية وحساب . ومنهاج الله يعرض ذلك كله ويُفَصِّله .

ولنستمع إلى قبسات من كتاب الله :

﴿ اتلُ ماأوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر والله يعلم ماتصنعون ﴾ [العنكبوت : ٤٥]

هذا هو المنطلق إلى ميدان الممارسة والتطبيق : **﴿اتلُ ماأوحي إليك من الكتاب ..﴾** إنه الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج الله .

ثم يأتي أساس كل ممارسة في حياة المسلم . إنه الشعائر التي لايصحّ عمل إلا أن يكون قائماً عليها . ويكتفي القرآن الكريم بذكر الصلاة في هذه الآية الكريمة وفي غيرها ، وتأتي الزكاة مقترنة معها في بعض الآيات ، ليس إغفالاً لسائر الشعائر ولكن لأن الصلاة أولها ورأسها .

ثم تأتي الإشارة إلى ميدان الممارسة الإيمانيّة مرتبطة بالإيمان والتوحيد ، وبمنهاج الله ، وبالشعائر : **﴿ إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون ﴾** .

فهذا المنطلق وهذه الأسس هي التي تضبط الممارسة الإيمانية وتوجِّهها ، حتى يظلّ كلُّ عمل يقوم به المسلم مرتبطاً بذكر الله ، مرتبطاً بمنطلقه وأسسه ، وذكر الله هو الذي يجمع الميادين كلها ، وبه يجب أن ترتبط الأعمال كلها ، حتى أصبح « ذكر الله أكبر » .

وتتوالى الآيات في كتاب الله لتبيّن لنا امتداد المسؤوليات والتكاليف وترابطها وتناسقها ، لتظل مرتبطة بمنطلقها قائمة على أسسها .

لابد للمسلم أن يعي هذه الصورة حتى يعلم السبيل إلى نجاته في الدنيا ، إلى نجاته من فتنة الدنيا ونجاته من عذاب الآخرة .

ويمكن أن نعيد إيجاز التكاليف التي أمر الله بها عباده ليأتوا منها كلٌّ على قدر وسعه وطاقته ، ولتكوِّن حقيقة الأَمانة التي حملها الإنسان ، والعبادة التي خلِق لها ، والخلافة التي جُعلت له ، والعمارة التي أُمر بها : (١)

(١) يراجع كتاب : بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظريّة العامة للدعوة الإسلامية – الباب الخامس .

١ - أن يفكّر ويتخذ قراره أيؤمن أم يكفر ، وليتحمّل مسؤولية قراره هذا في الدنيا والآخرة .

٢ - فإن آمن أدّى الشهادتين وأقام الشعائر .

٣ - طلب العلم الذي أساسه منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربية - .

٤ - ممارسة منهاج الله في الواقع ، ومعرفته لحدوده ، ومبادرته الذاتية بحوافز إيمانية ، والاجتهاد في حدود وسعه وعلمه ومسؤولياته .

٥ - من أهم أبواب ممارسة منهاج الله في الواقع والتكاليف العامّة الدعوة إلى الله ورسوله إلى الإيمان والتوحيد ، لإخراج الناس من عبادة العباد والأوثان والأهواء إلى عبادة الله وحده . فمن أجل هذا قامت الدعوة الإسلامية .

٦ - المساهمة الجادة في تحقيق الأهداف الربانيّة الثابتة في واقع الإنسان على الأرض .

لابد أن يعي المسلم هذه المسؤوليات الهامّة التي سيحاسَب عليها يوم القيامة ، فلا يقعد عنها ، بل ينهض إليها بكلّ ماأوتي من قوة وعزيمة ووسع .

وليُفكِّر المسلم الذي أباح لنفسه أن يترك هذه المسؤوليات ، كيف يكون الحال لو أن كلَّ مسلم أباح لنفسه التخلي عن الميدان ، ليجوسه أعداء الله فلا يجدون من يصدّهم عن نشر الكفر والفتنة والفساد ؟

وليُفكّر المسلم كيف يكون الحال لو تمّ ذلك ، فلكل مسلم الحقُّ الذي له ، فإن أباح لنفسه التخلّي ، فغيره يمكن أن يبيح لنفسه كذلك .

وإنا لنلمس في واقع المسلمين شيئاً كثيراً من ذلك . الملايين من المسلمين شُلُّوا وتعطلت قدراتهم ، وأخلوا الساحة لأعداء الله تحْت أعذار باطلة شتى .

وإذا طال الأمر فسيكونون هم أول ضحاياً العدوان والفتنة والفساد والظلم .

إنها مسؤولية كل مسلم أن ينهض لينهض بناء الإسلام شامخاً عالياً ثابتاً على أسسه المتينة الراسخة ، بنياناً مرصوصاً كما أمر الله سبحانه وتعالى .

الفصل الثاني

ذكـــر الله

﴿ الـذين يـذكرون الله قيـامـاً وقعوداً وعلى جنـوبهم ويتفكّـرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾

[آل عمران : ١٩١]

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عـن النبيّ ﷺ أنه قال : « **ألا أُنبّئكم بخير أعمالكم وأزكاهـا عند مليككم وأرفعها في درجـاتكم وخير لكم من إنفاق الـذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربـوا أعناقكم ؟! قالوا : بلى يارسول الله ! قال : «ذكر الله » !** [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم][1]

لقـد اختلطت الصـورة والمعـاني للحـديـث الشريف المذكـور أعـلاه لـدى بعض المسلمين . ولو نظرنـا في واقعنا لرأينا الكثيرين الكثيرين يتفلّتون من مسؤوليـاتهم ويركنون إلى القعود أو إلى الجري اللاهث خلف الدنيا بحجة مسؤوليتهم عن رعاية البيت والأولاد ، أو بأي عذر يتلمّسونه من خلال الوهن والعجـز . وقد يكون هنالك من له عذره الشرعيّ في تخلّفه عن بعض التكاليف تحت ضغط واقع الحياة و إمكاناته . !

إننا نتحـدّث عن الملايين الذين لم يكن لهم عذر إلا الجهل والوهن وحبُّ الـدنيا . وحساب الجميع عند الله ، ولكننا نذكّر أنفسنـا ونذكر الناس وندعو ونلحّ ، عسى الله أن يهدي القلوب إلى النهوض والبذل على صراط مستقيم .

يلجأ بعض النـاس إلى سـوء تأويل الحديث الشريف : [**ألا أنبّئكم بخير أعمالكم وأزكـاها عنـد مليككم . . قال : « ذكـر الله »**] . ويتـوهّم هؤلاء أو يـوهمون أنفسهم بأن هنـالك عملاً خـاصّـاً اسمه « ذكـر الله » ، معـزولاً عن غيره من الأعمال ، يُغني عن كل

(١) أحمد : المسنـد : ٥/ ١٩٥ ، الفتح : ١٤/ ١٩٨ - الترمذي : ٤٩/ ٦/ ٣٣٧٤ - ابـن ماجـه : ٢٨/ ٥٣/ ٣٨٣٥ - المشكاة : ٢٢٦٩ - صحيح الجامع الصغير وزيادته : ٢٦٢٩ .

سعي ، يغني عن الإنفاق والبـذل والجهاد ، يجلس الإنسان من أجله يسبّح ويـذكر اسم الله ، وقد يرافق ذلك مـايُزَيّنه الشيطان من حـركات باطلة لـدى بعض الناس من الجهلة والمنحرفين .

وإذا كان قـد ظهر مثل هؤلاء في التاريخ الإسـلاميّ ، فإن الملايين الكثيرة اليوم من المسلمين قاعدون عن التكاليف الشرعية الربّانيّة ، قعوداً جعلهم على نماذج شتى .

فمنهم من اعتقـد أن الشهـادتين تكفيـه ولا حـاجة لـه إلى الشعـائر ولا إلى البـذل والدعوة وغير ذلك . ومنهم من اعتقد أن أداء الشعائر هـو كلُّ ماهو مكلّف به ولا حاجة له إلى ماسواه . ومنهم من يقيم شعيرة ويترك غيرهـا ، وتمتدّ النماذج في واقعنا اليوم امتداداً كبيراً ، حتى شُلّت قوى كثيرة من المسلمين وتعطّلت ، وحتى أصبحت مرتعاً لأعداء الله ، يستفيد أعداء الله منهم ، ولايستفيد الإسلام منهم بشيء .

ولكن الأغـرب والأعجب هـو أن يظـنّ بعضهم أن القعـود لما يحسبـه « ذكـر الله » وتعطيل نشاطه وعطائه أمر يطلبه الحديث الشريف السابق ذكره .

ولو استعرضنـا الآيات والأحاديث الواردة عـن « ذكر الله » لوجدنـاها كثيرة جداً ، لايوجـد بينها مايشير إلى التصـوّر الفاسـد الذي أشرنا إليـه . إنها كلها تحضّ على السعي والعمل بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

هنالك أسباب كثيرة للجوء بعضهم إلى فسـاد التأويل وفساد الفهم، ومن ثمَّ فساد الممارسـة . فربما كـان الخلل في التصوّر الإيماني ، أو الجهـل الواسع بـالقرآن والسنـة ، أو غلبة الأهواء ، من بين الأسباب التي تدفع إلى ذلك .

ولكنني أريـد أن أشير إلى سبب آخـر فقهي قـد يقع فيـه من كـان لـه علم حسن بمنهاج الله . وهو سبب يؤدي إلى فساد التأويل في قضـايا أخرى غير هذه القضيّة . هذا السبب هو أخـذ النصّ من الكتاب أو السنة أو أخـذء جزء منه ، ثمّ دراستـه معزولاً عن سائر النصوص المتعلقة به ، ومعزولاً عن قضايـا أخرى متشابهة مرتبطة به . إن هذا العزل للنصّ يؤدي في كثير من الأحيان إلى سوء الفهم وسوء الممارسة والتطبيق واختلاف الفقه .

ولو أنا أخذنا بذلك الفهم الخاطىء للحديث الشريف ، وقعد الناس عما أُنيط بهم من تكاليف ربّانية ، لتقلّص الإسلام في الأرض وفُتِنَ الناس ، وغلب الشرك وامتد .

يغيب عن بال هؤلاء أن القضية الأولى في حياة الإنسان على الأرض ، هي أنه يحمل أمانة يجب الوفاء بها ، وأنه محاسب على ذلك ، وأن عمله كله يجب أن يكون عبادة لله وطاعة له ، لتُمثِّل هذه صورة الخلافة التي جُعلت للإنسان في الأرض . وهذه الأمانة والعبادة والخلافة ممتدّة متصلة مع ماأمر الله به من عمارة الأرض بحضارة الإيمان ، كل ذلك من خلال ابتلاء كتبه الله على بني آدم .

كل عمل يقوم به المسلم يجب أن يكون عبادة الله ، ويجب أن لايعطل عملاً آخر . ولايستقيم هذا التصوّر إلا إذا كان هنالك نهج متكامل يرسم المسيرة ويُرتِّب الأعمال ويُنزلها منازلها ، حسب أولويّاتها ودورها .

فلا يجوز أن تُعَطَّل مسؤولياتُ البيت أو الوظيفة أو التجارة التكاليف الربانيّة ، ولا أن تضطرب الموازنة بين مختلف التكاليف ليطغى تكليف على آخر . ولا يجوز أن يكون ميزان الأولويات ميزاناً دنيوياً يُزيِّنُه الشيطان من خلال الأهواء والمصالح : إن الميزان الحق هو منهاج الله . وكلما وعى المسلم أكثر من منهاج الله كان أقدر على الموازنة العادلة .

كثير من المسلمين يقبلون على « سنّة من السنن » وقد تكون السنّة لها منزلة عظيمة . ولكن بعضهم حين يقبل على هذه السنة أو تلك ، يترك فرائض هي أعلى وأهم في ميزان الله . فمن الناس من يقبل على « العُمرة » مثلا وهوتارك لبعض الفرائض .

من أجل هذه الموازنة ، ولتكون أمينة ، كان « **ذكر الله** » ضرورة للمسلم ، حتى يبني المسلم موازنته على أساس من ذكر الله وخشيته وعلى أساس من المنهاج الرباني . فإذا غاب ذكر الله كما أمر به أو إذا انحرف عن منهاج الله فأنى للموازنة أن تعدل أو تستقيم ؟!

ومع ذلك يبقى السؤال حائراً في أذهان الكثيرين : لماذا أخذ « **ذكر الله** » هذه المنزلة العظيمة في حديث رسول الله ﷺ ، حديثه السابق ذكره .

إن « ذكر الله » أخذ هـذه المنزلـة العظيمة حتى قـال الله سبحانـه وتعالى : ﴿ **اتلُ مـاأوحي إليك من الكتـاب وأقم الصـلاة إن الصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكـر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون** ﴾ [العنكبوت : ٤٥]

فجاء الحديث الشريف ليفصِّل هذا المعنى العظيم في الآية الكريمة : « . . **ولذكر الله أكبر** » ! نعم إنه أكبر من كل الأعمال وخيرُهـا ، وإنه إكبر عنـد الله وأزكى ، وإنه أكبر وأرفع في الـدرجات ، وإنه أكبر وخير مـن إنفاق الذهـب والورق « **ومن أن تلقوا عـدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم** . . » !

نعم ! إنـه أكبر من ذلك كلـه ، لأن كلَّ عمل من هـذه الأعمال باطل غير مقبـول عند الله إلا إذا ارتبط بذكر الله . « فذكـر الله » هو العمل الوحيد الجامع لكل أعمال المسلم صغيرها وكبيرهـا . إنه النبع الـذي يرتـوي العمل منه ، والقـوة التي تمدُّ كلَّ أعمال المسلم بـالحياة والقـوة وبـالقبـول عند الله ، ولا يـوجـد عمل آخـر في الإسـلام يقوم بهذا الـدور العظيم . فكان لذلك كله أكبرَ الأعمال وأزكارها وخيرها .

وذكر الله هـو الذي يـربط الأعمال فيما بينها ، ويـرتبهُا حسب أولـوياتها ، في جميع الظروف والأحوال .

وذكر الله الـذي تعنيه الآيـة الكريمـة ويفصّله الحديث الشريف هـو الثمرة الـزكيّة لـلإيمان والتوحيـد وللعلم بمنهـاج الله ﴿ **اتلُ ماأوحيَ إليـك من الكتاب ...** ﴾ ، وهو الثمرة الغنيّة لإقامة الشعائر « . . **وأقم الصلاة** » ، وهو الثمرة الطيبة للبعد عن الفاحشة والمنكر « **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » !

ذكر الله ، كما يأمر به الله ، هو الذي يضع الأعمال كلها على صراط مستقيم ، على نهج قويم ، على درب ممتد ليكون كلُّه « في سبيل الله » ، ماضياً من هدف ثابت إلى هدف ثابت ، يطلب الجنّة والدار الآخرة – الهدف الأكبر والأسمى .

إنه يجعل العمـرة عبادة مرتبطة بغيرهـا من العبادات ، حتى لاتكون عمـلاً منعزلاً

بنفسه مقطوعاً عن غيره . نعمت العمرة ونعمت السنن كلها حين تكون جزءاً من المسيرة المتكاملة والنهج المترابط بأهدافه ومراحله ، لاانقطاع ولا توقّف ولا انحراف .

إن ذكر الله هو الطِّيبُ الذي يزكو به العمل وينشر عبقه في الدنيا والآخرة .

فليس ذكر الله عملاً معزولاً عن الحياة ، أو عملاً مستقلاً عن سائر الأعمال : إنه يأخذ منزلته العظيمة من ارتباط الأعمال كلها به وارتباطه بها : الشعائر وطلب العلم ، والدعوة ، والإنفاق ، والجهاد ، والإحسان ، ورعاية البيت وأمانة الوظيفة وأمانة التجارة ، وكل ميدان عمل وسعي في الحياة الدنيا .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « **كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه** » [رواه مسلم وأبوا داود والترمذي وابن ماجه] (١)

نحن بحاجة اليوم إلى تركيز فقه آيات الذكر وأحاديثه في أبناء المسلمين على التصور الأمين ، وخاصة حديث رسول الله ﷺ الذي بدأنا به هذه الكلمة ، حتى تنطلق مواهب الأمة وطاقاتها مجتمعة متآزرة على صراط مستقيم .

إن ذكر الله كما رأينا لايعطّل التكاليف الربّانيّة ، ولكنَّه يغذّيها ويقويها ويدفعها إلى الميدان غنيةً قوية .

إن ذكر الله يوقظ القلب ويحيي النفس والعزيمة ، ويبعث النشاط والقوّة ، ويذكّر بما أمر الله به . إن ذكر الله هو ذكر لأوامره وتكاليفه ودينه ، والأمانة التي حملها الإنسان ، وللموت والبعث والحساب والجنّة والنار ! إنه ذكر ممتدٌّ لكل قواعد الإيمان والتوحيد ولقواعد منهاج الله ، لكل قواعد شرع الله ودينه الحق ، وأوامره ونواهيه .

إن ذكر الله ، على ضوء ذلك يرسم النهج ويمدّ الدرب ، ويقيم عليه الأهداف الربانيّة الثابتة معالم متلألئة متوهجة بالنور الفياض .

إن ذكر الله الذي تذكره الآية الكريمة والحديث الشريف ، هو الذكر الذي

---

(١) مسلم : ٢/ ٣٠/ ٣٧٣ - أبو داود : ١/ ٩/ ١٨ - الترمذي : ٤٩/ ٩/ ٣٣٨١ - ابن ماجه : ٢/ ١١/ ٣٠٣ .

يصاحب المسلم العامل الناهض إلى مسؤولياته وتكاليفه ، يصاحبه وهو يعمل ويسعى ويدعو ويربّي ويتعهّد ويبني ويجاهد ، وكل ذلك في سبيل الله . فذكر الله الذي تعنيه الآيةوالحديث ليس للقاعد الغافل ، ولا للذي يجرى ويلهث خلف الدنيا ومتاعها .

أمام المسلم وهو ماضٍ في سبيل الله خطران : خطر الضعف والتوقف ، وخطر الانحراف . إن ذكر الله بشروطه الإيمانية يدفع من يتوقف ويمدّه بالعون لينطلق ، ويقوّم من ينحرف ليعود إلى الصراط المستقيم .

نعم ! ولذكر الله أكبر ! ولكن كثيراً من المسلمين اليوم يظل التصوّر في ذهنهم أَن «ذكر الله » يعني التسبيح بالأصابع واللسان في حركات تصدر منه وهو واعٍ لها أو غير واع ، ولكنه قابع في مكانه حين يكون واقع الأمة يدعوه إلى النهوض فلا ينهض ، ويحسب أن التسبيح الذي يقوم به يكفيه .

إن كلمة « **الذكر** » من أكثر الكلمات تكراراً وتأكيداً في الكتاب والسنّة . وفي جميع الحالات تظل الكلمة مرتبطة مباشرة أو غير مباشرة باسم « الله » جلَّ جلاله أو باسم من أسمائه أو بكتابه . وكذلك يرتبط « **الذكر** » مع جميع التكاليف الربانية . وخير ما نفعله لنوضح هذه الصورة هو أن نأخذ قبسات من كتاب الله :

﴿ **ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر** ﴾ [القمر : ٢٢]

﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر و إنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩]

فالذكر هنا هو القرآن الكريم أو هو تلاوته وتدبُّره .

﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربّه فصلى** ﴾ [الأعلى : ١٥]

فلقد دفع ذكر الله المسلم الذي يزكي نفسه إلى النهوض إلى الصلاة ، ومن ثمّ النهوض إلى سائر الشعائر من صيام وحج وزكاة ، وإلى تسبيح ودعاء وغير ذلك .

﴿ **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام ..** ﴾ [الحج : ٢٨]

﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم و إن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ [البقرة : ١٩٨]

فارتبط ذكر الله هنا بالحج وشعائره ومناسكه . وتتوالى الآيات لتربط ذكر الله بمعظم المناسك في الحج أو جميعها .

﴿ ولكلّ أمّة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام .. ﴾ [الحج : ٣٤]

وهنا نرى كيف يمتدّ « ذكر الله » مع جميع الرسالات الربانية ، ويظلّ مرتبطاً بالمناسك والعمل والسعي .

وكذلك :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصرّوا على مافعلوا وهم يعلمون ﴾

[آل عمران : ١٣٥]

فقد دفع ذكر الله هنا إلى الاستغفار والتوبة . مادام ذكر الله يصاحب المسلم في حياته ، حتى حين يخطىء يكون ذكر الله هو القوة التي تعيده إلى الحق والتوبة والإنابة .

﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١]

فارتبط ذكر الله بالسعي الصادق إلى الدار الآخرة ، والسعي الذي يكون رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة في هذه المسيرة ، وما فيها من دعوة وبلاغ ، وتربية وبناء ، وجهاد ماضٍ في سبيل الله ، وغير ذلك من التكاليف الربانيّة .

﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الزخرف : ٣٥، ٣٦]

ويصبح ذكر الله هنا هو الذي يدفع المؤمن إلى السبيل الحق والنهوض إلى مافيه من تكاليف ربّانية ، ومن يعشُ عن ذكر الله وينس ذكر الله يتولاه الشيطان ويصدّه عن السبيل ويزيّن له الضلال ، حتى يحسب أنه مهتدٍ فيزيّن له القعود عن التكاليف التي أمره الله بها ، أو يفصلها بعضها عن بعض ليعطل هذه ويأخذ بتلك حسبَ هواه .

ذكر الله هو الذي يربط التكاليف الربانية كلها حتى تكون سبيلاً واحداً وصراطاً مستقيماً . واستمع إلى هذه الآيات الكريمة :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة : ٩ ، ١٠]

وهنا « فاسعوا إلى ذكر الله . . » ، أي إلى صلاة الجمعة وما يسبقها من تلاوة لكتاب الله ، ودعاء وتسبيح ، وخطبة . وحتى إذا انقضت الصلاة ارتبط ذكر الله بالسعي في الأرض والانتشار فيها يبتغون من فضل الله ويذكرون الله في كلّ أمرهم ، وهم يدعون إلى الإسلام أو يعلِّمون أو يتعلمون أو يجاهدون .

ولنتدبر هذه الصورة من ذكر الله ، حيث يأتي الذكر في أعمال وأنشطة متعددة مترابطة على درب واحد قويم وصراط مستقيم .

﴿ إن ربّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدِّر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ماتيسّر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ماتيسَّر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾

[المزمل : ٢٠]

إنه درب ممتد ، يَقوم المؤمن فيه بهذه الأنشطة والتكاليف الربانية ، وكل تكليف منها هو ذكر لله وعبادة له : قيام الليل ، تلاوة القرآن الكريم ، القتال في سبيل الله ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإنفاق في سبيل الله ، وإقراض الله قرضاً حسناً ، ليَعْنيَ امتداد العمل الصالح على هذا الدرب ، على صراط مستقيم ، يصاحبه ذكر الله ، أو يكون هو نفسه ذكراً لله .

وصورة أخرى :

﴿ يـاأيها الذين آمنـوا لاتلهكم أمـوالكم ولا أولادكم عن ذكـر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقنـاكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربِّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فـأصّدق وأكن من الصالحين ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعلمون ﴾ [المنافقون : ٩-١١]

ارتبط ذكر الله هنا بالصراط المستقيم الممتد ، الذي لايجوز للمسلم أن يلهيه عنه أمواله ولا أولاده ، لتظل مسيرته على صراط مستقيم في سبيل الله ممتدّة مع ذكر الله ، أو هي كلها ذكر الله : « **لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . وارتبط كذلك بقضية الإنفاق في سبيل الله ليؤكد القرآن الكريم أهميتها ، ولأنها موضوع رئيس في السورة كلها ، ولأنها من أهم قضايا المسيرة في سبيل الله .**

وصورة أخرى في سورة التغابن تربط العمل كله بالله سبحانه وتعالى . تربط العفوَ والتقوى والسمع والطاعة والإنفاق ثم الانطلاق في سبيل الله الممتد ، تربط هذا كله بالله وبذكر الله يأتي هذا كله من خلال آيات بيّنات في ذروة البيان الحق :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون * إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم

والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ [التغابن : ١٤-١٨]

ففي هذه الآيات البيّنات ارتبط الحذر والعفو والصفح والمغفرة بالله سبحانه وتعالى . جاء الأمر منه سبحانه وتعالى « **فاحْذروهم** » ، وضرب الله للمؤمنين مثلاً من نفسه ليغفروا ويحذروا في هذا الموقف ، فالله غفور رحيم . وربط التقوى بالله : « **فاتقوا الله . .** » ، ثم ارتبطت بالله سائر التكاليف « **واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا** . » وامتد السبيل في تعبير قرآني جامع معجز ممتدّ الظلال : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ..** ﴾ فكأنما العمل الصالح المرتبط بذكر الله قرض لله !

هذا كله هو ذكر لله ممتد في حياة المؤمن ، لترتبط أعماله كلها ، صغيرها وكبيرها ، بالله سبحانه وتعالى ، وليصبح ذكر الله هو الجامع لهذه الأعمال كلها ، والدافع ، والموجه لها .

وكذلك :

﴿رجالٌ لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [النور : ٣٧، ٣٨]

﴿ **لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . .** ﴾ ! ثم تلا ذلك الصلاة والزكاة إشارة إلى الشعائر التي هي الأساس الذي يقوم عليه الإسلام كله ، وعمل المؤمن كله ، ولا يُقْبَل العمل دون الوفاء بها ، كما يفيد حديث رسول الله ﷺ عليه وسلم : « **بُنِيَ الإسلام على خمس . . .** »

« **لاتلهيهم عن ذكر الله . . .** »، عن العمل في سبيل الله ، عن الصراط المستقيم ، عن النهج الممتد الذي ينيره ذكر الله في كل سعي يمضي به المؤمن ليوفي عهده مع الله ، ويؤدي الأمانة التي حملها ، والخلافة التي جعلت له ، والعبادة التي خُلق لها ، من خلال ابتلاء وتمحيص .

ويوضح لنا سبحانه وتعالى هذه السبيل الممتدة والصراط المستقيم بآيات ، تصور لنا السبيل في أساليب متعددة وصور شتى . ففي **سورة الصف** نجد الصورة التالية في آيات بيّنات :

﴿يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾

[الصف : ١٠-١٣]

صورة مشرقة ودرب جليّ مشرق ممتد ، يشرق بذكر الله في كل عمل فيه . « **تؤمنون بالله . . .** » ! وهذا هو أول الذكر ، والقاعدة الرئيسية التي يقوم عليها كل عمل بعد ذلك . وهل هنالك ذكر لله أشد من الإيمان به ، ثم الانطلاق للعمل بطاعته على صراط مستقيم . ويصوّر لنا القرآن الكريم هذا الصراط المستقيم بالجهاد في سبيل الله :

﴿ **... وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ..** ﴾ فجاءت كلمات : «تجاهدون في سبيل الله . . . » لترسم الدرب كله بعرض أهم التكاليف فيه لتدخل كلها فيه ، وليكون الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس معبّراً عن وفاء المسلم بالتكاليف الربانيّة كلها بتكاملها وترابطها ، ولتكون ذكراً لله ممتداً . وهل هنالك ذكر لله أعظم من الإيمان به والانطلاق إلى تكاليف الإيمان كلها ، والاستجابة إلى الله روسوله ؟!

حقّاً ! « **... ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون** » إن الله يعلم مانصنع ، وكيف نصنع ذلك ، وهل كان عملنا ذكراً لله أم لم يكن ! .

نرجو أن تكون صورة « ذكر الله » قد وضحت ومعناه قد بان ، من خلال الآيات البيّنات .

« فذكر الله » إذن ليس عملاً معزولاً أو يعزل أعمال المؤمن ويفصلها . إنه العمل الجامع الذي يربط عمل المؤمن كله بالله ، ويربطها كلها فيما بينها لتكون كلها مرتبطة بالله ، ولتكون كلها « **ذكراً لله** » .

ولذلك جاء التوجيه الربّاني للمؤمنين جلياً مؤكداً بمتابعة الذكر آناء الليل والنهار :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبّحوه بكرة وأصيلا * هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾

[الأحزاب : ٤١-٤٣]

إنه ذكر لله ممتد في حياة المؤمن العامل القائم بالتكاليف الربانيّة ، المستجيب لله ولرسوله ، ليس بالتسبيح وحده ، وإنما بجميع مايأمر به الله ورسوله . ولذلك جاء ذكر الله ليكون أمراً من عند الله وتكليفاً منه ، مع كل عمل المؤمن ، ليذكر المؤمن ويطلق طاقاته وقدراته في سبيل الله .

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون * ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون ﴾

[البقرة : ١٥٢ - ١٥٤]

يأتي التكليف بذكر الله : « . . فاذكروني أذكركم . . . » من خلال التكاليف الأخرى ، ليكون ذكر الله ممتداً مع أعمال المؤمن . يأتي الأمر بذكر الله ، لينهض المؤمن إلى ماجاء به رسول الله من آيات بينات وكتاب مبين ، وإلى ماعلَّمهم مما لم يكونوا يعلمون . وجاء الأمر وأعقبه الاستعانة بالصبر والصلاة ، لما في التكاليف من جهد وبذل يعظم حتى يبلغ الموت في سبيل الله .

وجاءت الأحاديث الشريفة توضح كذلك معنى ذكر الله ومنزلته في الإسلام :

فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله عز وجلّ أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني . فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرتُهُ في ملإٍ خير منه . وإن اقترب إليَّ شبراً اقتربتُ إليه ذراعاً وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** » [رواه الشيخان والترمذي] (١)

(١) البخاري : ٩٧/١٥/٧٤٠٥ . مسلم : ٤٨/١/٢٦٧٥ .

وعن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ قال : « **مثَل البيت الذي يذكر فيه الله والبيت الذي لايذكر فيه الله كمثل الحي والميت** » [رواه الشيخان] (١)

ففي الحديث الأول توجيه للمسلم بأن يذكر الله سبحانه وتعالى في نفسه وفي ملأ من الناس ، وبأن يقترب إلى الله ! وبماذا يقترب إلى الله ؟ بالطاعة والعمل الصالح والاستجابة لأمره . فاقترن ذكر الله هنا بالعمل والسعي للتقرّب إلى الله بالعمل والبذل لا بالقعود ، حتى يقترن العمل كله بذكر الله ، وبالله ، وليكون في سبيل الله .

وفي الحديث الثاني يظل ذكر الله نديّاً غنيّاً في البيت ، في بيت المسلم ، ليحيا البيت ولايكون ميتا وكذلك الحديث الآخر عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ ﷺ : **مثل الذي يذكر ربّه والذي لايذكره مثل الحي والمّيت**» [رواه البخاري] (٢)

وعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يارسول الله ! إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به . قال : « **لايزال لسانك رطباً من ذكر الله** » .

[رواه الترمذي] (٣)

هكذا يأتي السؤال : أخبرني بشيء أتشبّث به ؟ ! أي عن شيء يلازمه في كل أحواله وعمله ، على ضعف وُسْعِه وطاقته . وهكذا أتى الجواب : « **لايزال لسانك رطباً من ذكر الله** » . فذكر الله هو العمل الذي يلازم المؤمن في جميع حالاته ومع جميع أنشطته وأعماله . فلا يعني الحديث أن يفصل ذكر الله عن مسؤولياته وتكاليفه التي يقوي عليها في حدود وسعه كما عرضناه .

هكذا يجب ذكر الله والصلاة على رسوله في كل مجلس يجلسه المؤمنون : فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **ماجلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة (نقصان وحسرة) فإن شاء عذبهم و إن شاء غفر لهم** » .

[رواه الترمذي] (٤)

---

(١) صحيح الجامعالصغير وزيادته : (ط:٣ – (رقم : ٥٨٢٧) . مسلم : ٦/ ٢٩/ ٧٧٩ .
(٢) البخاري : ٨٠/ ٦٦/ ٦٤٠٧ . (٣) الترمذي ٤٩/ ٤/ ٣٣٧٢ .
(٤) الترمذي : ٤/ ٨/ ٣٣٧٧ .

فعن الأغرّ أبي مسلم أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : « **مامن قوم يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده** » [رواه الترمذي] (١)

وهكذا يمتدّ ذكر الله مع المسلم في نفسه وفي بيته وفي مجالسه ، ويمتد إلى جميع الميادين .

وإذا أخذنا جانباً من ذكر الله وهو الدعاء ، فقد سنّ الإسلام للمسلم الدعاء في جميع أحواله : عند نومه واستيقاظه ، وخروجه ، وفي طريقه إلى المسجد أو عمله ، وفي دخوله المسجد ، وعند الآذان والإقامة وبينهما ، وعند الدخول في الصلاة وبعدها ، وفي خروجه من المسجد ، وعند دخوله بيته وعند الطعام والشراب واللباس ، والخطبة والنكاح ، والجماع ، وفي مجلس دعوة وبلاغ ، وفي ميدان الجهاد ، وفي كل موقع ومع كل حالة .

فذكر الله : تسبيح ودعاء يرافق المسلم في جميع أحواله ، وطاعة وعبادة يؤديها من تلاوة أو صلاة أو سائر الشعائر، ومن طلب العلم ، ومن دعوة وبلاغ ، وتربية وبناء ، وجهاد في سبيل الله ، وفي كل ميدان يخوضه المسلم باسم الله وفي سبيل الله ، كل هذا هو ذكر متصل لله .

وذكر الله على ضوء ماسبق يمكن أن نقسمه قسمين للتوضيح والتيسير ، علماً أنهما في الواقع متصلان يكونان تصّوراً واحداً مترابطاً متناسقاً :

القسم الأول : الدّعاء والتسبيح .

القسم الثاني : كل عمل صدقت فيه النية الخالصة لله فكانت النيّة ذكراً لله ممتداً مع العمل ، وخضع في مسيرته لدين الله وشرعه ، ماضياً على صراط مستقيم ، مرتبطاً بالله ، متجهاً لله وللدار الآخرة ، ماضياً في سبيل الله ، مرتبطاً بالدعاء والتسبيح .

---

(١) الترمذي : ٤٩/٧/٣٣٧٥ .

الفصل الثالث

في سبيل الله

يكثر بعض الناس هذه الأيام نسبة مايبذلون من مال أو جهد أو قتال أو كلمة إلى أنه في سبيل الله . وعسى أن يكون الجميع إن شاء الله صادقين . وقد كثر استعمال كلمة «شهيد» على كل قتيل ، حتى لو كان ملحداً أو من أهل الكتاب ، أو منتسباً إلى الإسلام انتسابا لا ترافقه إقامة الشعائر ولا ذكر الله ولا علم بدين الله . وكثرة استخدام هذه المصطلحات «**الإيمانية**» توحي أحياناً باختلاط الصورة والتصوُّر والمفهوم لدى بعض القائلين .

ومع استمرار هذه الشبهة أو الخلل ، اتسع التساهل والتراخي حتى أصبح يقول بعض المسلمين « . . **في سبيل الوطن** » ، «**أقاتل في سبيل الوطن**» ، «**أبذل في سبيل العائلة**» ، « **أضحي في سبيل القومية** »، **وغير ذلك من التعبيرات المشابهة التي تستخدم** كلمة « **في سبيل**» مع أي خاطرة تبدو لصاحبها .

وربما اختلطت في بعض الأذهان معاني بعض الأحاديث الشريفة مع أحاديث أخرى ، تستعمل هذه « **في سبيل الله . .** » ولاتستعمل تلك « . . **في سبيل الله . .** » .

ففي الحديث الشريف عن سعيد بن زيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد** » [رواه أحمد] (١)

والحديث صحيح . وهنالك حديث آخر عن أبي موسى الأشعري . قال جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يارسول الله : رأيتُ الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** » [رواه أحمد والشيخان] (٢)

(١) أحمد : الفتح الرباني : ١٤/ ٣٤ . صحيح الجامع الصغير ورديادته : (ط : ٣) حديث رقم (٦٤٤٥) .
(٢) أحمد - الفتح الرباني : ١٤/ ٢٠ . صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني ط٣ حديث رقم (٦٢٩٣) .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « **من غزا في سبيل الله وهو لاينوي في غزاته إلا عقالاً فله مانوى** » [رواه أحمد والنسائي والحكم] (١)

والأحاديث الشريفة كثيرة حول معنى في « **سبيل الله** » ، والآيات الكريمة آيات بينات تفصّل معنى في « **سبيل الله** » كذلك أدقَّ تفصيل حتى ، لاتترك مجالاً لمرتاب أَو سائل . لانستطيع هنا أن نورد ذلك كله ، ولكننا نأخذ قبسات فحسب . ولانستطيع أن نعرض الصورة كلها كما يعرضها منهاج الله ، ولكننا نأخذ جانباً منها .

من الأحاديث السابقة يتضح أن النيّة شرط رئيس في معنى « **في سبيل الله** » فلا بد أن تكون النيّة خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى واعية لذلك ، حذرة من أن تنحرف فتضلَّ ، يقظةً لتدفع أي فتنة أَو ضلال .

وإخلاص النيّة لله سبحانه وتعالى يقتضي أن يكون المسلم واعياً لما هو مقبل عليه ، مدركاً أن عمله خاضع لمنهاج الله وأَحكامه ، لحديث رسول الله ﷺ عن عائشة رضي الله عنها : «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** » [رواه أحمد ومسلم] (٢)

وهذا شرط آخر لمعنى « **في سبيل الله** » ذلك أن يكون العمل خاضعاً لأحكام منهاج الله .

فإذا كان بعض المسلمين جاهلين لأَحكام منهاج الله ، فإنهم يُقبلون على أعمال تدفعهم إليها العاطفة ، ويحسبون أن قصدهم « **نبيل** » ويريدون « **الخير** » ، ويطلقون من التعبيرات مايخفون به جهلهم أو انحرافهم ، ويحسبون بعد ذلك أنهم على شيء ، فإذا عملهم باطل مردود عليهم مادام غير خاضع لأحكام منهاج الله .

من هذا كله ، ومن الآيات والأحاديث حين نتدبرها كلها ، نجد أن المعنى الرئيس لكلمة « في سبيل الله » هو منهج ودرب ممتد من الدنيا إلى الآخرة . ولا يصحّ استخدام كلمة « سبيل » أو «**في سبيل** » إلا لتدلّ على هذا الدرب الممتد والنهج المتماسك ، ليرتبط

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٦٢٧٧) .
(٢) المصدر السابق : (رقم : ٦٣٩٨) .

العمل الواحد مع ماقبله ، ومع مابعده ، ارتباط نيّة وارتباط درب وهدف . وانظر إلى هذه الآية الكريمة :

﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ [يوسف : ١٠٨]

نعم ! هذه سبيلي . . « أدعوا إلى الله .. » ، « .. على بصيرة .. » ، « وسبحان الله .. » « وما أنا من المشركين » كل واحدة من هذه القواعد ضرورة لتحقيق معنى في «سبيل الله » ، حتى تتضح صورة الدرب الممتد والنهج المترابط . ويأتي التعبير « . . أنا **ومن اتبعني . . »** ليقرر شرطاً آخر : وهو أنه درب لايختلف عليه المؤمنون ، يمضون عليه في سبيل الله ، لا في سبيل شيء آخر ، أمة واحدة تتبع ما أُنْزِل من عند الله وما بلَّغهم إياه رسول الله ﷺ ، في إنابة وخضوع وخشوع . إنه درب حق ونهج حق ، ينطلق من نقطة واحدة على صراط مستقيم إلى غاية محدَّدة هي الدار الآخرة ، فكيف يختلف المؤمنون الصادقون ، والمنطلق واحد ، والدرب واحد ، والغاية واحدة ؟! إنه في سبيل الله ! فكيف يختلف المؤمنون الصادقون إلا اذا اختلفت النيّة واضطربت ، أو اختلف العلم بمنهاج الله واضطرب ، أو تاهت الأهداف وتشعَّبت ! .

ونلاحظ دقّة التعبيرات الربّانية في آيات الله البيّنات وفي أحاديث رسول الله ﷺ . تدبّرْ حديث رسول الله ﷺ : **«من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله مانوى »** . سار على الدرب بنية فاسدة ذهبت بالأجر من عند الله ، سار على الدرب مع المؤمنين ، على درب في سبيل الله ، حتى لايظنّ أحد إلا أنه استكمل شروط «في سبيل الله » كلها . ولاننسى قصة الرجل في غزوة خيبر الذي قاتل مع المسلمين حتى ظنّوا به كل الخير ، فأعلمهم رسول الله ﷺ أنه من أهل النار . ولما وجدوه بعد ذلك ، رأَوا أنه قتل نفسه غير متحمل الأَلم .

هذا وجه من وجوه الفتنة أو الانحراف ، ومثل على دقة التعبيرات في الآيات والأَحاديث . ولنتدبر الحديثين الأوليين السابقين **« من قتل دون ماله فهو شهيد . . »** ، **« . . من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »** . لقد جاء التعبيرات في

الحديث الأول : « من قتل دون ماله » ، ولم يقل : « من قتل في سبيل ما له ، ذلك لأن التعبير : من قتل دون ماله ، يتضمن أموراً معلومة بالضرورة ، فكلمة « من » هنا لا تعني أي إنسان . إنها لاتعني الكافر الملحد ولا المشرك . إنها تعني من قتل دون ماله وهو مؤمن . . . » فالحديث يدور حول عمل المؤمنين الذين توافرت فيهم شروط الإيمان من صدق النية وصدق العلم بمنهاج الله . فالمؤمن حين يكون ماضياً في سبيل الله ، ماضياً على الدرب الممتد ، بجمل النيّة الخالصة ، متوجهاً إلى الهدف الأسمى إلى الجنة ، إلى الدار الآخرة ، إلى رضوان الله ، فإنه يلقى على دربه قضايا متعدّدة قد يضطر إلى أن يقاتل دونها وهو على الدرب الممتد . فقد يقاتل دون ماله كما جاء في الحديث الشريف ، وليس في سبيل ماله . وقد يقاتل دون أرضه ، أو دون أهله ، أو دون وطنه ، وهو على الدرب الممتد يحمل النيّة ماضياً إلى الهدف الأسمى . فهو لايقاتل إذن «في سبيل أرضه » ، ولكن يقاتل «دون أرضه » ، ذلك لأن في سبيل أرضه تعني أن أرضه هي الهدف الأكبر والأسمى ، الهدف الذي لاهدف بعده . وهذا لا يُقرّه التصور الإيماني . ولو استعرضنا الآيات والأحاديث التي جاءت فيها كلمة «في سبيل الله » ، لوجدنا أنها تحمل دائماً النيّة الخالصة والدرب الممتد والهدف الأكبر والأسمى الذي لاهدف بعده ، وهو رضاء الله والجنة . من هنا ندرك عظمة التعبيرات في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة حيث جاء في حديث رسول الله ﷺ : « من قُتل دون ماله . . . » .

لاننكر أن هذه التعبيرات والمعاني اختلطت في أذهان الكثيرين في واقعنا اليوم ، وبخاصة فيما يتعلق بالأمور المثيرة للعواطف الحبيبة إلى النفوس ، كالوطن مثلاً ، وأمثاله . فقد أصبحت كلمة « الوطن » تتردد على الألسنة وترتفع شيئاً فشيئاً إلى درجة من التقديس ، ثم إلى درجة من العبادة .

فنجد من يقول مثلاً : قاتل في سبيل الوطن أو قُتِل في سبيل الوطن ، يموت في سبيل الوطن ، يَحْيا في سبيل الوطن . فقد كانت المغالاة هنا في استخدام كلمة « في سبيل الوطن » مجانبة دقة التعبير . وعسى أن لاتكون هذه المغالاة أو عدم دقة التعبير مظهراً لاضطراب التصوّر .

وترتفع المغالاة إلى درجة أعلى عند شوقي ، حتى يجانب الحق والتصور السليم حين يقول :

وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وندعو لشوقي بالمغفرة والرحمة ، ولأمثاله ممّن مضوا إلى ربهم الله الذي لاإله الا هو . ونعتقد أنهم الآن مشغولون بما هم فيه من وراء البرزخ ، لاتنازعهم نفوسهم إلى ديارهم ولا إلى شيء من الدنيا ، ولكنها تجأر إلى الله تسأله الرحمة والمغفرة .

ثمَّ يرتفع تقديس « الوطن » عند خير الدين الزركلي إلى درجة العبادة حين يقول :

لو مَثّلوا لي مُوْطِني وَثَناً لهمْمتُ أعْبُد ذلك الوثَنا

ولقد أِلفَ بعضهم مثل هذه التعبيرات ، حتى أخذوا يبحثون عن مسوّغات فنّية أو فكرية ، حين تثير في نفوسهم الحميّة لهذا الأمر من أمور الدنيا أو ذاك ، أو حين يروق لهم مايسمونه بالجمال الفنّي ، ليطغى على ماتقدّمه التعبيرات من انحراف فكري .

ولقد استُغلّت قضية الجمال الفنّي لتسوّغ الخروج عن الأدب والأخلاق ، والانحراف إلى وحول الجنس وشهوة الجسد ووصف المفاتن . ويدور الخلاف حول قبول ذلك أو رفضه . ويمضي الانحراف ليمتَدَّ وينتشر لايعوق الخلافُ انتشاره وامتداده .

الأدب الملتزم بالإسلام ، أدب المؤمن ، يحرص على طهارة اللفظة والتعبير ودقتهما ، كما يحرص على طهارة المعنى ، ليخرج الجمال الفنّي الصادق من جمال اللفظة وطهارتها ، وجمال المعنى وطهارته ، وليصوغ هذا كله جمال الصورة والحركة .

والمؤمن الذي يتلقى الأدب يهتزّ ويطرب لهذا اللون من الجمال الفنيّ ، وينفر من الانحراف في اللفظة والمعنى مهما حمل من زخرف يهيج الحمية الجاهلية ، أو يلهب نوازع الشهوة .

إن حقيقة التصور الإيماني هو الذي يجعل الولاء الأول لله ينبع منه كل ولاء في الدنيا

(١) مسلم : ٢/ ٣٠/ ٣٧٣ - أبو داود : ١/ ٩/ ١٨ - الترمذي : ٤٩/ ٩/ ٣٣٨١ - ابن ماجه : ٢/ ١١/ ٣٠٣ .

، والـذي يجعل العهد الأول مـع الله يَنبع منه كل عهـد في الحيـاة الـدنيا ، والـذي يجعل الحب الأكبر لله ولرسـوله يَنبع منه كل حبٍّ في الحيـاة الدنيا ، إن هذا التصـوّر الإيمانيّ هو الـذي يضبط اللفظة والتعبير والمعنى ، ويهب ذلك كلـه وضاءة الطهـارة وإشراقه الفكـر ودقة التعبير ، فتجيء الموهبة لتصوغ منه من ذلك الجمال الفني المؤثر .

من أجل ذلك كـان من قـواعد الإيمان والتـوحيـد أن يكـون الله ورسولـه أحبَّ إلى المؤمن ممـا سواهما ، وأن يظهـر هذا الحب الأكبر في الكلمـة والتعبير في ميدان الأدب وفي ميدان الحيـاة العامة ، وأن يظهر في القصيـدة وسائر أبواب الأدب ، وأن يظهـر كذلك في المسعى والسلوك ، وفي الموقف والرأي .

إن أشياء كثيرة مـادية تثير عواطفنـا ، وشعارات تلهب مشاعـرنا ، ورجالاً ينـالون حبنا ، ولكنّ المؤمن يستطيع أن يميـز بين الحق والباطل ، وأن يظل حبـه لله ولرسولـه هو الحب الأكبر في جميع حالاته :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدُّ حبـاً لله ولو يـرى الذين ظلموا إذ يـرون العذاب أن القـوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾ [البقرة : ١٦٥]

وتتوالى الآيات والأحاديث لتؤكد هذه القاعدة الرئيسة من قواعد الإيمان والتوحيد ، وتغـرسها في نفـوس المؤمنين لتظل كلمتهم ورأيهم ، وسعيهم ومـوقفهم ، أقرب للتقـوى وأقرب لدين الله وشرعه .

نخلص من ذلك إلى أن كلمـة « **في سبيل الله** » **كلمـة محدّدة المعنى والـدلالـة ، ترتفع لتأخـذ مكانتهـاالعالية الأمينهـةفي الفكر والعاطفـة والممارسة . وهي تمثّل نهجـاً ممتداً ودرباً ماضيـاً تدل عليه كلمة « في سبيل » ، ثم تمثل الهدف الأكبر والأسمـى الذي لايعلوه هدف ولا يأتي بعـده هدف . إنـه نهاية الدرب ، الـذي يدل عليـه اسم الجلالة – الله – في** التعبير « في سبيل الله » ، وأن كل هدف أدنى من الهدف الأكبر والأسمـى والغاية النهـائية

لا تصحّ معه كلمة « في سبيل » وإنما كلمات أُخرى مثل : من قُتِل دون ماله ، أو دون وطنه ، أو دون عرضه . ويكون في هذه المواقف كلها ماضياً على الدرب نفسه إلى الهدف الأكبر والأسمى . وتصبح كلمة « في سبيل الله » تضبط لنا الفكر والتصوّر ، والشعور والعاطفة ، والسلوك والموقف ، والكلمة والرأي .

وقد يتهاون بعض المسلمين ، حين لاتنضبط كلماتهم ، فيستخدمون في أدبهم نثراً أو شعراً كلمات من أهل الكتاب لاتتفق مع التصوّر الإيماني . مثل كلمة « الصليب » يستخدمونها في موقف القبول والاستحسان .

نسأل الله أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد في نيّاتنا وألفاظنا وسعينا ، وفي أدبنا وجهادنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

إن بلوغ الجنّة يقتضي المضيّ على هذا الدرب ، على هذا الصراط المستقيم دون الخروج منه أو الانحراف عنه :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

« **في سبيل الله** » صراط مستقيم ، ومسيرة مباركة تحمل مسؤوليات وتكاليف ربّانية تنطلق كلها من الإيمان والتوحيد ومن منهاج الله ، لتمثل أهدافاً ثابتة على الدرب ومراحل معيّنة مترابطة ، كلُّ هدف يوصل للذي يليه ويمضي معه ، لتمضي الأهداف كلها معاً ولتقود إلى الهدف الأكبر والأسمى . إن بلوغ الجنّة يحتاج إلى مسيرة جادة فيها جُهد وبذلٌ وجهاد ، وفيها صبر ومصابرة . ولكن هذا يحتاج إلى الإرادة والعزيمة من اللحظة الأولى ، إرادة وعزيمة نابعتين من خشية الله :

« فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إنّ سلعة الله غالية ألا إنّ سلعة الله الجنّة »

[رواه الترمذي والحاكم في المستدرك] (١)

(١) الترمذي : ٣٨/ ١٨/ ٢٤٥٠ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٦٢٢٢)

« **في سبيل الله** » مسيرة لايصحّ فيها التـوقّف والقعود . وكيف يبلغ الجنّـة من قعد عن التكاليف إلا بـرحمة من الله . ولايصحّ فيها الانحـراف ، فإنه فتنة وضـلال وهلاك . والتـوقُف يَفْصِل الأهـداف والمراحل ويعطّلهـا ويعطل المسيرة ، والانحـراف خـروج عن المسيرة كلها ، عن الأهداف والمراحل والهدف الأكبر والأسمى . ولايصح السير دون زاد ، فكل رحلة لها زادها ، وكل مسافر يتزوّد ، وزاد المسيرة على درب « في سبيل الله » : الإيمان والتوحيـد ، وتدبّر منهـاج الله ، ووعيُ الواقع ودراستـه من خلال منهاج الله ، فهـذا هو الزاد الرئيس ، وعليه يقوم أيُّ زاد آخر ، ولايصلح الزاد الآخر دونه في هذه المسيرة .

« **في سبيل الله** » تكاليف ربّـانية متّصلـة لاينفصل بعضها عن بعض ، يمضي بها المؤمن على صراط مستقيم ليوفي بـالعهد ويـؤدّي الأمانة التي حملهـا ماضيـاً من هدف إلى هدف إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة ورضوان الله والدار الآخرة - ، على بصيرة ونور.

الفصل الرابع

أمانة " الكلمة " و " الفكرة "

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

مهما اختلف في تعريف هذه الأمانة التي حملها الإنسان ، فإنها ستظل دائماً في إطار ممارسة منهاج الله في الواقع البشري في الحياة الدنيا . إنها الممارسة الإيمانية في ميادين الحياة كلها .

ولقد كان من تكريم الله سبحانه وتعالى أن حمّل الإنسان هذه الأمانة . ويظل الإنسان في دائرة التكريم وهو يجاهد صادقاً ليوفي بهذه الأمانة العظيمة . فإذا تخلّى الإنسان عن هذه الأمانة وأعرض عنها فإنه يصبح ظلوماً جهولاً .

ولقد جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تُلحُّ بهذه القضية إلحاحاً كثيراً ، لتبرز لنا خطورتها في حياة البشرية كلها . وربطت بعض الآيات والأحاديث هذه الأمانة بالعهد الذي يُبرمه المؤمن في حياته الدنيا ، سواء أكان العهد كلمة يلفظها ، أم عقداً يبرمه . ونأخذ هنا قبسات من منهاج الله ، ليعود المسلم إلى منهاج الله فيرى الصورة بكامل تفصيلاتها :

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ [المؤمنون : ٨]

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ [المعارج : ٣٢]

وعن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : « **لا إيمان لمن لا أمانه له ، ولا دين لمن لا عهد له** » [رواه أحمد وابن حبان في صحيحه] (١)

إن الأمانة هي محور العهد الذي أخذه الله من بني آدم من ظهورهم من ذريتهم في

(١) أحمد : المسند : ٣/ ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢٥١ ، الفتح : ١٤/ ١١٨ ، ١٩ / ٢٣٣ - صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) (حديث : ٧٠٥٦) .

عـالم الغيب . إنه عهـد الإيمان والتوحيـد الذي جعلـه الله في فطرة كل إنسـان ، إلا حين تنحرف الفطرة وتتشوّه فإن الأمانة تضيع والعهود تغيب .

﴿ و إذ أخـذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهـدهم على أنفسهم ألست بربكم قالـوا بلى شهدنا أن تقولـوا يوم القيامة إنا كنـا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنـا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصّل الآيات لعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤]

وتمتـد الأمانـة في حيـاة الإنسان إلى جميع الميـادين في الحيـاة الدنيـا ، ويظل المؤمن الصـادق هو الـذي يرعى الأمـانة بـأدق صورهـا ، يجاهد نفسـه وكبره وغروره ، ويجاهـد أهواءه وشهواته ، حتى يظل على عهده مع الله ، يوفي بالأمانة ويجاهد دون ذلك .

ويرتبط الوفاء بـالأمانة التي حملها الإنسان بأمر النصر الـذي ينزله الله على عباده . فـالنصر من عنـد الله وحـده ، يهيء الله أسبـابـه كلهـا ويمضي بها قـدره حتى يتحقق . فارتبط النصر إذن بالوفاء بعهد الله :

﴿ ... وأوفوا بعـهدي أوف بعـهدكم ... ﴾ [البقرة : ٤٠]

وأما وعد الله فثابت في أكثر من آية :

﴿ إنا لننصر رسلنـا والذين آمنوا في الحيـاة الدنيا ويوم يقـوم الأشهاد ﴾
[غافر : ٥١]

﴿ وعد الله الذين آمنـوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الـذين مـن قبلهم وليمكنن لهم دينهم الـذي ارتضى لهم وليبـدلنهم من بعـد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾

[النور : ٥٥]

هـذا هو وعـد الله ينجـزه لعبـاده المؤمنين وينزل النصر عليهم ، حين يـوفـون هم بعهدهم مع الله ، وذلك بالوفاء بالأمانة التي حملوها .

ومن أجلِّ أبواب الأمانة "**أمانة الكلمة** " و" **أمانة "الفكرة"** وأول معاني أمانة الكلمة أن تأتي الكلمة مشرقة بالطهر غنيّة بالصدق ، نابعة من الإيمان والتوحيد ، خاضعة لمنهاج الله ، تحمل الحقَّ وتنصره ، وتصد الباطل والفساد .

إن أول الوفاء بأمانة الكلمة أن تكون طيبة ينتشر طيبها من صدقها ووضوحها وجلائها . وتلك صفة الكلمة عند المؤمنين :

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ [الحج : ٢٤]

وكذلك :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥]

والكلمة الطيبة لاتعني أنها الضعيفة الخائفة ، اللينة بضعفها المستسلمة بخوفها . كلا ! إنها الكلمة القوية الصادقة . إنها الكلمة التي تلين حين تدعو وحين تتألف القلوب ، وهي الكلمة القوية حين تصدّ الفتنة والفساد ، والعدوان والظلم . إنها عبق في لينها وشدتها .

ولقد أعلى الله سبحانه وتعالى منزلة الكلمة وبيّن عظيم خطرها ، كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ :

« . . . **وهل يكب الناس في النار على وجوههم ، أو قال مناخرهم ، إلا حصائد ألسنتهم** » [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح] (١)

ذلك عندما لاتكون الكلمة موفية بالأمانة والعهد ، ولا نابعة من الصدق والحق ، ولا تكون «الفكرة» نقيّة صافية نابعة من جوهر الإيمان وبركة منهاج الله . إنها تكبُّ

(١) سنن الترمذي ٤١/ ٨/ ٢٦١٦ .

عندئذ صاحبها على وجهه في النار . ذلك عندما تفارق الكلمة الوفاء وتدخل ميدان الغدر والخداع ، والغش والظلم والعدوان .

ومن الوفاء بأمانة الكلمة حمايتها ، حماية الكلمة الطيبة وحماية حقها من أن يُعتدى عليها ، وحماية صاحبها .

إن "**الفكرة الصادقة**" و"**الكلمة الطيبة**" هي من أعظم مايقدمه المؤمن في حياته . إنها باب من أبواب الجهاد في سبيل الله . وإنها خفقة من خفقات الحياة . إنها الحياة التي يعرف بها الناسُ صاحبها ، والعزم الذي يتقدم به في دربه ، والأساس المتين الذي يلتقي عليه الصادقون ، والنور الذي يشقُّ الظلمات . فمن اعتدى على "**الكلمة الطيبة**" و "**الفكرة الصادقة**" فكأنه زلزل أساس اللقاء بين المؤمنين ، وأطفأ النور والضياء .

إن "**الفكرة الصادقة**" و "**الكلمة الطيبة**" قطعة من الإنسان المؤمن ، من كبده وقلبه ودمه ، إنها تخرج من أعماق أحنائه ، وأعماق نفسه ، فمن اعتدى عليها فقد اعتدى على الحياة ، على القلب ، وكأنه سفك الدم وأحلّ القتل الظالم . إنها جريمة كبيرة في حق الإنسان .

إن "**الفكرة الصادقة**" و "**الكلمة الطيبة**" شرف الإنسان المؤمن ومروءته وعرضه . وهي جوهر حياة الإنسان . ولا بأس أن نذكر ماقاله شكسبير : "**من سرق حافظة نقودي فقد سرق شيئاً تافها ، ومن سرق شرفي فقد سرق كل شيء**" .

إن حماية الفكرة والكلمة حماية لحياة الناس جميعاً ، وأمن المجتمع ، وصون الأعراض ، وحماية الروابط والعلاقات . إن حماية ذلك كله جزء من بناء الأمن ، والوفاء بالأمانة .

والمسلمون يجب أن يكونوا أحرص الناس على حماية الفكرة والكلمة وحقوقها وحقوق صاحبها . ولكن بعض المسلمين اليوم ضيع من هذه الأمانة ومن الوفاء بها الشيء الكثير .

نشرت إحدى المجلات مقالاً وصلها من كاتب يطلب نشره . ونشرت معه الأصل الذي سرق الكاتب منه مقالته حرفاً بحرف . فأي خزي أكبر من ذلك .

تقدم شاب لنيل شهادة الدكتوراه في بحث عن الشورى . فنقل نقلاً حرفياً واحداً وثمانين صفحة من كتاب في الشورى لمؤلف آخر دون أن يشير إلى ذلك . ولما عرفت الجامعة ذلك درست الموضوع وحقّقت فيه ، وكذلك الجهات المختصة ، وأوقفت أمر الشهادة .

شاب يشترك في ندوة شعرية فيلقي من جملة مايلقيه واحداً وعشرين بيتاً يأخذها بحرفيتها من ديوان شاعر آخر ، وينسب الأبيات لنفسه .

مجلة تأخذ فقرات من كتاب تنقلها حرفيا أو تضيف كلمة وتحذف كلمة ، ثم تنشرها بتوقيع كاتب آخر . وعندما يُراجع في ذلك صاحب المجلة يقول بكل هدوء : وماذا في ذلك كل الصحف تفعل مثلنا . فقيل له . كنت في خطأ فصرت في أخطاء . جميع الصحف والمجلات التي تحترم الكلمة لاتفعل ذلك .

هذه نماذج مكشوفة من عدم الوفاء بأمانة الكلمة . ولكن الناس مَهَروا في الوسائل والأساليب . فمنهم من تعجبه "الفكرة" في كتاب ، فيأخذها ويغير من صياغة صاحبها ، ويعيد نشرها ، كأنها كلمته . وحين يُسأل يقول : إنها خاطرتي ، وإنها " مثل وقع الحافر على الحافر " ! وإذا سُئل لماذا لم يُشِرْ إلى دراسة سابقة لهذا الفكرة وقد عُرِضَتْ عليه ، يصمت . وقد يقول ياأخي كله عمل لله وهذه أشياء بسيطة . ولما يجد أن الأمر قد وقف عند ذلك ، يتمادى ويبحث عن فكرة جديدة يسطو عليها ويعيد نشرها بصياغة تقترب أو تبتعد عن الأصل . إنها مهارة ولكنها مهارة المفسدين في الأرض ، مهارة الضّالّين ، لن تعود إلا بالشرّ على صاحبها .

وكأنما يتصور بعض الناس أن عزه أن يثبت وجوده في ساحة الفكر والبيان بأي طريقة ، فيتنافس الناس عندئذ الدنيا ، وتفسد النيّة ، وتفسد الكلمة ، ويبهت النور !

ما أكبرها من جريمة .

إن الله سبحانه هو الذي يبارك الكلمة ويطلق نورها ، وإن الإنسان يفسد على الناس بركتها ويُذهِب نورها بظلمه وعدوانه ، من خلال ابتلاء كتبه الله على عباده ، ليُمحِّص مافي الصدور ويكشف النيات ، ولتقوم الحجة لهم يوم القيامة أو تقوم عليهم .

وعندما يُعتدى على الكلمة أو الفكرة ، يُعتدى على غيرها ، فتتمزق الكلمات والأفكار بين هذا وذاك ، بعد أن كانت مترابطة متناسقة عند صاحبها .

ولو كانت "**الفكرة**" أو "**الكلمة**" جزءاً من منهج مترابط ، فأخذ هذا فكرة من هذا المنهج وعرضها بين الناس كأنها فكرته وموهبته ، لينال بها الثناء في الدنيا ، ثم أخذ آخر فكرة أخرى يعرضها بنفس النية والسعي وراء زينة الدنيا وعرضها بأسلوب غير كريم ، ثم فعل ثالث ورابع مثل ذلك ، فإن المنهج يتمزق إرباً ، وتضيع قيمته وفائدته ، ولايجد من يدعو له ، فتكون الخسارة كبيرة . والإثم كبيراً ، يحمل رائحة الخيانة أكثر مما يحمل رائحة الأمانة ، وقد يقترب الإثم من الجريمة .

المسلمون أولى الناس أن يحترموا حقوق الإنسان كلَّها . وحق حماية أمانة الكلمة والفكرة من أهم هذه الحقوق . ولقد أصبح هذا الحق معترفاً به بين الشعوب كلِّها حتى الوثنية منها ، ومنذ زمن بعيد . فما زلنا نقول حتى اليوم " نظرية فيثاغوروس " ، ننسبها لصاحبها ، لايعتدي عليها أحد . وكذلك سائر النظريات العلمية والأفكار الفلسفية .

ولكن المفسدين في الأرض هم الذين يبحثون عن فكرة يسرقونها ويطيرون بها ، أو فكرة يحرّفونها ، ذلك كله ليكسبوا عرضاً رخيصاً وزخرفاً تافهاً ، ولكنهم يرتكبون جريمة كبيرة .

وعمل المفسدين في الأرض قديم . فقد حرّف أهل الكتاب كلام الله وبدّلوا وغيروا ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، وارتكبوا جريمة كبيرة بحق الإنسانية كلها .

ومهما ظنّ بعض الناس أنهم ناجون في الدنيا ، فإن حساب الله شديد ، وعذابه شديد .

ونذكّر بحديث رسول الله ﷺ :

« . . . **فإذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة . . .** » [رواه البخاري] (١)

وربما يدّعي بعضهم أن الهدف الدعوة إلى هذه الفكرة أو تلك ، إذ المهم أن تنتشر الفكرة بين الناس ليستفيدوا منها . إنها مغالطة كبيرة يلبس فيها الشيطان على ابن آدم فيضلّه :

أولاً : ماالذي يمنع أن تنشر الفكرة وتُعزى لصاحبها .

ثانياً : كيف يُعطي أحد الحق لنفسه بأن ينال الثناء والأجر من الناس على كلمة أو فكرة ليست له ، ثم يعتبر أن صاحب الكلمة ليس من الضروري أن يلتفت إلى ذلك .

ثالثاً : إذا دعا صاحب الفكرة أو دعا غيره وعزا الفكرة لصاحبها ، فهناك مجال لأن تكون النيّة صادقة لله . أما إذا دعا غيره ونسب الأمر لنفسه فقد فسدت النيّة وبطل العمل .

ما أعظم الأمة التي تصون حق الإنسان في كلمته وفكرته بأمانتها وأمانة أبنائها ، أمانة نابعة من إيمان وتوحيد ، وخشية من عذاب الله الشديد .

وما أجمل أن يكون هناك قانون يصد فتنة المفسدين المعتدين ، ويحمي الكلمة وثروة الأمة ، ويحمي صف المؤمنين من وهن الضُعفاء وفتنة المنافقين ، وتسلل الشياطين .

إن منهاج الله يوفر هذا القانون لمن يلتزم منهاج الله ، ولمن يتدبره ويعيه . وإظهار القانون النابع من منهاج الله يوفر الفرصة للكثيرين الذين لم تمتلىء صدورهم بالآيات والأحاديث .

إن الإسلام هو المنهج الحق والدين الحق الذي يكفل حقوق الإنسان كلها ويرعاها . والكلمة والفكرة حقٌّ لصاحبها ، ولا تنفصل عنه ، وحق لكل من يؤمن بها أن

(١) البخاري : كتاب العلم (٣) - باب (٢) حديث رقم (٦٠) .

ينشرها ويدعو لها دون أن يعزوها لنفسه صراحة أو بالإيحاء .

فما زلنا حتى اليوم ، وسنظل أبداً ، نقول : قال رسول الله ﷺ ، ثم نروي الحديث الشريف . ونقول قال عمر بن الخطاب أو أبو بكر أو أي صحابيّ رضي الله عنهم ، دون أن يعزو أحد القول لنفسه ، إلا ماسرقه بعض مفكري أوروبا من مبادىء الإسلام بعد أن عزلوها عن الإسلام ونسبوها لأنفسهم .

وفي أقوال أبي بكر وعمر والصحابة رضي الله عنهم روائع من الفكر ، يتمنى الكثيرون لو كانت لهم ، ولكن المتقين يروونها وينسبونها إلى قائلها .

فحق الكلمة والفكرة حق لكل إنسان ، وهو حق يرعاه الإسلام لأنه يترتب على هذا الحق مسؤولية يتحملها صاحب الكلمة . فكيف يحلّ لرجل آخر أن يأخذ هذا الحق فيعزو الكلمة لنفسه . وحين تنكشف المسئولية يفرُّ ويتبرأ ! .

لابد من رعاية حق الكلمة والفكرة حتى تصان الحقوق والمسؤوليات ، وتعرف الحدود والواجبات ، ولاتضيع بين اعتداء هنا وهناك .

إن في الكلمة والفكرة مسؤولية وحساباً ، وليس حقاً مجرداً للتمتع والزهو والسعي إلى ثناء الناس .

ولذلك كان من مذهب أهل الحداثة عزل الكلمة والفكرة عن صاحبها عزلاً يجعله بعضهم كأنه القتل ، ويجعله موتاً للمؤلف . ذلك لأن المسؤولية عندهم ماتت فماتت معها الحقوق ، واختلطت الأفكار والحقوق والمسؤوليات .

واستمع إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ لاتحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ [آل عمران : ١٨٨]

فانظر في هذه الصورة : « .. **ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** .. »

فهـؤلاء جعل الله لهم عـذابـاً أليماً : « . . فـلا تحسبنهم بمفـازة من العـذاب ولهم عذاب أليم » .

وفي الحديث الشريف : « **من ادعى دعوة كـاذبة ليتكثر بها لم تـزده من الله إلا قلة** » [رواه ابن كثير في تفسيره] (١)

وفي الصحيحين :

« **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور** » [رواه أحمد والشيخان وابو داود] (٢)

وعن أبي ذر رضي الله عنه :

« **من ادّعى ماليس له فليس منا ، وليتبوأ مقعده من النار** » . [رواه ابن ماجة] (٣)

هكذا يـرعى الإسلام حقـوق كل إنسان ، . ويحاسبه على مسئـولياتـه حتى الكلمة والفكرة :

« . . . **وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . .** » .

ويقول أحدهم لو أنه أخذ فكرة أعجبته من كاتب ، ثم أعاد صياغتها ، ثمَّ نشرها باسمه كأنها فكـرته ، أو كَأنه يوحي إلى النـاس أنّها من عنده ومن علمه الخاص ، فماذا في ذلك ؟ وهل هذه تعتبر سرقة ؟!

فأجبته لو أنـك سرقت سيّارة ، وأعدت طِلاءها ، وغيّرتَ لـونَها ، ولو غيّرْتَ حتى رقمهـا ، ثمّ سِرْت بها بين النـاس ، فما اكتشفـوا سرقتك فهل يسقـط عنك إثمُ سرقتك وجريمتك ؟! إن هذه الجريمـة مضاعفة ، ذلك لأنها جريمة سرقة ، ثم جـريمة تزوير ، ثم جريمة خداع الناس وغشّهم ، ثم جريمة ظلم صاحب الحق .

إن التقيّ الذي يخشى الله لايقرب هذه المحـاولات أبداً . وإذا كتب فإنه يكتب من

---

(١) تفسير ابن كثير للآية السابقة .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادة : (ط : ٣) ، (ج : ٦) ، (حديث : ٦٥٥١) .

(٣) المصدر السابق : (ج : ٥) ، (حديث : ٥٨٦٦)

بضاعته ، وإذا أخذ عن غيره كلمة أو فكرة أشار إليها بوضوح ودقّة وذكر المصدر والصفحة وسائر التفصيلات ، فنال بذلك الأجر المضاعف بدلاً من الوزر المضاعف . نال أجر الصدق والأمانة ، ونال أجر نشر العلم ، ونال أجر الوفاء لصاحب الحق ، حتى لايظلم أحداً حقَّه .

الفصل الخامس

ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾

[النحل : ١٢٥]

يطلق كثير من المسلمين هذه الآية الكريمة حجّة لهم في موقع غير موقعها ليسوّغوا عجزاً أو تنازلاً أو عدم تقدير حقيقي لعظمة هذه الآية الكريمة وشدة ارتباطها مع كامل منهاج الله في تناسق وإعجاز مع يُسْر للناس في فهمها وتدبّرها .

إن الآية الكريمة تمثّل حقّاً مطلقاً جاء من عند الله وحياً على محمد ﷺ . وستظل هذه الآية الكريمة غنيّة الممارسة والتطبيق في كل واقع بشري . ولنفهم الآية الكريمة ونتدبرها يجب أن نفهم القضيّة التي تعالجها .

إن الآية تبتدىء بعرض القضية والموضوع : « **ادع إلى سبيل ربّك** . . . » . هذه هي القضية التي تتحدث عنها هذه الآية الكريمة متناسقة مع جميع الآيات الأُخرى في القرآن الكريم ، الآيات التي تتحدث عن هذه القضية وأساليبها ووسائلها . إنها قضيّة الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، إلى الله ورسوله ، إلى دين الله الحق - الإسلام - ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ومن عبادة العباد والأوثان والأهواء إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو . إن هذه القضية تمثل القضية الكبرى في الكون والحياة ، القضيّة التي من أجلها بعث الله الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد ﷺ ، وبالقرآن الكريم الذي جاء مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . إنها تمثل الهدف الرّبانيّ الثابت الأول في حياة المسلم وفي مسيرة الدعوة الإسلامية . ومن أجل هذه القضيّة تقوم الدعوة الإسلامية في الأرض لإنقاذ الناس من عذاب الدار الآخرة لمن يموت على الشرك أو الكفر ، ولإنقاذ الناس من فتنة الدنيا .

القضية التي تدور حولها الآية والآيات التي قبلها وبعدها هي قضية دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد . ومن أجل هذا الهدف العظيم تتحدّد علاقة المسلم بسائر الناس على ضوء قواعد ربّانية يفصّلها منهاج الله .

إن التوجيه في هذه الآية هو للداعية العامل ، الداعية المجاهد الذي عرف دربه وهدفه ، وعرف عهده مع الله ليكون الحافز الدائم ليمضي على الدرب يبلّغ رسالة الله .

فمن أجل ذلك جاء التوجيه الرباني : « . . **بالحكمة والموعظة الحسنة** . . » . هذه هي القاعدة الأولى الهامة ، أن تكون الدعوة بالحكمة أولاً ، باختيار الأسلوب الأمثل المليء بالحكمة لتبليغ رسالة الله واضحة جليّة دون مواربة ولا تنازلات ولا مساومات . لايحلّ للداعية المسلم أن يغيّر أو يبدّل في دين الله ، وفي الأساليب التي بيّنها منهاج الله ، ثم يقول : إن هذا التغيير أو التنازل هو من باب الحكمة .

والحكمة هي في بعض الآيات تعني ما أُنزل من عند الله ، وفي آيات أخرى يكون معناها الجامع : فقه الموهبة المؤمنة والمسؤولية والأمانة .

وهنا يحاول بعض المسلمين أن يقرّب الإسلام من العَلمانية مدّعيا أن تقريبهما هو من باب الحكمة ، أو ضرورات الواقع ، أو المصلحة العامة التي يتوهمها .

إن أسلوب الحكمة نستطيع أن نفهمه من كتاب اللهنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى : « **والموعظة الحسنة** » والموعظة هي أن تبيّن لهم عظمة الإسلام والإيمان وقوة ثباتك أيها الداعية المسلم عليه . الموعظة الحسنة هي : الوضوح في الكلمة المؤمنة الطيبة ، والصدق فيها ، حتى لايكون هنالك مجال لسوء الفهم أو التغرير . إنها تتأكد بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **... وقولوا للناس حسناً ..** ﴾ [البقرة : ٨٣]

وبقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **.. وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ [الحج : ٢٤]

ويجمع الله سبحانه وتعالى معاني ﴿ **قولوا حسناً** ﴾ ، ﴿ **الطيب من القول** ﴾، ﴿**الموعظة الحسنة** ﴾ ، ﴿ **صراط الحميد** ﴾ ، وغير ذلك من الآيات الكريمة ، بقوله الجامع في آية جامعة :

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾
[فصلت : ٢٣]

إنها آية جامعة لكل ماسبق ، مفصِّلةٌ لمعنى : بالحكمة والموعظة الحسنة ، وغير ذلك مما ذكرناه سابقاً . إنها تجمع ذلك في ثلاث قضايا أو خطوات : أولا : « . . **دعا إلى الله** . . » : أن تكون الدعوة إلى الله هي جوهر العلاقة دون تغيير ولا تبديل ، ودون تمويه ولا مماراة ، ودون ضعف أو تردد . ثانياً : « . . . **وعمل صالحاً** . . . » ، حتى يرى الناس أن قولك مطابق لعملك ، وأنك ملتزم بما تقتضيه دعوة الناس إلى الله : كلمة ونهجاً وتطبيقاً ، ليروا الإسلام ليس في الكلمات ولكن ليروه في واقع الحياة حيّاً ناطقاً بالحق . ثالثاً : « . . . **وقال إنني من المسلمين : إنه الوضوح والجلاء وإعلان الهُويَّة لمن تدعوه ، حتى يطمئنّ إلى صدقك واستقامتك ، وأنك تعلن الحق ولاتتنازل عن شيء منه أبداً ، وترفض الباطل ولا تقبل منه شيئا** .

إن اللحظة التي يتنازل فيها الداعية عن شيء من الحق ، أو يقبل فيها شيئاً من الباطل ، تكون دعوته قد انتهت وسقطت وخسر الموقف كله ، وفتح الباب لشياطين الإنس والجنّ أن تلج وتتسلل ، ثم تمتد وتقوى ، وإذا الداعية المسلم أصبح يدعو بدعوة هؤلاء تحت شعار «**الحكمة** » ! إذا به يدعو إلى الحداثة أو العلمانية أو الديمقراطيّة أو الاشتراكية ، كل ذلك بدعوى الحكمة والموعظة الحسنة .

الأمثلة على ذلك كثيرة : داعية مسلم يدعو في قلب أمريكا إلى الديمقراطية ، وداعية مسلم ينتقل من بلد إلى بلد ، يبذل جهده وماله ووقته ليبيّن للناس فضائل الديمقراطية « لأنها المثل الذي يحتذى » ، ولا يتطرّق إلى الإسلام ودعوته ، وداعية ينتقل ليبيّن للناس أنه « لاخلاف بين مقصود الشريعة الإسلامية والعَلمانية » ، وداعية مسلم يحتضن « الاشتراكيين » ويتنازل لهم ويسكت عن بعض مناهجهم المنحرفة ، فإذا هو راضٍ عنها أو داعية لها . ذلك لأنّ الشيطان يُزيّن للإنسان سوء عمله حتى يراه حسناً دون أن يشعر أنه مخطىء . إنه أمر طبيعي ! إن الحق يرفض أن يُتنازل عنه أو عن شيء منه

أو أن يتجزأ ، لأنه عـزيز قوي من عند الله ، وإن الحق يـرفض أن يُشرَك معه باطل ، لأن الحق من عند الله والباطل من الشيطان وأعدائه .

ليس أمام الداعية المسلم إلا سبيل واحدة :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنـا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

نعم : « **أدعو إلى الله** » ! ، وليس إلى غيره ، أبلّغ رسـالة الله إلى النـاس ، نعم : « على بصيرة » ! ، على إيمان ويقين ، ونهج واضح ودرب جليّ ، وأهـــداف مشرقـــة لا انحراف عنها !

« **أنـا ومن اتبعني** » ! فـالمؤمنـون أمة واحـدة تمضي على سبيل واحـدة إلى أهـداف واحدة ، تنزيهاً لله دون شرك أبداً .

إنه ليس من الحكمـة ولا من الموعظة الحسنة أبداً أن لاتـدعو إلى الله ، أو أن تعطّل الدعوة إلى الله بالانشغال عنها بما هو أقل منهـا شأناً عند الله ، أو تُفرّق الدعوة أجزاءً غير مترابطة لاتكـوّن نهجاً متصلاً ولا سبيـلاً ممتداً : « **قل هذه سبيلي . . .** » ! فالأمر من الله جَليٌّ حاسم : « **ادعُ إلى سبيل ربّك . . .** » ! بلّغ رسالة الله إلى الناس !

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أن تدعو إلى شيء من « دون الله » ، ولا إلى أمـر من « دون الله » . فقد جـاء النهي من الله عن ذلك جلياً حـاسماً : **﴿ ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرّك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين ﴾** [يونس : ١٠٦]

﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [الجن : ١٨]

﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ﴾ [الجن : ٢٠]

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أن لاتبلّغ رسالة الله كاملة ، كما أُنزلتْ من عند الله ، أو أن تخفـي منها شيئاً ، مـداراة لوهم قـذفه الشيطـان في نفسك ، أو ظنّاً منك أنك بإخفاء شيء من رسالة الله أو تحويره تبلغ هدفك ، فالله أعلم ، ولقد جاء أمره جلياً حاسماً :

﴿ يأيها النبيّ بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لايهدي القوم الكافرين ﴾ [المائدة : ٦٧]

﴿ وقل الحقّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾ [الكهف : ٢٩]

إنك أيها الداعية المسلم إن أخفيت شيئاً خسرت أمرين : خسرت احترام مَنْ تدعوه ، لأنه يعرف دينك الذي لايؤمن هو به ، ويعرف أنك غيّرت وبدّلت ، وخسرت رضاء الله وعونه ونصره ، فما النصر إلا من عند الله .

إنه ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة أن تخالف أمر الله وما أوحى به إلى عبده ورسوله محمد ﷺ ، أن تخالف ذلك إلى هواك واجتهادك البشري على غير أساس من دين الله . فلقد جاء أمر الله جليّاً حاسماً :

﴿ واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾

[يونس : ١٠٩]

﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ [هود : ١٢]

ليس من الحكمة أن نُصَوِّر الإسلام أنه دين المسالمة والمساومة والتنازلات كي نركن إلى من لايؤمن بالله ، أو انحرف عن دين الله ، أو دعا إلى غير الله ، أو افترى على الله كذباً وادَّعى باطلاً أو أخفى وبدَّل وغيَّر ، ولا هو من الحكمة أن نخفي مافرضه الله نصّاً صريحاً في الكتاب والسنّة من عدم موالاة المشركين والكافرين والمنافقين ، أو نخفي ماأمر الله به من جهاد في سبيل الله . ليس من الحكمة أن نخفي مابيّنه الله للناس ، ولا أن نركن إلى الظالمين ، فقد جاء الأمر من عند الله جلياً حاسماً في كل ذلك ، وأمر المؤمنين بالصبر على مايلقونه في سبيل الله :

﴿ فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذي ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾

[هود : ١١١ ، ١١٢]

وكذلك فإنه ليس من «الحكمة أن يُتَّهم الإسلام بأنَّه دين العدوان والظلم ، بادعاء باطل يقوم على تأويل فاسد للجهاد في سبيل الله ، لإلصاق الجريمة بالمسلمين ، ويُخفَى بعد ذلك أن الإسلام دين الحقِّ والعدل ، ودين الرحمة والعزّة والقوة ، وأن الحقَّ والعدل والرحمة والعزَّة لاتحقّق في الأرض إلا بالجهاد في سبيل الله » .

إنَّ أساس الحكمة والموعظة الحسنة أَنْ نبلّغ رسالة الله كما أُنزلتْ على محمد ﷺ ، لانخفي شيئاً ولا نبدّل ولا نغيّر . ذلك لأن الموازنة في كتاب الله معجزة كلّ الإعجاز ، لانستطيع بلوغها إلا باتباعها ، ولا نستطيع بلوغها إذا لم نبلّغ الإسلام بتكامله ووضوحه ، أو إذا بلّغنا جزءاً وحذفنا جزءاً ، أو إذا قبلنا باطلاً فذلك مايسعى إليه المجرمون في الأرض ، منذ عهد النبوة الخاتمة ليفتنوا المؤمنين عما أُوحي إلى محمد ﷺ :

﴿ و إن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره و إذاً لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبَّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذقناك ضعْفَ الحياة وضعف الممات ثمّ لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ [الإسراء : ٧٥]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد مابيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ [البقرة : ١٥٩]

وكذلك :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم و إن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحقُّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين ﴾

[البقرة : ١٤٦ ، ١٤٧]

إذن نستطيع أن نفهم ماهي الحكمة والموعظة الحسنة في طريق الدعوة إلى الله من كتاب الله ومن سنة نبيه محمد ﷺ . ولقد أتينا بقبسات فقط ، لأننا لانستطيع أن نعرض هنا كل ماجاء في منهاج الله ، فلا بد للمسلم أن يعود إلى منهاج الله عودة صادقة ليرى الصورة الجليّة بتكاملها وترابطها وتناسقها .

ثم يأتي الأمر الثاني من عند الله : « **وجادلهم بالتي هي أحسن** » ! نعم ! يجب مجادلتهم بالتي هي أحسن ، ذلك والمسلم الداعية قائم بالدعوة إلى الله ، يبلغ رسالة الله بتكاملها ، يعرض الحق لايتنازل عن شيء منه أبداً ، ويرفض الباطل ولا يقبل منه شيئاً أبداً . إذاً ، وهو في طريق الدعوة ، يدعو ويبلّغ ، قد يضطر إلى المجادلة ، ليعرض حجّته بأسلوب مشرق صادق واضح مقنع . الأسلوب الحسن في الجدال نفهمه كذلك من كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ، كما بيّنا قبل قليل . الأسلوب الحسن هو الوضوح والجلاء ، والصدق والبيان ، والحجّة القويّة المقنعة ، تعرض الحقَّ وترفض الباطل ، وليطابق القول العمل ، وذلك كله بأدب وخلق ، بالكلمة الطيّبة ، والعمل الصالح .

ويعلمنا القرآن الكريم جميع جوانب « وجادلهم بالتي هي أحسن » ، وحدودها وأسلوبها ، وبصورة عملية جليّة . فلنأخذ قبسات من ذلك :

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰكم واحد ونحن له مسلمون ﴾
[العنكبوت : ٤٦]

هذه هي الحدود : « . . **إلا الذين ظلموا منهم** . . » والظالمون هم الذين يدعون إلى باطل ويصرّون عليه ، والذين يعتدون ويظلمون الناس ، والكافرون والمنافقون ، الذين يفسدون في الأرض .

وهذا هو الأسلوب الأحسن : ﴿ **... وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ إنه الصدق والحق والوضوح ، بأدب عالٍ

وبيان وخلق . ليس الأسلوب الأحسن أن نقول إننا عَلمانيون ، أو أن علمانيتكم قريبة من ديننا ، ولا أن ديمقراطيتكم هي من الإسلام ، والحداثة من الإسلام ، والاشتراكية من الإسلام ، وعدد ماشئت ، ثم تقول إن ذلك كله من الإسلام . ولو فعلنا ذلك لما عرفَ الناس عندئذ ماهو الإسلام في وسط هذا الخليط المضطرب ، ولا ماهي حقيقته ! وانظر كيف يعلمنا الله ممارسة الحكمة والموعظة الحسنة والجدال الأحسن :

﴿ الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءَنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله و إن الله لهو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ٦٠-٦٢]

فهل هنالك أبلغ من هذا الدرس العظيم ، إلا أن يكون درساً آخر من كتاب الله ، فاستمع إلى درس ثانٍ في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلاّ الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولَّو فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران : ٦٤]

وضوح وجلاء ، وقول فصل حاسم ، بأعلى درجات الخلق والقول الحسن والحكمة والموعظة الحسنة والجدال الحسن . واستمع أيضاً إلى أدب الجدال الحسن في صورة تطبيقية عملية :

﴿ ياأهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم ومأأُنزلت التوراة والإنجيل إلاَّ من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إنَّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ [آل عمران : ٦٥ - ٦٨]

وضوح وجلاء ، قول فصل حاسم ، حجّة بالغة تخاطب النفس والعقل ، لتبلِّغ الحقَّ لاباطل معه ولا شوائب . موقف حاسم لا مساومة فيه ولا محاولة لتقريب الحق من الباطل أو الباطل من الحق ، إذْ لالقاء بينهما أبداً .

واستمع إلى هذه الآيات الكريمة تعرض لنا الحكمة والموعظة الحسنة والقول الحاسم عندما ينتهي دور الجدل والجدال :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرءآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربّنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾

[الممتحنة : ٤ ، ٥]

مواقف كثيرة نتعلم منها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، كيف يجب أن نمضي في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، إلى الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، إلى الله ورسوله ، وكيف تكون الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

إن هذه القواعد الربانيّة يجب التزامها لتكون نهجاً متصلاً واعياً في حياة المؤمن الداعية ، سواء أكان يدعو كافراً ومشركاً ، أو أحداً من أهل الكتاب ، أو رجلاً منتسباً إلى الإسلام فيه انحراف وضلالة في بعض جوانب فكره كما يبدو للناس . لابدّ من الوضوح والجلاء والقول الحاسم والحجة البالغة المقنعة ، . ولابد للداعية أن يلتزم هو أولاً مايدعو إليه ، ليكون قوله مطابقاً لموقفه وعمله .

لقد كشف واقعنا بالأمثلة الحيّة أن أيّ تنازل من الداعية عما يؤمن به ، وقبوله ببعض مايرفضه مداراة للطرف الآخر ، بدعوى أنه قبول مرحليّ وتنازل مرحلي ، حتى يتألف القلوب ، إن أي تنازل مثل هذا فتح ثغرات واسعة في صفّ المسلمين ، تسلل

منها الطرف الآخر بدعوته ورسالته ، فإذا المسلم الذي كان يرفض « الحداثة » مثلاً ، أصبح بعد تنازله يسكت عن أخطاء الحداثة ، ثم أصبح يألفها ، ثم أصبح يدعو لها ، بعد أن زيّن له الشيطان ذلك بالخطأ أو الانحراف :

﴿ أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن زُيِّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ [محمد : ١٤]

﴿ أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ [فاطر : ٨]

وكذلك كان شأن من تنازل للديمقراطية عن حقائق الإسلام ، حتى أصبح داعية للديمقراطية في كل موطن باسم الإسلام ونسي أمر الله سبحانه وتعالى : **﴿ ادعُ إلى سبيل ربك .. ﴾**

وكذلك صار بعض المسلمين يملؤون الندوات بالدعوة إلى الاشتراكية حين كانت أيام مواسمها ، وكذلك صار بعض الدعاة المسلمين دعاةً إلى العَلمانيّة بصورة ظاهرة واضحة ، في الندوات والمؤتمرات !

والذين أخذوا يُمارُون النصارى ودعاة النصرانيّة ويُوادّونهم ، فَيَسْمعون منهم دون أن يُسْمعوهم ، بحجة « الحكمة » دون الدعوة إلى الله ورسوله ، ودون الموعظة الحسنة ، فما لبث بعضهم أن وجد نفسه يألف مايدعونه إليه من باطل ، ويغيب عنه الحق الأبلج في الإسلام ، ولا يجد حوله من يوقظه أو يعظة ، فإذا هو تارك لدينه ، مرتمٍ في شرك وضلالة أهلك نفسه بها .

إنها الخطوة الأولى دائماً ، ثم تتلوها الخطوات . الخطوة الأولى التي يزيِّنُها الشيطان هي السكوت عما يؤمن به المسلم الداعية أو مايدّعي أنه يؤمن به ، السكوت عما يؤمن أنه حق فلا يدعو ولايبلغ ، وإنما يصمت ويستمع .

وتأتي الخطوة الثانية التي يزيّنها الشيطان حين يقبل المسلم بعض مايدعو إليه

الطرف الآخر بحجة الحكمة وتألف القلوب والاحتضان . طرف يعلن رأيه بوضوح وقوة وتصميم غير عابيء بودّك أيها الداعية المسلم ، أو يتظاهر بودك حينا ، وأنت صامت لاتبلّغ دعوتك ولا رأيك الحق ، فماذا تتوقع أن تكون النتيجة ؟ كيف تسكت والأمر من عند الله مدوٍّ في الكون كله :

وقل الحقُّ من ربكم ... !

ادع إلى سبيل ربك ... !

أيها المسلمون ! قولوا الحق وادعوا إلى سبيل ربكم ، وبلّغوا رسالة الله إلى الناس كما أنزلت على محمد ﷺ ، افعلوا ذلك ثم تحدّثوا عن الحكمة والموعظة الحسنة !

الباب الرابع

الفقه
وحضارة العصر الحاضر

الفصل الأول

بين عهد النبوة الخاتمة والصحابة وبين واقعنا المعاصر أين طريق النصر

هناك أسئلة تدور في ذهن المسلم اليوم ، يجهر بها أو يكتمها ، وقد تكوّن في نفسه ردود فعل إيجابيّة أو سلبيّة .

من هذه الأسئلة : كيف استطاع أصحاب رسول الله ﷺ أن يفقهوا الإسلام ويمارسوه ويطبقوه وينطلقوا في الأرض ينشرون الدعوة الإسلاميّة نوراً وهدى للعالمين ، وكثير منهم أُمّيّون لايحملون شهادات جامعية ولا ثانوية ولا ابتدائية ، وليس بين أيديهم مصاحف مكتوبة أو مطبوعة ، وليس لديهم وسائل التنقّل والاتصالات مما نملكه اليوم ، كيف وعوا الإسلام ، وتدبّروا كتاب الله ، والتزموا أحكامه ، ونحن اليوم نجد المشقّة بعد المشقّة في فهم الكتاب والسنة ، والتزام أحكام منهاج الله ، ونجد الآراء المتضاربة المتصارعة في كل ميدان ؟!

كيف تيسّر لأولئك الصحابة الأبرار ولم يتيسّر لنا ؟! أحقّاً أن على المسلم اليوم أن يقرأ مئات المجلدات أو أكثر حتى يتكوّن لديه فقه ؟! .

نأخذ بعض الأمثلة من واقع مجتمع النبوّة الخاتمة :

فعن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « **يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله « وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ » شققن أكثف ، مروطهن ، فاختمرن بها** » . [رواه أبو داود] (١)

وعن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت : فذكرنا نساء قريش

(١) أبو داود : ٢٦/ ٣٣/ ٤١٠٢ .

وفضلَهنَّ ، فقالت عـائشة رضي الله عنها : إن لنسـاء قريش فضـلاً ، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصـار أشدَّ تصديقـاً لكتاب الله ولا إيماناً بـالتنزيل . لقد أُنـزِلتْ سورة النور ﴿ .. **وليضربْن بخُمُرهـنّ على جيوبهنَّ ..** ﴾ انقلب رجالهن إليهـنّ يتلون عليهنّ ماأَنـزل الله إليهم فيها ، ويتلـو الرجل على امـرأته وابنتـه وأُخته وعلى كل ذي قـرابته ، فما منهنّ امرأة إلاَّ قـامت إلى مرطهـا المرحل ، فاعتجـرتْ به تصـديقاً وإيمانـاً بما أنزل الله من كتاب ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأنّ على رؤوسهنّ الغربان » (١)

هكـدا كـان يمضي العلم والممارسـة . ففـي الحديث الأول ، لما سمعت نسـاء المهـاجرين الأول الآيـة « شققن أكثف مـروطهنَّ فـاختمرن بها . . . »وفي الحديث الثـاني «انقلب رجـالهُنّ (رجال نسـاء الأنصـار) يتلون عليهنّ مـا أنـزل الله إليهم فيها ، ويتلـو الرجل على امـرأته وابنته وأختـه وعلى كلِّ ذي قرابتـه ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مـرطها المرحل فاعتجرت به . . »

كلُّ هؤلاء : « امرأتـه وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته . . » فهموا الآيـات الكريمة التي تُلِيَتْ عليهم ووعـوهـا ، ثمّ قـامـوا ومـارسـوهـا ، ولم يكن بينهم مشكلـة في الفهم والممارسة ، سمع النساء آيـات الله في الحجاب فالتزمنها . ولا يذكـر لنا التاريخ ولا كتب السيرة والسنّة أي خـلاف ثار حـول الحجاب آنـذاك . ونحن اليـوم بين أيدينـا كتاب الله والسنّـة وفيهما الآيات والأحـاديث نفسهـا عن الحجاب ، فلماذا اختلف النـاس واختلف الفقهـاء ؟! لم نسمع أن المجتمع المسلم أيام النبـوة الخاتمة والخلفـاء الراشـدين ثارت فيـه مشكلة حول الحجاب ، ولا في عصور تلت ، فلماذا تثور اليوم . ؟! أين الفرق ؟!

والخلاف الـذي كـان يقع بين الأئمـة الأعـلام كـان من حيث الأصل محصـوراً في قضـايا اختلفت النصـوص التي بلغت هذا أو ذاك من الأحـاديث الشريفة أَو اختلفـوا في فهم النصّ . وكـان الخلاف طبيعياً لم ينحـرف بـالمسلمين إلى شقاق وصراع حـول قضايـا الخلاف ، وظل جميع الأئمـة يقولـون خذوا من حيث أخـذنا ، أو إذا صحّ الحديث فهـو

(١) تفسير ابن كثير للآية من سورة النور . وأبو داود بعضاً منه : ٢٦/ ٣٠/ ٤٠٩٦ .

مذهبُنا ، وإذا وجدتم في كتابي خلاف سنّة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا قولي .

لقد كان للمسلمين مرجع واحد يعودون إليه في حالة الخلاف ، كما جاء الأمر بذلك من الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩]

ثم أخذت تظهر بعض الانحرافات في عصور تلت ، وأخذ التقليد الأعمى لأقوال البشر يزداد وخلاف المذاهب ينمو ، حتى قال أبو الحسن الكرخي من علماء الحنفيّة : « **كل آية أو حديث يخالف ماعليه أصحابُنا فهو مؤوّل أو منسوخ** » (١)

ونجد أن الخلاف حول الاستنجاء بالأحجار وطريقة استخدامها اتسع وجاوز المعقول . (٢)

ولقد أخذ الخلاف على مثل هذه القضايا مساحة واسعة ، وقضايا الأمة الأكبر لاتجد لها المساحة ذاتها . والأمثلة على الخلافات التي لا طائل وراءها والصراع بين المذاهب ، أمثلة كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

وعند دراسة هذه الخلافات نجد أن هنالك قواعد أساسيّة في الإسلام تجاوزها بعضهم أو أغفلها ، حين لم يعد منهاج الله وحده هو المرجع الأول ولا إليه وحده تُردُّ أمور الواقع . لقد وفّر منهاج الله جميع الوسائل والأساليب لمعالجة مشكلات واقع الإنسان في جميع ميادين الحياة . فإذا حدث اضطراب أو خلل أو عجز عن حلّ المشكلات ، فإن

---

(١) يراجع كتاب « دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية » - (ط : ٦) للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع عن دور المنهاج الرباني في الفقه والممارسة والتخطيط وغير ذلك ، وعن دور الواقع . وكذلك أقوال الأئمة في ذلك (ص : ٧٥ ، ٧٦) وقول الكرخي (ص : ١١٩) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : دار احياء التراث العربي - المجلد (٢) - (ج : ٣) - ص : ١٥٦ .

ذلك في الجهد البشري المبذول وليس في منهاج الله .

لقد عولجت بعض القضايا دون وجود نهج وخطة نابعة من منهاج الله ملبيّة لحاجة الواقع . وعولجت بعض القضايا حين تجاوز المسلم حدود وسعه وقدرته ، أو حدود مسؤوليته ، أو حدود علمه . وقضايا أُخرى عولجت حين غلبت العادات والتقاليد .

لابد لنا اليوم من أن ينطلق «**الفقه**» في حياتنا مثل انطلاقته في عهد النبوّة الخاتمة والخلفاء الراشدين ، ومن اتبعهم بإحسان : ففي الحديث الشريف الذي يرويه العرباض بن سارية قاعدة رئيسة في الفقه . قال : « **وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون** » فقلنا يارسول الله ! : كأنها موعظة مودّع فأوصنا قال : « **أُوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء االراشدين المهديين ، تمسّكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كلّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة** » . [رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم] (١)

هذه هي أسس الفقه في الإسلام كما ذكرناها سابقاً : التقوى وهي صفاء الإيمان والتوحيد ، وسنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين وهي سنّة واحدة ، كما جاء نصّ الحديث « تمسكوا بها » . هذه السنّة هي السنّة والنهج في ممارسة منهاج الله في الواقع . إنها سنّة واحدة ، ونهج واحد ، وصراط مستقيم ماض مع الزمن كله ، ينهض إلى هذه السنة الخلفاء المهديون الراشدون مع الزمن كله .

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتقنون اللغة العربيّة ، وكانوا أهل الفصاحة والبيان . فكان تلقي القرآن وفهمه أيسر عليهم . واستقبلوا دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان والتوحيد استقبال تصديق ويقين وصفاء . فتوافر لديهم المفتاحان الرئيسان لتدبّر منهاج الله : اللغة العربيّة وصفاء الإيمان والتوحيد :

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٢٥٤٩) أحمد : (المسند : ٤/ ١٢٦) الفتح (١/ ١٨٨-١٩٠) أبو داود : ٢٤/ ٦/ ٤٦٠٧ . الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ . ابن ماجه : المقدمة/ ٣٥ .

﴿ الر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون ﴾ [يوسف : ١ ، ٢]

وتتوالى الآيات الكريمة حول تأكيد دور اللغة العربية ودور صفاء الإيمان والتوحيد بالنسبة لمنهاج الله وتدبره .(١)

﴿ ولو جعلناه قرءاناً أعجميّاً لقالوا لولا فُصّلت آياته أأعجميٌّ وعربيّ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : ٤٤]

وكذلك :

﴿ و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً و إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوْا على أدبارهم نفوراً ﴾ [الإسراء : ٤٦]

وكذلك :

﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : ٨٢]

وتتوالى الآيات كذلك لتؤكد هذه الحقيقة الهامة والقضية الرئيسة . فالإيمان يدفع المسلم إلى تدبّر منهاج الله وفهم مايسّره الله له ويفتح عليه به . وتدبّر منهاج الله يغذّي الإيمان وينميّه لمن يريد الله له ذلك . تأثير متبادل ورحمة من الله واسعة .

وَلِتَدَبُّر منهاج الله إذن هنالك مفتاحان رئيسان لاغناء عنهما ، هما الإيمان والتوحيد واللغة العربيّة . وقد يسّر الله هذين الأمرين لأصحاب رسول الله ﷺ ، وأما في واقعنا اليوم فالملايين هجرت كتاب الله وجهلت اللغة العربية ، وظهرت بوادر ضعف الإيمان ولهيب الفتن .

وكان للصحابة رضي الله عنهم صحبةٌ مشرقة مع النبوّة الخاتمة . صحبةٌ في مجالسه

(١) يراجع كتاب « لماذا اللغة العربية ؟ » للمؤلف .

ﷺ ، مجالس العلم والإيمان ، وصحبةٌ في ميادين الجهاد . فلقد كان أعلام الصحابة وعلماؤهم أول المجاهدين في ميادين القتال ، والوحي يتنزّل على الرسول ﷺ . وكانوا يعيشون الأحداث التي نزل بها القرآن ، فكان أيسر عليهم إدراكها ببعد أعمق . ولقد كانت هذه الصحبة غنيّة مباركة . ولكن الله سبحانه وتعالى عوّض المؤمنين على مدى الدهر بأجر عظيم للصادقين الذين يعملون بما عمل به الصحابة رضي الله عنهم ، وسوء مآل للذين بدّلوا :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ زار المقابر فقال : « **السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . وددت لو أنا رأينا إخواننا** » . قالوا أو لسنا إخوانك يارسول الله ؟! قال : « **أنتم أصحابي . إخواننا الذين لم يأتوا بعد** » . قالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمّتك يارسول الله ؟ قال : « **أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غرٌّ محجلة بين ظهري خيل دُهم بُهم ، ألا يعرف خيله ؟!** » قالوا : بلى يارسول الله . قال : « **فإنهم يأتون محجّلين من الوضوء . وأنا فرطهم على الحوض . ألا ليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال** » **أناديهم : ألا هلمَّ** » **فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك . فأقول : سحقاً ! سحقاً ! سحقاً !** » [رواه مسلم] (١)

فمن هؤلاء الذين هم كالخيل الغُرُّ المحجّلة ، والذين هم إخوان رسول الله ﷺ وصحابته ؟! ومن أولئك الذي بدّلوا فيُذادون عن الحوض كما يذاد البعير الضال ، فيقال لهم : سحقاً سحقاً !

لابد أن ننظر في أنفسنا ، نحن المسلمين اليوم ، لنرى هل بدّلنا أم استقمنا . اللهم إنا نسألك العفو والعافية والسلامة والنجاة ! اللهم إنا نسألك أن تجلعنا برحمتك ممن استقام على هديك ودينك ، كما بَلَّغنا عن رسولك محمد ﷺ ، الذي بلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة !

وعن أُمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع بهذه

(١) مسلم : ٢/ ١٢/ ٢٤٩ .

الآية ؟ قال : أيّة آية ؟ قلت : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم .. الآية** ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألتُ عنها رسول الله ﷺ قال : « **أئتمروا وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام . فإن من ورائكم أياماً الصبر فيها مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم** » قال عبدالله بن المبارك ، وزادني غير عتبة قيل : يارسول أجر خمسين منا أو منهم ؟ . قال «**بل أجر خمسين منكم** »

[رواه أبوداود والترمذي وابن ماجة] (١)

وهكذا يظل فضل الله على المؤمنين العاملين ممتداً إلى يوم القيامة ماصبروا وظلوا في الميدان ، يضاعف لهم الله الأجر أضعافاً كثيرة برحمته وعفوه وفضله .

لقد عوّض الله المؤمنين العاملين الصابرين الذين لم يلقوا الرسول ﷺ بأجر عظيم .

فإذا كنا اليوم لاندرك الصحبة ، فإن بين أيدينا الأحاديث الشريفة ، وإن الله قد ضاعف الأجر للصابر العامل في سبيله ، وإن بين أيدينا كتاب الله قد تعهّد الله بحفظه . فبقي علينا أمران هما من مسؤوليّتنا أن ننهض إليهما لنستوفيهما بالجهد والصدق والبذل : صفاء الإيمان واللغة العربية . فبهما يسهّل الله للمؤمنين سبيل تدبّر منهاج الله ، ثم الانطلاق على الدرب بأهداف ثابتة جليّة على طريق ممتدٍّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة - .

والقرآن الكريم يفسِّر بعضُه بعضاً ، والسنةّ تُفسِّر وتفصِّل وتبيّن ، وسيرة الرسول ﷺ توفِّر النَّموذج الأَمثل لممارسة منهاج الله في الواقع في رعاية الوحي ، وتوفّر سيرة الصحابة نموذجاً آخر لممارسة منهاج الله في الواقع في رعاية رسول الله ﷺ . هذا كلُّه يوفّر زاداً عظيماً للمسلم يعين على تدبّر منهاج الله وممارسته .

يضاف إلى ذلك مايوفّره واقعنا اليوم من إمكانات كبيرة تساعد على تدبّر منهاج الله .

(١) الترمذي : ٤٨/ ٦/ ٣٠٦٠ - أبو داود : ٣١/ ١٧/ ٤٣٤١ . ابن ماجه : ٤٣١/ ٣٢١/ ٤٠٦٣ .

فتوافر المعاهد والعلماء من ناحية ، وتوافر المصاحف المطبوعة بكثرة ، وكتب السنة والسيرة والتاريخ ، وسهولة الاتصالات والانتقال ، وتوافر الأجهزة الفنيّة الكثيرة الآخذة بالازدياد ، كل هذا يوفّر إمكانات هائلة تعين على تدبّر منهاج الله .

ويبقى قضية واحدة فقط أمام المسلم اليوم . هذه القضيّة هي الإرادة والعزيمة والنهوض بجد إلى هذه القضيّة الرئيسة . والمسلم مسؤول عنها محاسب عليها بين يدي الله .

يستطيع المسلم اليوم ، إن أراد ، أن يدرس اللغة العربيّة ويتقنها ، ويستطيع أن يتدبّر منهاج الله إن آمن وصدق وعزَم وجد . فالأمر ميسّر لايعطّله إلا عدم توافر الإرادة والعزيمة .

ومن هنا يتضح لنا دور الدعاة والدعوة الإسلامية والعلماء وأولي الأمر ، ليوفّر هؤلاء جميعاً الرغبة والقناعة والإرادة لدى المسلم للنهوض إلى هذه القضيّة الرئيسة .

إنّ هذه القضيّة لم تحتلَّ بَعْدُ المنزلة العادلة في واقع المسلمين اليوم ، ولم تنل الجهود المنهجيّة والخطة المحكمة . إننا نعتبر هذه القضية هي المفتاح الحقيقي لمعالجة أمراض الواقع الإسلامي .

نعم ، إن هذه القضيّة من حيثُ الشعارُ معروفة ومعترف بها . فالقرآن الكريم يُبْدأُ به في الاحتفالات والمؤتمرات ، ومجالس التعزية ، وتنطلق به الإذاعات ، ويرفعه المسلمون شعاراً رئيساً لا يختلفون عليه . ولكنّ هذا كله لم يعط منهاج الله الفرصة الضرورية ليؤدي الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوة ، ليصوغ الفكر والنفسية والتصور ، وليكون أساس كل نهج وتخطيط ، وكل ممارسة وموقف ، ولتُرَدَّ إليه كل قضيّة في الواقع ، صغيرة أو كبيرة ، وليكون أساس الفقه وامتداده ونموّه . إن «الشعار» حتى اليوم لم يجعل المنهاج الربانيّ محور حياة كل مؤمن بالله واليوم الآخر وكل منتسب إلى الإسلام ، ولا محور الأسرة المنتسبة إلى الإسلام . الملايين الملايين من المسلمين لايكادون يفتحون المصحف الكريم ، والملايين لايعرفون لغته ، والملايين هجروا منهاج الله هجراً كبيراً .

لم يعد القرآن الكريم صحبة كل مسلم صحبة عمر وحياة كما كان صحبة أصحاب رسول الله . إننا نستطيع أن نقول بوضوح إن المنهاج الرّباني غائب من الناحية العمليّة عن كثير من ميادين الحياة في واقع العالم الإسلامي الممتد .

إننا نعتبر هذه القضية ، مع قضية الإيمان والتوحيد ، هي القضيّة الرئيسة اليوم ، وهي المفتاح لحلول مشكلات الواقع الإسلامي ، وهي مسؤولية الدعاة والعاملين جميعاً ، وهي باب الفقه .

إن تحقيقها يحتاج إلى جهود مجتمعة متكاتفة ، وليس إلى جهود متنافرة ممزّقة . وإن كثيراً من الجهود ستضيع هباءً مادامت هذه القضية ليست هي الأساس ، ومادامت لاتتجاوز الشعارات والممارسات المضطربة الضيقة ، وما دامت تغيب في زحمة القضايا الثائرة التي يريد لها الناس حلولا عاجلة سريعة ، فيظنون أن تجاوز هذه القضية وتجاوز النهج والتخطيط ، يمكن أن يوصل إلى النتائج المرجوة . ثمّ تمضي السنون الطويلة ، وما بلغ المسلمون مايرجون ، وضاعت الجهود والدماء والأموال ، ولم يأخذ المسلمون العبرة ، ولم يقفوا موقف التقويم والمراجعة والحساب .

من قضية عودة المنهاج الرباني ليؤدي دوره الذي كان يؤديه في عهد الصحابة ، من هذه القضية يُبنى الفقه في واقع الأمة ، وتبنى الدعوة والتربية وتشرق الدرب والأهداف .

إن الله سبحانه وتعالى منّ على المسلمين اليوم بأن وفَّر لهم جميع أسباب المنعة والقوة والعزة في هذه الحياة الدنيا ، حتى يكونوا أهلاً لحمل رسالته والوفاء بتبليغها للناس كافة :

١ - الدين الحق ، والنهج القويم ، والمنهاج المفصَّل ، المنهاج الربّاني الذي على أساسه يكونون أُمة وسطاً .

٢ - العدد الكبير من الطاقة البشرية التي تحتاج إلى صياغة وبناء على أساس من منهاج الله .

٣ - الثروة الطبيعية الغنيّة الموزّعة في العالم الإسلاميّ كله ، في باطن الأرض وظاهرها .

٤ - الموقع الوسط العظيم الذي يسهّل الاتصال مع قارات العالم كلها ، الموقع الذي لايتيسَّر لأي أُمة أخرى .

إن هذا الموقع الوسط ساهم لتكون الأمة المسلمة أمة وسطاً كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم أُمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ... ﴾ [البقرة : ١٤٣]

إنّ أمة الإسلام «**أمة وسط** » برسالتها وبمنهاجها الرباني ، و«**أمة وسط**» بموقعها ، و«**أمة وسط**» في جميع خصائصها الربانية ما التزمت بمنهاج الله .

وإن هذا الموقع الوسط ضروري لها وهي تحمل رسالة الله ، حتى تستطيع أن تبلِّغها للناس كافّة . فهذا الموقع الوسط يسهّل لها أمانة التبليغ ، وضرورة توفير القوة والحركة لسلامة التبليغ وقوته وحمايته . ذلك كله عندما يُدرك المسلمون أن تبليغ رسالة الله للناس كافة أمانة في أعناقهم كأمة ، وأمانة في عنق كل فرد مسلم قادر على ذلك .

لابدّ من أن يتولد الشعور والقناعة والإيمان في قلب المسلم ، وفي الأمة كلها ، أنهم يحملون أمانة كبرى ، وخلافة في الأرض جُعِلت لهم ، وأن محور الأمانة عبادة الله وحده وممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ ، وتبليغ رسالة الله إلى الناس من أجل إنقاذهم من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن أجل عمارة الأرض بحضارة الإيمان .

حين يتولد هذا الشعور لدى الفرد المسلم والأمة المسلمة كلها ، وعندما مايشعرون بأنهم يحملون رسالة الله إلى الناس ، فإنهم عندئذ يدركون حقيقة مهمتهم فى الحياة ، وجلال الرسالة التي يحملونها . وعندئذ ينطلقون على صراط مستقيم ، في سبيل الله ، من هدف ربّاني ثابت إلى هدف ربّاني ثابت على طريق ممتد إلى الجنة ، فيتنزَّل النصر من عند الله ، ويوفي الله بعهده لقوم أوفوا بعهدهم معه .

عهد مع الله يوفى به !

صراط مستقيم ممتد على نهج جلي وأهـداف ربّانية ثابتـة مشرقة إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة !

أمة مسلمة واحدة تمضي على الدرب تحمل رسالة الله - الأمانة العظيمة !

نصر من الله وفتح قريب !

والحمـــد لله رب العالمـــين .

الفصل الثاني
أين الوسط والتيسير
بين الوهن والتقصير وبين الغلوُّ والتدمير ؟!
اتباع منهاج الله يوفّر الموازنة الأمينة

١ - اليُسر والتيسير في الإسلام :

إن الإسلام دين الله الحقّ الذي لايقبل الله سواه ، وكان خاتم الأنبياء والمرسلين محمدٌ ﷺ ، أُنزل عليه القرآن الكريم مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

ودعا القرآن الكريم والسنّة النبوية إلى اليسر والتيسير ، وخاصة في أمور الشعائر ، وجعل الوسع الصادق بكامل معانيه وأبعاده أساس التكليف الشرعي .

فجوهر التيسير هو الوسع الصادق ، الوسع الذي وهبه الله للناس والذي سيحاسبون عليه . فادعاء وسع كاذب بالأهواء ليس باب تيسير في دين الله . إن الله لايكلف عباده بما لايطيقون ، فهو ربّهم وخالقهم ، وهو أعلم بهم وبمصلحتهم .

وجاء منهاج الله كاملاً متكاملاً مترابطاً متناسقاً معجزاً كلّ الإعجاز ، ومع إعجازه جاء ميسَّراً للذكر . وهذا هو أَوَّلُ تيسير منَّ الله به على عباده جميعاً :

﴿ **ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾ [القمر ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠] هذا هو أعظم تيسير منَّ الله به على عباده ، ومنه ينبع بعد ذلك كلُّ تيسير آخر في تشريع الله .

فإذا كان تيسير القرآن للذكر هو التيسير الأول والأعظم ، فذلك لأنه الباب الواسع والسبيل الوحيد للتيسير العظيم الثاني ، ألا وهو اتباع منهاج الله لصورته المتكاملة ، لايؤخذ منه جزء ويترك جزء . فمن يفعل ذلك ، أي من يأخذ جزءاً ويترك جزءاً ، لايجد اليسر الحق ولا التيسير الكامل المترابط ، ولا يشعر عندئذ بعظمة الإعجاز الرباني في هذا التيسير .

لقد كان من وسائل محاربة أهل الكتاب وكفار قريش للإسلام هو تجزئة القرآن ، حتى يفقد الكثير من أثره العميق في النفوس :

﴿ وقل إني أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين* فوربّك لنسْألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [الحجر : ٨٩-٩٣]

فعن ابن عباس رضي الله عنه : « الذين جعلوا القرآن عضين » قال : هم أهل الكتاب ، جزّؤوه أجزاءً ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه » [رواه البخاري] (١)

فالقرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً ، ويظهر هذا عندما يتدبّر المسلم كتاب الله على تكامله ، دون الأخذ بجزء وترك جزء . وكان الصحابة يتدبّرون كتاب الله حفظاً وتلاوة على تكامله بالقدر الذي كان ينزل على رسول الله ﷺ ، فلما اكتمل تابعوا هذا المبدأ ومضوا عليه .

ولقد بيّن لنا منهاج الله أسباب التيسير وأبوابه وضرب لنا أمثلة عملية تبيّن لنا حدود التيسير وأشكال المغالاة :

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : ١٨٥]

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ [النساء : ٢٨]

فالآية الأولى جاءت بصدد التخفيف على المريض والمسافر في الصيام . والآية الثانية جاءت مع الآيات التي تعدّد المحارم ممن حرّم الله الزواج منهن ، وكذلك تبيّن مَنْ أحلَّ الله الزواج بهنّ .

﴿ مايريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهّركم وليتمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة : ٦]

ولكي ندرك الأُسلوب الربَّانيِّ في التيسير يجب أن نقارن بين الآيتين (١٨٤) و (١٨٥) من سورة البقرة عن الصيام . فالآية الأولى (١٨٤) : ﴿ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

(١)البخاري : ٦٥ / سورة الحجر ٤/ ٤٧٠٥ .

نزلت هـذه الآية الكـريمة حين كان المسلمـون مخيّرين في شهر رمضـان بين أمرين وهم مقيمون على غير مـرض أو سفر : إما أن يُفطـروا ويطعموا عن كل يـوم مسكيناً ، أو أن يصومـوا . فبيّن الله في هذه الحالة أن من أطعم أكثر من مسكين عن كل يـوم فهو خير له : « **ومن تطوّع خيراً فهـو خير له** » ، وأنّ من صام فهو أفضـل من الإفطار والإطعام : «وأن تصومو خير لكم . فكان التفضيل هنا بين أمرين مباحين .

أما الآية (١٨٥) من سـور البقرة فقد نزلت حين فُرِض الصيـام في شهر رمضان ، ولم يعد هنالك تخيير بين الإفطـار والإطعام وبين الصيام : ﴿ **شهر رمضان الـذي أنزل فيـه القـرآن هدى للنـاس وبيّنـات من الهدى والفـرقان فمن شهـد منكم الشهـر فليصمه ومن كـان مريضاً أو على سفر فعـدّة من أيام أُخر * يـريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون** ﴾

فحين فُـرض الصيام ، ورفعتْ إبـاحة الإفطـار وإطعام المسكين للمقيم المعـافى ، أصبح هنالك حـالتان : حالة المقيم المعـافى وحالة المريض أو المسافر . أمـا المقيم المعافى فعليه الصيام ، وأمـا المريض أو المسافر فله الخيـار أن يفطر ويقضي أو أن يصوم . ولكن الله سبحانـه وتعالى لم يُفضّل في هذه الحالـة الصيام على الإفطار ، وإنما تـرك ذلك للرجل نفسه ، وجاء قوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر والا بكم العسر ...** ﴾ ولم يأت : ﴿ .. **وأن تصوموا خير لكم** ﴾ ثمّ جاءت السنة تبيّن ذلك :

فعن عائشة أن حمزة الأسلمي سأل النبيّ ﷺ ، فقـال : يارسول الله ، إني رجل أسرد الصوم ، أفأصوم في السفر ؟ قال : **صم إن شئت وأفطر إن شئت** » [رواه الستة] (١)

وأحاديـث أخرى تبيّن أن الله جعل الإفطار في السفـر رخصة للمسلم ، فـإن شاء صام ، وإن شاء أفطـر وقضى ، إلا أن يكون هنالك أمر طـارىء في السفر يجعل الإفطار أقرب للتقوى كالقتال وغير ذلك .

---

(١) البخاري : ٣٠/ ٣٣/ ١٧/ ١١٢ . ملسلم : ١٣/ ١٧/ ١١٢١ . النسائي : ٢٢/ ٥٦/ ٢٢٩٦ . ابن ماجه : ٨/ ١٠/ ١٦٦٣ . الترمذي : حديث (رقم : ٧١١) .

فالتيسير في الدين واضح ، وهو التزام منهاج الله في حدود مسؤولية الإنسان ووسعه ، ومنهاج الله يبيّن حدود هذا التيسير .

و التيسير في الإسلام لايعني الكسل والتراخي والإهمال ، ولكنه يعني الجدّ والعزيمة في المضيّ في الحياة على نهج وصراط مستقيم ، يطلب الدار الآخرة والجنّة ورضوان الله . ولايعني التيسير أن المؤمن لا يُبتلى في الحياة الدنيا . إن المؤمن يبتليه الله في الحياة الدنيا ويمحّصه ليرى صدق ولائه إليه ، ووفاءه بعهده ، واستقامته على النهج ، أو غير ذلك ، لتقوم له الحجة في الآخرة أو عليه . يمضي المؤمن في الحياة وهو يعلم أنه يحمل رسالة عليه الوفاء بها ، وأنها أعظم رسالة ، رسالة الله إلى عباده . ويعلم أنه مكلّف بالصبر ، وأنه ماأُعطي أحد عطاءً أوسع من الصبر . ففي الحديث الشريف الذي يرويه أبو سعيد الخدري ، يأتي قول رسول الله ﷺ : « . . **ومن يصبرْ يُصَبِّرْهُ الله ، وما أعطي أَحد عطاءً أوسع من الصبر** » [رواه أحمد والشيخان] (١)

وتمتدُّ التكاليف على المسلم وتزداد شدّة لايهوّنها إلا قوة الإيمان وصدق الرغبة في الجنة . وتعلو التكاليف الربانيّة حتى تبلغ ذروتها في الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، على أن يكون الجهاد على الصراط المستقيم ، مستوفيا شروطه حتى يكون في سبيل الله .

فلا يعني التيسير اللجوء إلى الراحة والاستكانة إلى اللهو ، والقعود عن التكاليف . إن الحياة الدنيا للمؤمن مسيرة قصيرة يؤدّي فيها أمانة « **حملها الإنسان** » ، وعهداً موثَّقاً أخذه الله منه ، وخلافه في الأرض جُعِلت له ، وعمارة للأرض بحضارة الإيمان أُمر بها ، وهومحاسب على ذلك كله ، فأين مكان القعود والراحة ، وأين مكان الجري اللاهث وراء متاع الدنيا ؟! .

كلُّ هذه التكاليف هي في وسع الإنسان ، في وسعه الصادق ، لايضيّقه إلا الأهواء والشهوات والمصالح الدنيوية ووهن الإيمان . فيتحوّل الوسع الصادق إلى وسع كاذب

(١) البخاري : ٢٤/ ٥٠/ ١٤٦٩ . مسلم : ١٢/ ٤٢/ ١٠٥٣ . صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) (رقم : ٥٨١٩) .

يرى معه الأمـر الميسَّر شائكاً ، والليِّن قاسياً والهيِّن صعباً . إنَّ الإنسان بوسعـه الكاذب يريد أن يهرب من التكاليف الربانية ، ويريد أن يسوِّغ ذلك بأوهامه وأهوائه .

٢ - الغلوّ في الدين :

الغلـوّ في الدين هـو مجاوزة الحدود التي وضعها الله لنـا في كتـابة العـزيز وفي سنـة رسـوله ﷺ . تلك هي الحدود التي حـدّها الله في مختلف شـؤون الحياة ، وجعل لبعضهـا ميداناً يتنافس فيه المتنافسون على طريق الجنة وعلى نهج واضح وقواعد جلية :

﴿ .. تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلهم يتّقون ﴾ [البقرة : ١٨٧]

﴿ .. تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [البقرة : ٢٢٩]

﴿ .. وتلك حدود الله يبيّنهـا لقوم يعلمون ﴾ [البقرة : ٢٣٠]

﴿ تلك حـدود الله ومن يطع الله ورسولـه يدخلـه جنات تجري من تحتهـا الأنهار خـالـدين فيها وذلـك الفوز العظيم * ومـن يعصِ الله ورسولـه ويتعـدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذابٌ مهين ﴾ [النساء : ١٣ ، ١٤]

فهنـالك حدود حـدّدهـا الله سبحـانه وتعـالى في مـواطن كثيرة من التشريع : مثل أحكـام الصيام والـرفث إلى النساء ، وأحكـام الطلاق ، وأحكـام الميراث ، وغير ذلك . واعتبر القرآن الكـريم تجاوز هذه الحدود وتعدّيها معصيـة وظلماً ، والمحافظة عليهـا تقوى وفوزاً .

فهذا باب من أبوب الغلـوّ في الدين محرّم ومنهيٌّ عنه نهياً قاطعاً مع الـوعيد الشديد من الله .

وهناك فئات من الناس أعلمنا الله بأمـرهم وبأنهم لايعلمون حدود ماأنزل الله على رسوله :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله والله واسع عليم . ﴾ [التوبة : ٩٧]

هذه طائفة من الأعراب لاتلتزم حدود ماأنزل الله ، فكفرت بذلك بالله . ولكن هناك طائفة أخرى من الأعراب صدقت في إيمانها والتزامها حدود الله :

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيد خلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ [التوبة : ٩٩]

وإن من صفة المؤمنين أنهم حافظون لحدود الله لايتعدونها : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين ﴾ [التوبة : ١١٢]

الغلوّ هو مجاوزة الحدود التي حدّدها الله ، وعدم الغلوّ هو الاستقامة على النهج الذي نزل به الوحي الأمين على محمد ﷺ . وبهذه الاستقامة جاء الأمر من عند الله :

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرتَ ولا تتّبعْ أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرتُ لأعدل بينكم الله ربنا وربُّكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ [الشورى : ١٥]

مع كل كلمة من هذه الآية الكريمة يجب الوقوف والتدبّر حتى ندرك الأسس التي يقوم عليها عدم المغالاة . وكلها تنبع وترتبط بقوله تعالى : **فلذلك فادع واستقم كما أمرت**.. ، ثم يأتي عدم اتباع الهوى ، وإعلان الإيمان بما أنزل الله من كتاب ، وأمر الله بالعدل ، فالله رب الجميع يحكم بين الناس على أعمالهم حين يجمع بينهم يوم القيامة .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فاستقم كما أُمرتَ ومن تاب معك ولاتطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون ﴾ [هود : ١١٢ ، ١١٣]

﴿ **فاستقم كما أُمرت ..** ﴾ ! هذا هو النهج الحق باتباع أمر الله ، لاباتباع الهوى . وكذلك : « .. **ومن تاب معك ..** » ! المؤمنون كافة مأمورون بالاستقامة على منهاج الله ، ففي هذه الاستقامة نجاة من الغلوّ في الدين . ولذلك جاء الأمر بعد ذلك : « . . **ولا تطغوا** . . »! أمر حاسم من الله لعباده المؤمنين أن لا يغالوا فيقعوا في الظلم والطغيان وتجاوز الحدود التي حددها الله سبحانه وتعالى : إنَّ اتباع الهوى والركون إلى الظالمين من أهم أسباب المغالاة . فالظالمون في الأرض يفسدون على الناس إيمانهم ، حتى يتحكم الهوى ويندفع الناس على غير علم أو تقوى ، فيغالوا متجاوزين الحدود التي شرعها الله .

ولقد بدأ الغلو في الدين في أهل الكتاب حتى جعل اليهود عزيزاً ابن الله ، وحتى جعل النصاري المسيح ابن الله ، وامتدّ الغلوُّ فيه وتجاوز حدود ما أنزل الله :

﴿ **يـاأهل الكتاب لاتغلـوا في دينكم ولاتقولـوا على الله إلاّ الحق إنما المسيح عيسى ابن مـريم رسـول الله وكلمتـه ألقاهـا إلى مـريم وروح منـه فآمنـوا بـالله ورسوله ولاتقولـوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحـانه أن يكون له ولد له مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً** ﴾ [النسَاء : ١٧١]

فمن الغلوّ في الدين القولُ على الله بغير الحق ، والتجاوز لحدوده ، والافتراء عليه باسم الدين .

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **قل يـاأهل الكتاب لاتغلـوا في دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهـواء قوم قـد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ [المائدة : ٧٧]

فالغلو في الدين هو من غير الحق ، وكذلك اتباع أهواء الضالين المفسدين . وعدم الغلو هو التزام سواء السبيل ، السبيل الذي بيّنه الله سبحانه وتعالى لعباده .

وجاءت الأحاديث الشريفة لتؤكد معاني عدم الغلو ، أو تؤكد أن الغلو هو مجاوزة حدود ماشرع الله ، وعدم الغلوّ هو التزام هذه الحدود : فعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ

قال : « الدين يُسر ولن يغالب الدين أحد إلا غلبه» [رواه البيهقي في شعب الإيمان والبخاري والنسائي] (١)

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة .

« إن الدين يُسْر ولن يُشادّ الدين أحد إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجَة » [رواه البخاري والنسائي](٢)

« إن الدين يُسْر ! نعم ! إنه يُسر كما بيّنا أول هذه الكلمة ، لأنه بيّن الحدود التي يجب التزامها ، ولأن اليسر لايعني التفلُّت والكسل والتراخي ، والإدبار عن المسؤوليات ! فالاستقامة على أمر الله هي اليُسر .

وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال : **« إياكم والغلوَّ في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين »** . [**رواه النسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والبيهقي وأحمد والضياء في المختارة**] (٣)

ففي الغلوّ في الدين هلاك للأمة حين يفشو فيها الغلو ، ذلك لأن الغلوّ خروج عن منهاج الله ، وهلاك الناس والأمم لايكون إلا بالخروج عن منهاج الله .

وكان رسول الله ﷺ يطبّق منهاج الله في الواقع البشري في رعاية الله ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يطبقّون منهاج الله في رعاية النبوة الخاتمة ، فإن وقع غلوّ جاء التوجيه ليستقيم الناس جميعاً على أمر الله ، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال : « من هذه ؟ » قالت : هذه فلانة تذكر صلاتها . قال : **« مَهْ ! عليكم بما تطيقون ، فو الله لايملُّ الله حتى تملّوا »** وكان أحب الدين إليه دوام صاحبه عليه .

[رواه الشيخان] (٤)

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٣٤٢٠) .
(٢) المصدر السابق : (رقم : ١٦١١) .
(٣) أحمد : المسند ١/ ٣٤٧ . سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٣/ ٢٧٨ / ١٢٨٣ . صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٢٦٨٠) .
(٤) البخاري : ١٩ / ١٨/ ١١٥١ . مسلم : ٦/ ٣١/ ٧٨٥ .

ولذلك جاء حديث رسول الله ﷺ ترويه عائشة رضي الله عنها : « **أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ** » [رواه الشيخان] (١)

فالمداومة على العمل الصالح حافظ من الغلو فيها وضابط لها ولصاحبها حتى لايندفع فيتجاوز الحدود فيقع في الغلو .

وعن أنس قال : « **دخل النبيّ ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال** : « **ماهذا الحبل** » ؟ . **قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلّقت فقال : « لا ! حُلّوه . لِيُصَلِّ أحدكم نشاطه فإذا فتَر فليقعدْ** » [رواه الشيخان] (٢)

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « **هلك المتنطعون** » **قالها ثلاثاً** »

[رواه مسلم] (٣)

ومع ذلك فإن التكاليف في الإسلام تمتدُّ من الشهادتين إلى الشعائر ، إلى طلب العلم وتدبُّر منهاج الله وممارسته في الواقع ، وإلى الدعوة والبلاغ ، والتربية والبناء ، وإعداد الأجيال المؤمنة ، وإلى الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، إلى الامتداد في الأرض وإعمارها بحضارة الإيمان ، إلى غير ذلك من التكاليف الربانية ، امتداداً يتطلب العزيمة والجدّ ، والبذل والعطاء . ولكنها تكون دائماً في حدود وسع الإنسان ، في حدود وسعه الصادق . وتعظم التكاليف في البذل حتى تبلغ الجود بالمال والنفس :

﴿ **يـاأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١]

وترتبط التكاليف كلها بعهد موثق بين العبد وربّه ، ليكون هذا العهد ضابطاً وموجّهاً حتى لايقع تقصير وتفلّت ، ولايقع مغالاة وتجاوز .

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ١٦٣)
(٢) البخاري : ١٩/ ١٨/ ١١٥٠ . مسلم : ٦/ ٣١/ ٧٨٤ .
(٣) مسلم : ٤٧/ ٤/ ٢٦٧٠ .

إن الذي يدفع إلى الغلوّ هوى أو جهل . والذي يدفع إلى التقصير هوى أو جهل أيضاً ، وإن الحق هو الاستقامة على أمر الله ، كما نزل به الوحي الأمين ، وكما بلغنا إياه رسول الله ﷺ ، عن إيمان وعلم .

إن الجهل أو الهوى يدفع بعض الناس إلى أن يؤولوا بعض النصوص تأويلاً فاسداً ليسوغوا تجاوز الحدود بالغلوّ ، أو التقصير وعدم بلوغ الحدود .

إن التاريخ الإسلامي وواقع المسلمين اليوم يقدّم الأمثلة الكثيرة عن مثل هذه الانحرافات . وإن معالجتها لاتتمُّ بوضع شعارات . ولكنها تتم بعملية البناء المستمر الذي لايتوقف ، لتظلَّ الأمة أو الدعوة الإسلامية مصنعاً يدفع بالأجيال المؤمنة إلى الميدان ، لتنقذ البشرية مما يمكر به المجرمون في الأرض ، الظالمون المعتدون .

٣ - الوسط : نهجه وحدوده :

انتشرت هذه الكلمة أو المصطلح في عصرنا الحاضر ، وترددت الأمثال عن ذلك ، مثل : « **خير الأمور الوسط** » ! ولعلها كانت كلها ردود فعل لواقع كثر فيه الغلوّ ، أو كثر فيه التقصير . ولكنها لم تقدّم نهجاً يوضح حدود مايفعله المؤمن حتى لايقع في الغلو ولا في التقصير . وظلت أقرب إلى الشعار منها إلى النهج ، وكما ذكرنا قبلُ في موضوع اليسر أو موضوع الغلو ، نقول هنا كذلك إن الحق هو اتباع منهاج الله ، ففي منهاج الله ضوابط كاملة لتعين المسلم على عدم التقصير أو الغلو ، وعلى اتباع مايمكن أن نسميه « **وسطاً** » .

وإن أهم الضوابط التي يضعها الإسلام يمكن أن نوجزها بنقاط محددة ، لا مجال هنا لتفصيلها :

أ - صفاء الإيمان والتوحيد ومايتنتج عنه من ولاء خالص لله ، ولاء أول لايعلو عليه أيّ ولاء آخر ، ومنه تنبع الموالاة في الحياة الدنيا ، وكذلك العهد الأول مع الله ، العهد الذي تنبع منه وترتبط به عهود المؤمن في الحياة الدنيا ، العهد الذي ترتبط به جميع التكاليف الربانية . وكذلك الحبُّ الأكبر لله ورسوله . وكذلك سائر خصائص الإيمان

والتوحيد مما يمنع الهوى أن يطغى ويمنع شياطين الإنس والجن من أن يدفعوا المؤمن إلى الغلوّ أو التقصير .

ب - العلم الصادق بمنهاج الله ومصاحبته مصاحبة منهجيّة ، صحبة عمر وحياة مع تكامله وترابطه ، فلا يؤخذ جزء ويترك جزء . إن تدبّر منهاج الله بتكامله عامل أساسي في منع الغلو والتقصير .

جـ - الشعائر والأذكار : على الصورة التي بيّنها منهاج الله ، والاستقامة على هذا النهج .

د - النهوض إلى جميع التكاليف الربانية في حدود الوسع والطاقة ، حتى لايحصر المسلم نفسه في نوع من التكاليف فيقع في الغلوّ فيه ، ويقع في التقصير فيما سواه .

هـ المداومة على العمل الصالح كله ، فهو أحب الأعمال إلى الله وإن قلّ . والمداومة تقف حائلاً أمام الغلوّ ، وتظل تذكّر فتحول دون التقصير .

و - ويغذي هذا كله حسن الرعاية والتعهد ، والتربية والبناء ، والتدريب والإعداد ، وفق نهج محدّد لهذا كله ، نهج نابع من منهاج الله ملبٍّ لحاجة الواقع . إن التربية المنهجيّة التي يرافقها التدريب تحول دون الوقوع في التقصير أو الغلو .

فإذا كان الغلوُّ مرفوضاً والتقصير مرفوضاً ، وكلاهما ليس من منهاج الله ، فإن الوسط هو منهاج الله والاستقامة عليه ، عن صدق إيمان وصدق علم .

إن الذي فسد إيمانه وعلمه ، لن ينفعه مصطلح ولا شعار . إن الذي يفيد هو التعهُّد والبناء ، والنهج والتخطيط ، فإذا فقد الناس هذا وذاك فلا عجب أن يقع التقصير وأن يقع الغلو .

لذلك جاءت الآية الكريمة توضح لنا معنى التوسط أو الوسط أو سائر مشتقاتها :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسل عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه و إن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة : ١٤٣]

« فالـوسط » ضروري لتكون الأمة شهيدة على النـاس ، ولايتمّ هذا إلا بالاستقـامة على أمر الله وعلى المنهاج الرباني بتكامله وضوابطه وأوامره ونواهيه وتكاليفه . وجاءت الآية لتؤكـد هذا المعنى : ﴿ .. **إلا لنعلم من يتبع الرسـول ممن ينقلب على عقبيه** .. ﴾ . لقد جاء التكليف من عند الله بتغيير القبلة لينكشف أمـر من يخالف الرسول ﷺ وأمر من يتبعه . والله سبحانـه وتعالى يعلم أنه تكليف كبير : ﴿ .. **وإن كانت لكبيرة** .. ﴾ ، إلا أن يُسْـرَها يكـون عند ﴿ **الذين هدى الله** ﴾ . وإنه ابتلاء وتمحيص شـديد ، ولكن الله لايضيع إيمان المؤمنين ، فهو بهم رؤوف رحيم .

فاتباع منهاج الله – قـرآناً وسنة ولغة عربيّة – هو الـذي يوفّر للمسلم عدم التقصير الآثم وعدم الغلو الآثم ، بما يوفره منهاج الله من ضوابط سبق ذكرها .

ولو تابعنـا حالات التقصير والمغالاة لتبيّن لنا أن عدم وجـود الإعداد السليم والبناء والتدريب ، وعدم وجود النهج اللازم لذلك كله ، كان من أهم الأسباب التي دفعت إلى هذا أو ذاك .

لقد كثـرت الشعارات في واقع المسلمين اليوم ، وقلّ النهج والتخطيط ، وبخـاصة في أمور الدعوة والبلاغ ، والتربية والبناء والتدريب ، وسائر مراحل المسيرة .

إن الشعارات وحدها لاتفيد ، والمصطلحـات وحدها لاتفيد ، ونعم الشعار ونعم المصطلح عندما يرافقه نهج مفصل وخُطـة جليّة ، نهج وخطة يبلغان بنا الهدف على درب محدّد مرسوم ، حتى لايمتدّ التيه بالمسلمين .

فإلى الـدعوة والبـلاغ ، وإلى البناء والتربيـة والتـدريب ، لبناء الجيل المؤمن الـذي يعرف دربه فيمضي عليه دون عجز ولاتقصير يأثم به ، ودون غلوّ يهلكه .

٤ - الموازنـة :

نعتقد أن « الموازنة » هي القضيّة التي يجب أن يعيهـا المؤمن أثناء ممارسته لمنهاج الله في الواقع ، وهي المصطلح الذي يأخذ معناه وأسسه من منهاج الله .

إنها الموازنة بين مختلف التكاليف التي يجب أن ينهض لها المسلم ليوفى بعهده مع الله ، وهي الموازنة بين مختلف الظروف التي يمكن أن تطرأ عند ممارسة قضيّة واحدة ، وهي الموازنة بين نصوص متعددة في قضية واحدة ، وهي الموازنة بين الأوقات التي يؤدي فيها هذا العمل أو ذاك .

إن « **الموازنة** » بين مختلف الأمور مبدأ وارد في حياة الناس عامة . ولكن الاختلاف هو في الأسس التي تقوم عليها الموازنة ، ومدى الحرص على أن تكون الموازنة عادلة أمنية موفية بالعهد .

والموازنة مبدأ لاينحصر في الفرد ، ولكنه مبدأ تحتاجه الجماعة و الأمة في القضايا الصغيرة والقضايا الكبيرة . إنه مبدأ عام في حياة الناس جميعاً .

في حياة المؤمنين ، تكون الموازنة ممتدة في جميع الميادين ، وتقوم على ثلاثة أسس رئيسة ، منها تنطلق العوامل الأخرى التي تؤثر في الموازنة في حياة المسلم ، آخذين قضية الإيمان والتوحيد أساس كل تقدير وفكر وعمل .

- **المنهاج الرباني .**
- **الواقع الذي يُدرَس من خلال المنهاج الرباني .**
- **الوسع الصادق والمسؤوليات والتكاليف .**

الأساس الأول هو الأساس المتين الذي يدرس الواقع من خلاله ، وعلى ضوئه يفهم الوسع الصادق . والأساس الأول ، وهو منهاج الله ، يضمّ جميع القواعد والعوامل والضوابط التي توجه الموازنة وتضبطها حتى لاتقع في تقصير ولا في غلوّ .

والموازنة قضيّة ملازمة للمؤمن وللأمة ، تبرز الحاجة إليها بصورة مستمرة . ولذلك لايستطيع المسلم أن يظل معتمداً على غيره حتى يقيم الموازنة العادلة الأمينة ، فلا بد أن يتوافر لديه مايحتاجه من العلم بمنهاج الله ، حتى يفهم الواقع من خلاله ، وحتى يعي أبعاد وسعه الصادق الذي يحاسبه الله عليه ، وحتى يدرك مسؤولياته والتكاليف التي عليه .

ومن أجل ذلك تتضح أهمية ماعرضناه سابقاً من : **قاعدة النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، وركنيها ، والمشكلات الأربع الرئيسية وعناصر التنفيذ .**

ونبرز هنا في هذه المناسبة أهمية مصاحبة منهاج الله مصاحبة منهجيّة مصاحبة عمر وحياة ، كما عرضناها في أكثر من كتاب مع كامل شروطها ، ليكون منهاج الله هو الأساس الذي تقوم عليه سائر العوامل والعناصر عملياً لانظريّاً فحسب .

ونودّ أن نبرز كذلك قضية النهج والتخطيط التي تُمثل عنصراً رئيساً من عناصر التنفيذ ، والتي تكون هنا عاملاً أساسياً في نجاح الموازنة في حياة المسلم والأمة المسلمة .

حين يكون للمسلم خطة ونهج مقرران ، أو للجماعة أو الأمة ، فإن الموازنة تكون أيسر وأسلم وأدق ، وتكون أقرب للعدالة والأمانة . وإذا غاب النهج والتخطيط تضطرب الموازنة وتختلف الآراء ويتضارب الاجتهاد ، وقد يؤدي ذلك إلى فتنة .

والموازنة تمتد في جميع ميادين الحياة ، حتى تكوّن عاملاً من عوامل الجمال الفنيّ في الأدب ، العامل المنظم ، كما سميناه في **كتاب الأدب الإسلامي إنسانيّته وعالميته** . وكذلك تمتد الموازنة في ميدان السياسة والاقتصاد ، وفي حياة الفرد وحياة الأمة والإنسان عامة .

والموازنة يجب أن تكون إحدى قضايا التدريب في مدرسة الدعوة الإسلامية ، كما عرضناها في كتاب « **النظرية العامة للدعوة الإسلامية** » ، وكما عرضنا أنواع التدريب الأربعة : **الفوري والمرحلي والدوري والمستمر** .

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يدركون أهمية الموازنة ويمارسونها في حياتهم على أساس من منهاج الله .

فعندما أمر رسول الله ﷺ جماعة من المؤمنين أن يصلوا العصر في بني قريظة ، فأدركهم العصر في الطريق ، وازنوا بين هذا التكليف وبين تكليف إقامة الصلاة لوقتها ، واجتهد فريق فصلى العصر لوقته ، واجتهد فريق فصلى العصر في بني قريظة ، وما عاب

رسول الله ﷺ على أحد منهم موقفه ، حين وازن على أساس من منهاج الله والواقع الذي يفهمه من خلال منهاج الله ، ولم يكن الهوى أبداً أساس الموازنة .

وعندما تحرّك رسول الله ﷺ إلى فتح مكة المكرّمة صام وصام المسلمون . وعلى الطريق أفطر وأعلن إفطاره ، وسمّى الذين لم يفطروا عصاة . ذلك ليُعلِّم المسلمين الموازنة على أساس من منهاج الله والواقع الذي يفهم من خلال منهاج الله ، والوسع الصادق للمجاهدين في سبيل الله ، المقبلين على معركة متوقعة وقتال .

الأمثلة واسعة كثيرة على دقّة الموازنة في حياة النبوة الخاتمة وحياة الصحابة . وهي تقدّم لنا دروساً نتعلم منها على مدى الدهر .

من الناس من يريد أن يستغل مبدأ الموازنة ليتفلّت من التكاليف ، وليجعل من مبدأ اليُسْر في الإسلام تهاوناً وعجزاً وكسلاً ، فيهلك نفسَه بذلك . ونجد من يقيم الدنيا ويقعدها على قضيّة صغيرة في ميزان الإسلام ، ثم يصمت حين ترتكب الجرائم والكبائر والظلم الكبير .

وقد تجد المسلم اليوم يفرّط في حقوق أخوة الإسلام ، ويقطع حبالها بالظن والغيبة والنميمة والافتراء ، أو بكتمان النصيحة ، أو بعدم العون والمساعدة حين يحتاجها أخوه المسلم ، وفي الوقت نفسه يتمسك بقضايا ثانوية في ميزان الإسلام ، حتى أصبحت أخوة الإسلام في واقعنا اليوم لاتحتلّ المكانة الأمينة التي أمر الإسلام بها .

لقد اضطربت الموازنة في واقع المسلمين اليوم ، حين لم تقم على أساس من منهاج الله بتكامله وتناسقه وترابطه .

وتضطرب الموازنة أيضاً حين نأخذ قاعدة من منهاج الله ، فنعزلها عن سائر منهاج الله . ولكن الموازنة تستقيم حين تترابط قواعد منهاج الله في الصدور ، وفي الفهم والتدبر، والممارسة والتطبيق .

الموازنة هي السبيل إلى تجنّب الوهن والتقصير والغلو . إنها هي السبيل إلى اليسْر

والتيسير والوسط العادل ، حين تقوم الموازنة مستكملة لجميع أسسها وعناصرها وعواملها .

ويمكن أن نجمع الأسس والعوامل التي تقوم عليها الموازنة وعلى ضوء ماعرضنا كما يلي :

- **صفاء الإيمان والتوحيد .**
- **صدق العلم بمنهاج الله .**
- **وعي الواقع من خلال منهاج الله .**
- **مصاحبة منهاج الله مصاحبة منهجية صحبة عمر وحياة .**
- **الأخذ بمنهاج الله بتكامله وترابطه ، دون عزل جزء عن جزء أو قاعدة عن قاعدة .**
- **معرفة المسؤوليات والتكاليف الربانية من منهاج الله .**
- **معرفة المسلم لحدوده على أساس من وسعه الصادق وعلى أساس مسؤولياته وصلاحياته في النظام الإداري .**
- **النهج والتخطيط .**
- **التدريب على الموازنة وممارستها في الواقع تدريباً منجياً .**
- **النيّة والعزيمة على الوفاء بالمسؤوليات طاعة لله وعبادة له .**

الفصل الثالث
الفقـــه
وحضارة العصر الحاضر

إن الحضارة القائمة اليوم ممتدة في الأرض امتداد هيمنة وسلطان ، تحمل شعاراتها ، وفلسفتها وفكرها ، تنشرها وتدعمها وتغذيها دول كبرى مختلفة المذاهب في قضايا كثيرة ، ملتقيـة على أسس هذه الحضـارة ، تمضي بين صراع وتفاهم على المصـالح المادية وثـروات الشعوب .

حتى نحـدّد وجهة نظـر سليمة ومـوقفاً واعيـاً منها ، فـلا بد من أن نفهمهـا على حقيقتها ، ولابد أن نفهم إسـلامنا وديننا الحنيف الذي هو أسـاس الميزان والحكم ، ولابد أن ندرك بصورة أمينة موقف هذه الحضارة من الإسلام وشعوبه ودوله .

إن الأُسس التي يقـوم عليهـا الفقـه في الإسلام هـي : الإيمان والتوحيـد ، المنهـاج الرباني ، وعي الـواقع من خلال المنهاج الرباني . وعلى هذه الأسس يجب أن تقـوم نظرية عامة ونهج عام يعين على تحديد وجهة النظر والموقف .

حضارة العصر ممتدة في العـالم الغربي وفي اليابان والصين وروسيـا ، وأقطار أخرى تلعب دوراً مؤثراً في دعم هذه الحضارة وتغذيتها وانتشارها ، لقد كان هناك نظامان قويان يأخذان بهذه الحضارة ويتنافسان على مصالح متضـاربة ، هما : الرأسمالية وديمقراطيتها ، والشيـوعية وديكتـاتوريتهـا . واليوم ينفـرد النظام الـرأسمالي وديمقراطيتـه في امتداد هـذه الحضارة بعد زوال الاتحاد السوفياتي ، حتى خُيّل « لفوكويـاما » الكاتب الياباني الأمريكي صاحـب كتاب : « **نهاية التـاريخ والرجل الأخير** » أن الديمقـراطية الغـربية والأمـريكية بخـاصة هـي نهاية التـاريخ ، ولن يأتي شيء أبعـد من ذلك . ولقـد ضلّ في كتـابه هـذا ضـلالاً كبيراً عـرضنا لـه في كتـابنـا : « **التعـامل مع مجتمع غير مسلم من خـلال الانتماء الصادق إلى الإسلام** » .

لقد درسنا الفكر والفلسفة التي تقوم عليها هذه الحضارة في أكثر من كتاب ، كان آخرها : « المسلمون بين العَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية » .

هذه الحضارة - حضارة العصر - تقوم على أساس « العَلمانيّة » بصورة واضحة جليّة ، لاتخفي حقيقتها إلا من خلال مناورات سياسية وصراع المصالح وبصورة آنيّة سرعان ماتعود وتكشف عن وجهها الحقيقي .

« **والعَلمانية** » هي الأخذ بالدنيا ، بالحياة الدنيا ، بالمظاهر المادية فيها ، معزولة كل العزل عن «الغيب » الذي هو أساس الإيمان والتوحيد ، ومعزولة عن الدار الآخرة ، ومعزولة عن الدين ، إلا في مجال استغلال الدين لدعم موقف أو تسويغ عدوان ، أو ادعاء باطل .

أهم خصائص حضارة العصر ، نعرضها بنقاط موجزة دون تفصيلات ، حيث كان لكل واحدة منها دراسات خاصة :

- العَلمانية وما تحمل من تاريخ طويل من فكر وفلسفة وأدب وفن .
- الرأسمالية كنظام اقتصادي
- الديمقراطيه كنظام إداري سياسي .
- الحرية الفردية المطلقة في ميدان الجنس والشهوات .
- انتشار الزنا واللواط والفاحشة بأنواعها والجريمة المنظمة دولياً وقطرياً .
- العدوان على الشعوب الضعيفة .
- إثارة الفتن بين الشعوب بعضها ببعض ، وبين الشعب الواحد .
- نهب خيرات الشعوب وثرواتها خلال قرون طويلة من التاريخ .
- استغلال الدين والشعارات المحبّبة لدعم والمصالح الاقتصادية .
- العلوم المتطورة تطوراً كبيراً جداً .

● الصناعات المتطورة تطوراً كبيراً جداً .

● الأسلحة الفتاكة النووية وغيرها ، والجيوش الجاهزة للعدوان .

إن المظهر المشْرق لحضارة هـذا العصر هو التطور العلمي والصناعي الـرهيب ، مما وفّر لـلإنسان كثيراً من أسباب الـراحة ووسـائلها . ولكنَّ المجرمين في الأرض جعلـوا هذا المظهر مظلماً ، بما أثاروا من حروب ومجازر ، وعدوان وظلم ، وفتن واسعة .

إن هذا المظهـر من التطور العلمي والصناعي كـان أول عامل من عوامل التخـدير والإرهاب في حيـاة البشرية اليوم . ولما كانت المصـالح المادية هي الهدف الأكبر والأسمى لدول هـذه الحضارة ، استحدثت هـذه الدول وسـائل متعددة من التخديـر والإرهاب . فهي التي نشرت المخـدرات في الأرض ثمّ ادعت أنها تحاربها ، وهي التي نشرت إبـاحـة الجنس زنا ولواطاً ، وهي التي استغلت الدين في كل مـوقف تحتاج فيه إلى أن يكون الدين مخدراً ، حتى لايفيق النـاس على ويـلات جـرائمهم . فأطلقـوا حركـات التنصير لتكـون الممهدة للجيوش الزاحفة ، أو الممهدة للمؤامرات المتتالية .

لقد أصبح الدين والأدب والفن والفكر والفلسفـة في خدمة مصالح الدول الكبرى المتصارعـة ، وأكبر خدمة تؤدَّى لهم هي إبعـاد الناس عن حقائق الإيمان والتـوحيد ودين الله الحق - الإسـلام - حتى لا يُفطنَ لجرائمهم وإفسـادهم في الأرض ، والاكتفـاء من الـدين بالشعـارات ، ومن الأدب والفن إثارة الغـرائز والشهوات ، وتسخير العلم لتـوفير هذه الإثارة ، والمضيّ في تخدير النـاس عن حقائق الجريمة والظلم والعدوان ، وعن تمزيق الشعوب وإضعافها ! .

الأقمار الصنـاعية . والـوصول للقمـر وغيره ، الطـائرات والصواريخ والـدبابـات وسـائر مظاهـر العلم والصنـاعـة أعطت رخاء لطـائفـة من النـاس ، وجوعـاً وحـرمانـاً للمـلايين حسب اعتراف هـذه الدول نفسهـا . الملايين من النـاس تموت في الحروب التي يشعلها المجرمون ، والملايين يموتون من الجوع والمرض ، والملايين يعيشون مشوّهين .

لم يستطع نكسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق إلا أن يكشف في كتابه الأخير , « ماذا بعد السلام » الصورة السوداء المفزعة لحضارة أمريكا والفساد الآخذ بالانتشار في حياة الأسرة الممزّقة وميدان التعليم المضطرب ، وأجواء الفن وميادين الجريمة . قدم نيكسون هذه الصورة بالأرقام والاحصاءات .

إن أخطر جرائم هذه الحضارة أنها تصدُّ عن سبيل الله وتدفع البشريّة إلى لهيب الفتنة والفساد والكفر والشرك ، ليُلقى الملايين الملايين في جهنم حين يموتون على الشرك . هذه الجريمة لايقدّر خطورتها أهل العلمانية لأنهم لايؤمنون بالدار الآخرة ولا بالجنة ولا بالنار . ولكنّ الدار الآخرة حقٌّ سواء آمن هؤلاء أم لم يؤمنوا ، وسيُلقى الكافرون والمشركون في جهنّم حقّاً أصدق من حقائق علوم الدنيا ، حين تفاجئهم الحقيقة بعد الموت وبعد البعث ، ويرون أن « النار » حق :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردُّ ولا نكذّبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين * ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة قالوا ياحسرتنا على مافرّطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون* وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ [الأنعام : ٢٧ - ٣٢]

هذه هي الصورة المفزعة المرعبة لما بعد الموت ، يتجاهلها العَلمانيون وتتجاهلها حضارة العصر ، وتُلقي بالملايين من البشر في جهنم ، كما ألقت بالملايين منهم ضحايا الحروب الإجرامية . إنها الصورة المفزعة ولكنها الحق .

والسؤال الذي قد يُثيرة بعضهم : هل نحارب العلم والصناعة والتطور ؟

هل الإسلام يريد إلغاء كل منجزات هذه الحضارة لأن الحياة الدنيا لعب ولهو ؟!

هـذا السـؤال نفسُه يثيره شيـاطين الإنس والجنّ حتى يفتنـوا النـاس عن إيمانهم . وكأنهم يقولـون : لن نحارب العلم والتطـور والصناعـة ، وسنمضي باستغلال ذلـك كله لتأمين مصالحنا الدنيوية مهما تكن النتائج بعد الموت .

ونحن نجيب ونقول : : كلا ! إن الإسـلام لايريد إلغاء منجـزات العلم والصناعة التي تقدّم للناس الخير . إن الإسـلام هو الذي يدعو إلى هذا العلم وإلى هـذه الصناعة ، ولكن الفرق الـرئيس هو أن الإسـلام يريـد أن يربط العلم والصنـاعة ومنجـزاتهما بالإيمان والتوحيد ، ويـريد أن يربط حياة النـاس كلهم في كل ميادينها بالإيمان والتـوحيد ، ليُنقِذَ الإنسان من فتنة الـدنيا ومن عذاب الآخرة . وليُسْعِدَهُ في الدنيـا سعادة الطهر ويُسْعِدَه في الآخرة سعادة الخلود ، والحياة الـدنيا هي الفرصة الوحيدة للإنسـان ليتخذ موقفه وقراره ، ولامجال للرجوع بعد الموت لإصلاح ماأفسده في الدنيا :

﴿ حتى إذا جـاء أحَدَهم الموتُ قـال ربِّ ارجعون * لعلّي أعمل صـالحاً فيما تركتُ كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾

[المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠]

يريـد الإسلام أن يـربط العلم ومنجزاتـه بالإيمان والتـوحيد ، حتى يتحـول عطاء العلم والصناعة والأدب والفن إلى خير الإنسان وصلاحه .

هنـالك فرق كبير في العمـل نفسه بين أن يـرتبط بـالإيمان والتوحيـد أولا يـرتبط . فالاقتصـاد يصبح رباً وفساداً في الأرض عنـدما ينعـزل عن الإيمان والتوحيد ، والسيـاسة تصبح خداعـاً ومؤامـرات وحروباً وفتنـاً في سبيل الشيطان ومـايثيره من مطامع دنيـوية ، والفنّ يصبح إثارة شهوات ، والجنس يصبح لهيباً في حمأة الفاحشة ، والسلاح يصبح قتلاً إجـراميـاً وإبادة للنـاس كما فعلـوا في هيروشيما ونـاجا زاكي والبـوسنـةوكشمير وفلسطين وراوندا وبـورندى والصـومال وغير ذلك . وهـذا كله ينشر القلق والفزع وينـزع الأمن من حياة الناس .

الإسلام لايحرّم الجنس ، ولكنه يحلله في الزواج الطاهر ويحرّمه في الزنا . الإسلام لايمنع الاقتصاد ولكنه ينظمه حتى يأخذ الناس جميعاً حقوقهم ، فيحرّم الربا حتى لاتغنى طائفة وتموت طائفة . الإسلام يأخذ بالسلاح ليحق الحقّ ويبطل الباطل على ميزان ربّاني حق . هذا كله بإيجاز هو الأمانة التي يحملها الإنسان والعهد الذي أخذه الله منه ليعمر الأرض بحضارة الإيمان فيزدهر الطب والهندسة وسائر العلوم ، وتزدهر الصناعة ، كل ذلك لمنع الفتنة والفساد ، ونشر الصلاح والخير في الأرض على الناس جميعاً .

هكذا يحرّم الإسلام الفساد في الأرض والخبائث والظلم والعدوان . ويستغلّ العلم والصناعة والسلاح وكل قوة ييسّرها الله من أجل تحريم هذا الفساد في الأرض ، ومن أجل نشر الأمن والعدل والحق على أسس ربّانيّة ، وليس على أساس الأهواء وصراع المصالح المادية من خلال نظرة معزولة عن الدار الآخرة .

والعلم والصناعة والتطور المادي فتحة الله للناس جميعاً للمؤمنين وللكافرين ولكل من ينهض ويسعى في هذا الكون الممتد :

﴿ ألم تروا أن الله سخّر لكم مافي السموات ومافي الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾
[لقمان : ٢٠]

﴿ ولولا أن يكون الناس أُمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضّة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ﴾
[الزخرف : ٣٣، ٣٤]

إن الكون مفتوح أمام الإنسان على قدر مايفتحه الله له . مفتوح لكل من يبذل ويجد ويسعى . إنه مفتوح للمسلم والكافر . ولقد رأينا كيف أن اليابان خطت خطوات واسعة في العلم وهي في ظل الوثنية ، والاتحاد السوفياتي نال من العلم قدراً كبيراً وهو في ظل الكفر والإلحاد والدعوة إليه ، وأمريكا وفرنسا وانكلترا وألمانيا وغيرها نالت درجات من

العلم متفاوتة . والمسلمون ، لما نهضوا وجدّوا وبحثوا كانوا قادة العالم وأساتذته في جميع العلوم . ونحن اليوم تخلّفنا دون أيّ مسوّغ لتخلّفنا ، إلا أن هانت عزائمنا ، وفسدت أفكارنا وانحرفت عن النهج الذي عزّت به ، فأصابنا ما أصابنا بما كسبت أيدينا .

ماهو بعد ذلك موقف هذه الحضارة العصرية منّا ومن ديننا الإسلام ؟ لقد عرضتُ رأي هذه الحضارة في ذلك في كتاب : « **التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام** » وعرضنا رأي هذه الحضارة في الإسلام وموقفها منه من أقوال قادة دول هذه الحضارة ورجالها وأدبائها ومختلف مستوياتها ، من نصوص وأحداث لا وهم فيها ولا خيال ، ولا ظن ولااستنتاج . عرضنا ذلك من خلال خمسة كتب صدرت عن قادة ورجال الفكر والسياسة .

وخلاصة ذلك أنهم يرون الإسلام الحق الذي جاء به محمد ﷺ يعطل أطماعهم في نهب الشعوب وظلمها والعدوان عليها ، ويرفض كل فتنة وفساد وظلم ، ويصدّ أهل الفساد عن فسادهم ، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى دين الله لينتشر الخير والحق ، والأمن والصلاح ، والعدل بين الناس ، إلا الذينْ ظلموا منهم ، ذلك كله على أساس من منهاج الله الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لذلك ، ومن أجل مصالحهم حاربوا الإسلام حرباً لا هوادة فيها منذ بعث الله محمداً ﷺ ، ومكروا مكراً شديداً .

ولكنهم وجدوا اليوم ، كما يقول نيكسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق ، أن الإسلام يمثل عاصفة مقبلة عليهم ، وأنه بدلاً من أن يواجهوها فليحرفوها . ويوضح هذه المواقف في كتابة الأخير فيقول إن هناك مسلمين معتدلين يمكن أن يدعموهم ماداموا يؤمّنون مصالحهم .

لقد عرفنا حتى الآن الحضارة المعاصرة وعرفنا موقفها من الإسلام من أقوال ونصوص رجالها ومن أعمالهم ومواقفهم ، منهم من أنفسهم ، دون افتراء عليهم ولا ظلم لهم .

فما هو فقه الإسلام تجاه هذه الحضارة ، وما هو الفقه الذي يجب أن يحمله المؤمن الصادق في دينه ، الصادق مع الله .

إننا نبيّن هنا القواعد الرئيسة التي يجب أن يقوم عليها الفقه أمام هذه الحضارة . إننا نبيّن هذا للمؤمن الصادق الذي يريد حقاً العزّة للإسلام ، ويريد أن يصل إلى رأي واضح جليّ . إننا نبيّن هذا للمؤمن الجاد الذي يريد أن ينهض لمسؤولياته كما أمره الله ، ولايريد أن يتفلّت منها ويبحث عن فقه المساومات والتنازلات والاسترخاء . فأولئك لهم فقه آخر غير فقه الإسلام .

إن واجب المؤمن الصادق الذي يحبّ أن يطيع الله ورسوله هو أن ينهض ليتدبّر منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية - صحبة منهجيّة ، صحبة عمر وحياة ، ليعرف من منهاج الله مسؤولياته التي وضعها الله في عنقه والتي سيحاسبه عليها ، وليردّ جميع قضاياه صغيرها وكبيرها إلى منهاج الله ، في حدود مسؤولياته ووسعه الصادق .

قبل ذلك لايستطيع المسلم أن يجد فقهاً حقّاً عادلاً إلا أن يُلقَّن تلقيناً دون أن يكون قادراً على الحكم على مايُلقَّن ، فيصيب ويخطىء ، وقد ينحرف ويضلّ ، ويلقّنه شياطين الإنس والجن زخرف القول فيهلك به .

إن الإسلام يقدّم الفقه للذي يريد أن يتّبع الإسلام صادقاً ، أما الذي يريد أن يتبع هواه ، أو أن يجعل من إسلامه شعارات يهتف بها ويتبع غيرها تحت طلاء من الإسلام ، فأولئك يجدون مايحتاجون عند أوليائهم من شياطين الإنس والجن .

إن المسلم ، حين يتدبّر منهاج الله كما ذكرنا ، سيجد أن أول تكليف ربّاني عليه أن يكون داعية يبلّغ رسالة الله إلى الناس ، يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد ، بوضوح وجلاء ، وعلم وصدق ، وقوة حجة وبيان ، بالحكمة والموعظة الحسنة . أما إذا شُغِلَ عن هذا التبليغ وعن هذه الدعوة ، وأخذ يدعو يوماً إلى الاشتراكية حتى إذا بطل سحرها ، هبَّ يدعو إلى الديمقراطية يصبغها بصبغة رقيقة من الإسلام ، ثم يدعو معها إلى العَلمانية ،

وإلى الحداثة ، ويبدل كلّ حين دعوته حسب آخر صرخة من صرخات الفكر الضال المضل ، يهلك نفسه بها ويهلك الآخرين ، دون أن يكون قادراً على رد الأمور إلى منهاج الله ، فعندئذ سيُتعب نفسه وهو يبحث عن مسوّغ لضلاله بتأويل فاسد للآيات والأحاديث ، أو بشعارات زاهية مثل ضرورة الواقع ، والمصلحة العامة ، والتكتيك ، ويظل كذلك حتى يرى الفاجعة التي أوقع نفسه فيها بنفسه .

إن أول موقف يطلبه فقه الإسلام من المسلم الصادق الذي يحب أن يعرف مسؤولياته أمام هذه الحضارة ، هو أن يكون داعية إلى الإيمان والتوحيد داعية إلى الله ورسوله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، ليخترق الحضارة بدعوته ودينه ، دون أن يسمح لها أن تخترقه وتخترق فكره . فإذا تخلى عن وضوح دعوته وجلائها ، فقد خسر أول سلاح في الميدان ، وعرّض نفسه لهزيمة تلو الهزيمة ، وخسر رضاء الله ، وخسر احترام الآخرين الذين يعرفون دينه ، ويعرفون أنه يخفي حقائق عن دينه خوفاً أو مماراة أو ضعفاً .

أما موقفنا من العلوم والصناعة ، وأما فقه الإسلام عن ذلك ، فهو أن المسلم أولى الناس بهذه العلوم ، فيجب أن يأخذها ويسعى إليها ، ليجعلها قوة للإسلام وحماية لدينه وتمكيناً له في الأرض . وكذلك ليوجهها كلها لخير الناس وصلاح حالهم بدلاً من أن تكون قوّة للشرّ والفساد والجريمة والظلم .

يجب أن يكون الداعية قويّ الإيمان شديد الثقة بربه ، قويّ العلم بمنهاج الله ، يدرس الواقع من خلال منهاج الله ، ثم يرسم خطته النقيّة للدعوة إلى الإسلام ، إلى الإيمان والتوحيد ، لدعوة الناس إليه ، بوضوح وصدق ، يطابق قوله عمله ، لايدخل في مساومات على عقيدته ودينه ، ولايتحوّل إلى داعية لتلك الحضارة ، لفلسفتها وفكرها ، وفنّها وأدبها ، ومجونها وفسقها ، ولكن نأخذ من علومها التطبيقية وصناعتها . (١)

---

(١) تراجع الكتب التالية للاستزادة حول هذا الموضوع : « النظرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء » ط : ٣ (ص : ١٤٧ - ١٥٤) . « لقاء المؤمنين - الجزء الثاني » الباب الثامن : حضارة الإيمان وعمارة الأرض بها : (ص : ٣١٥ - ٣٤٧) « التعامل مع مجتمع غير سملم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام » : الباب الثاني ، الباب الرابع ، الخامس ، السادس . « المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية » : الأبواب الأول والثاني ، الثالث ، التاسع .

عندما نراجع تاريخنا الحديث ، ونبحث عن الثمار التي جنيناها من دعوة أولئك الذين أخذوا يلهثون وراء حضارة الغرب ويدعون بدعوتها خلال أكثر من قرن ، نجد أن أكثر ما أخذناه الاضطراب الفكري وزعزعة الإيمان ، وتقليدهم بالفسق والفجور ، والشعر المنثور ، والمخدرات والخمور ، وإباحة الفاحشة ، وإطلاق حرية الفتاة والفتى في ميدانها ، ونزع الحجاب ، وغير ذلك من مظاهر عبث الحياة ولهوها ، ثم القليل القليل من العلوم والصناعة ، حتى أصبحنا نعدّ من الدول المتخلفة أو النامية أو العالم الثالث المزدرىٰ ، ثم التمزّق والصراع فيما بيننا ، ثم ضياع أجزاء كثيرة من ديار المسلمين ، وبعض الذي لم يضعْ باحتلال عسكريّ ، نزع منه حكم الإسلام وانحلّت عراه فيه . ليت الذين صارعوا وأفنوا أقلامهم كي يدخلوا الشعرّ الحرَّ ، أو نماذج الرقص أو غير ذلك ، ليتهم جاهدوا ليدخلوا صناعة تعزّ أُمتهم !

إن العلوم متواصلة في حياة الإنسان ، ساهمت فيها جميع الشعوب ، وجعلها الإسلام حقّاً للناس جميعا لايحلّ كتمها ، على أن تظل مرتبطة بالإيمان والتوحيد ودعوته . وجعل الله حب البحث في الكون والنظر فيه من فطرة الإنسان . ولكننا لانؤمن أن هذا العلم وحده هو الذي يرسم منهج التفكير ، ومنهج العلم البشري ، حتى جعل أصحاب هذا المصطلح من العلم إلهاً في الحضارة المعاصرة ، فتركوا الإيمان والتوحيد ورسالة الله . كذلك كانت بعض الشعوب في مراحل سابقة من التاريخ يحدثنا عنها القرآن الكريم :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين . فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ [غافر : ٨٣-٨٥]

لاننكر دور تجارب الشعوب كلها ، ولا نحاربها لأنها من غيرنا ، ولكننا أمة لنا رسالة في الحياة هي أعظم رسالة ، إنها رسالة الله إلى عباده ، فلا نرفض أن نستفيد من

التجارب البشرية في ميدان التطبيق ، من خلال الشروط التالية :

١ - أن نردّ ذلك إلى منهاج الله كما أُمرنا ردّاً أميناً .

٢ - أن يكون الذي نأخذه ليس تصوراً للحياة والكون ، ولا فلسفة علمانية أو مادية ، ولكن نأخذ التجربة البشرية في ميدان العلوم والتطبيق . وما عداه فنحن أغنى الأمم بالزاد ، علينا أن نقدّم هذا الزاد للناس كافّة وندعوهم إليه ، فما لدينا هو الأصدق والأوفى والحق .

٣ - أن نعيد صياغة مانأخذه ونربطه بالإيمان والتوحيد ، ليصبح قوة للخير والصلاح ، والعدل والأمن ، لينصهر ذلك في قلب النظرية الإسلامية .

٤ - حين نريد أن نستفيد من التجربة البشرية ، التجربة الإنسانية ، خاضعة للشروط السابقة ، فإننا نريد أن نستخلص منها «لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » لانريد أن نأخذ « الفرث والدم » ، والفتنة والفساد : ﴿ **و إن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾ [النحل : ٦٦]

المراجـــع

المرجـــع	المؤلـف
القرآن الكريم وتفسيره :	
تفسير القرآن العظيم دار المعرفة - بيروت ٣ ١٤٠ هـ ١٩٨٣م	أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت : ٧٧٤هـ)
تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن دار الرَّيان للتراث - القاهرة	أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي (ت : ٦٧١ هـ)
جامع البيان عن تأويل القرآن (ط : ٣) - ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م . مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر - القاهرة	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠هـ)
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية) تحقيق وتعليق : عبدالله الأنصاري ، السيد عبدالعال السيد ابراهيم ، محمد الشافعي الصادق العناني (ط : ١) ١٣٩٨هـ - ١٩٨٣م - الدوحة	أبو محمَّد عبدالحق بن عطية الأندلسي (٤٨١هـ - ٥٤١ هـ)
النهر المادّ من البحر المحيط تحقيق د . عمر الأسعد دار الجيل - بيروت	أبو حيّان الأندلسي (٦٥٤هـ - ٧٤٥ هـ)

المراجـــع

المرجـــع	المؤلـف
السنة :	
سنن أبي داود ومعه كتاب : معالم السنن للخطّابي (٣١٩ هـ - ٣٨٨ هـ) إعداد وتعليق : عزّت عبيد الدعّاس دار الحديث - حمص - سوريا (ط : ١) (١٣٨٨هـ ١٩٦٩)	أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي : (٢٠٢هـ - ٢٧٥ هـ)
سنن ابن ماجة حققه ووضع فهارسه بالكمبيوتر د. محمد مصطفى الأعظمى (ط : ٢) - (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) شركة الطباعة - العربية السعودية .	أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٢٠٧هـ - ٢٧٥ هـ)
سنن الترمذي أشرف على التعليق والطبع عـزت عبيـد الدّعّاس المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع استانبول - تركيا .	أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي : (٢٠٩هـ - ٢٧٩هـ).
سنن النسـائي بشرح الحافظ جـلال الـدين السيوطي وحاشية الإمام السندي	أحمد بن شعيب بن دينار النسائي ٢١٥هـ - ٣٠٣ هـ

المراجـــع

المرجـــع	المؤلـف
اعتنى به ورقمه ووضع فهارسه عبدالعال عبدالفتاح أبو غدة (ط : ٢) - (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت	(٢١٤هـ - ٣٠٣ هـ)
سلسلة الأحاديث الصحيحة : (ط : ٣) - (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) المكتب الاسلامي - بيروت	محمد ناصر الدين الألباني
صحيح البخاري : فتح الباري بشرح صحيح البخاري صححه وحققه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبدالباقي قام بإخراجه وأشرف على طبعه : محب الدين الخطيب . دار المعرفة بيروت .	البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤هـ -٢٥٦هـ) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : (٧٧٣هـ - ٨٥٢هـ)
صحيح مسلم بشرح النووي دار إحياء التراث العربي	مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (٢٠٤هـ - ٢٦١هـ)

المراجـــــع

المرجـــــع	المؤلـف
بيروت - لبنان (ط : ٣)	محي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١هـ - ٦٧٦ هـ)
صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) المكتب الإسلامي - بيروت (ط : ٣) - (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)	محمد ناصر الدين الألباني
الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الربّاني	أحمد بن حنبل الشيباني : (١٦٤هـ - ٢٤١هـ) تأليف وترتيب أحمد عبدالرحمن البَنا
موطأ الإمام مالك رواية يحيى بن يحيى الليثي شرح وتعليق أحمد راتب عرموش (ط : ١) (١٣٩٥هـ - ١٤٧١م) دار النفائس - بيروت	مالك بن أنس الأصبحي (٩٣هـ - ١٧٣هـ)
الفقـــــه :	
أعلام الموقعين عن رب العالمين (ط : ٢) (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م) دار الفكر - بيروت	شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (ت : ٧٥١هـ)

المراجـــع

المرجـــع	المؤلـف
بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٦٦ : ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م . مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - مصر	محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي
البُرهان في أصول الفقه (ط : ١) - ١٣٩٩هـ حققه وقدمه ووضع فهارسه د . عبدالعظيم الديب على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني	أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف : (١٤١٩هـ - ٤٧٨هـ
روضة الناظر وجنّة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومعه شرحه : **نزهة الخاطر العاطر** (ط : ٢) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .	موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي الدمشقي (٥٤١ - ٦٢٠هـ) عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى بدران الدومي الدمشقي
سبل السلام بشرح بلوغ المرام من جميع أدلـــة الأحكـــام : (ط : ٢) ١٤١٦هـ/ ١١٩٦م) دار المعرفة - بيروت	محمد بن إسماعيل اليمني الصنعاني (ت : ١١٨٢هـ)

المراجـــــع

المرجـــــع	المؤلـــف
السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (ط: ٤) - ١٩٦٩م دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت	تقيّ الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية : (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ)
علم أصوله الفقه (ط: ٨) الدار الكويتية للطباعة والنشر التوزيع	عبدالوهّاب خلاّف
الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة (ط: ١) - (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) مؤسسة الرسالة - بيروت	عبدالرحمن بن معلاّ اللويحق
مصادر التشريع الإسلامي فيما لانصّ فيه (ط: ٢) - (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م) دار القلم - الكويت	عبدالوهاب خلاّف
مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصي وساعده ابنه محمد إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين	تقيّ الدين أحمد بن تيميّة (٦٦١هـ - ٧٢٨ هـ)

المراجـــــع

المرجـــــع	المؤلـف
السيرة النبوية :	
السيرة النبويّة لابن هشام حققها : مصطفى السقا وابراهيم الأنباري وعبدالحفيظ شلبي (ط : ٢) (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م) شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر	عبـــدالملك بن هشـــام بن أيـــوب الحميَري : (ت : ٢١٨هـ)
زاد المعاد في هدى خير العباد حققه : شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط (ط : ١) - (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)	محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيّم الجوزيّة (٦٩١هـ-٧٥١هـ)
الرحيق المختوم (ط : ٥) - (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) دار القبلة بجدة ومؤسسة علوم القرآن بيروت	صفيّ الرحمن المباركفوري
التاريـــخ :	
حياة الصحابة ضبطه وصححه وشرحه ورتب فهارسه نايف العباس ومحمد علي دولة (ط : ١) - دار القلم - دمشق	محمد يوسف بن محمد إلياس الكندهلوي (ت : ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م)

المراجـــع

المرجـــع	المؤلـف
تاريخ الخلفاء حققه : قاسم الشماعي الرفاعي ومحمد العثماني (ط : ١) - (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) دار القلم بيروت	جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ)
المعاجم :	
تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق عبدالستار أحمد فراج ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .	محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ١١٤٥هـ - ١٢٠٥هـ
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار	إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٤٤٥هـ/ ١٦٠٣م)
القاموس المحيط تحقيق مكتب التراث في دار الرسالة مؤسسة الرسالة (ط : ١) - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م	محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : (ت : ٨١٧هـ)
لسان العرب دار صادر بيروت	محمد بن مكرم بن منظور (٦٣٠هـ - ٧١١هـ)
معجم مقاييس اللغة تحقيق عبدالسلام محمد هارون دار الكتب العلمية	أحمد بن فارس بن زكريا (ت : ٣٩٥)

المراجـــع

المرجـــع	المؤلـف
بعض المراجع من كتب المؤلّف :	
بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية : (ط : ١) (١٤١٧هـ-١٩٩٧م)	د. عدنان علي رضا النحوي
الحوافز الإيمانيّة بين المبادرة والالتزام : (ط : ٤) - (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)	د. عدنان علي رضا النحوي
دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية : (ط : ٦) - (١٤١٤هـ - ١٩٩٦م).	د. عدنان علي رضا النحوي
الشورى وممارستها الإيمانية : (ط : ٣) - (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨)	د. عدنان علي رضا النحوي
منهج المؤمن بين العلم والتطبيق : (ط : ٥) - (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)	د. عدنان علي رضا النحوي

فهـرس كتـــاب
الفقـــه
امتـــداده وشمولـــه في الإســـلام
بـين المنهـاج الربـاني والواقـع

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
الإهـــداء	٥
الافتتـاح	٧
مقدمة وتمهيد	٩
الباب الأول	
الفقه بين المنهاج الربّاني والحكمة والواقع	١٣
الفصل الأول : امتداد الفقه وشموله في الإسلام :	١٥
١ – كلمة تمهيدية	١٥
٢ – امتداد التكاليف والمسـؤولية في الإسلام وامتداد الفقه معها	١٥
٣ – امتداد الفقه في مختلف ميادين الحياة	٢٢
٤ – أهم العـوامل التي تؤثـر في امتـداد المسؤوليـات وامتداد الفقه معها :	٢٤
أ – الإيمان قبل العلم	
ب – العلم بمنهاج الله والواقع من خلاله	
ج – الوسع الصادق للإنسان وليس الوسع الكاذب	
د – معـرفـة المسلم لمسـؤولياتـه ، ومعـرفتـه لحدوده على ضوء مسؤولياته ووسعه	

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
هـ – الموازنة الأمينة .	
و – الحوافز الايمانية والمبادرة الذاتية وحدودها	
ز – أن لايخوض المسلم فيما لايعلم .	
ح – النظام الإداري .	
الفصل الثـــاني : المسؤولية بين الوسع الصادق و الوسع الكاذب	٣١
الفصل الثـــالث : ما هو الفقه ؟! مفهومه وتعريفه	٤٣
الفصل الـــرابع : بين الفقه والحكمة	٥١
الفصل الخامـس : الفقه بين المنهاج الرباني والواقع	٥٩
الموجز والخاتمة :	٧٥
الباب الثاني	
القـــواعـــد والأســـس	٨٧
الفصـــل الأول : بين الإيمان والعلم وبين النهج والتخطيط تمتد طريق النصر	٨٩
الفصل الثـــاني : مصدر التشريع في الإسلام وأبواب الاجتهاد	٩٣
الفصل الثـــالث : قواعد أربع :	١٠٧
(١) القاعدة الأولى : قضية الإيمان والتوحيد .	١٠٧
(٢) القاعدة الثانية : المنهاج الرباني أساس الفقه والتصور .	١١٠
(٣) القاعدة الثالثة : دراسة الواقع من خلال المنهاج الرباني .	١١٣
(٤) القاعدة الرابعة : الممارسة الإيمانية والعمل الصالح .	١١٥

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الباب الثالث	
الفقــه في الميـدان	١٢١
تمهيـــــــد	١٢٣
الفصـــــل الأول : بني الإسلام على خمس	١٢٧
الفصـل الثـــاني : ذكر الله	١٣٣
الفصل الثـــالث : في سبيل الله	١٤٧
الفصـل الـــرابـع: أمانة الكلمة	١٥٥
الفصـــل الخامـــس : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.....	١٦٥
الباب الرابع	
الفقه وحضارة العصـر	١٧٧
الفصـــــل الأول : بين عهـد النبـوّة الخاتمة والصحابـة وبين واقعنـا المعاصر أين طريق النصر ؟!	١٧٩
الفصـل الثـــاني : أين الوسط والتيسير بين الوهن والتقصير وبين الغلو والتدمير - اتباع منهاج الله يوفّر الموازنة الأمينة	١٩١
١ - اليسر والتيسير في الإسلام	١٩١
٢ الغلو في الدين	١٩٥
٣ - الوسط : نهجه وحدوده :	٢٠٠
٤ - الموازنه	٢٠٢
الفصل الثـــالـث : الفقه وحضارة العصر الحاضر	٢٠٧

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
المراجـــــــــع	٢١٩
الفهـــــــــرس	٢٢٩
كتـــــبالمؤلـــــف	٢٣٣

كتب للمؤلف

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
أولاً : الفكر والدعوة الإسلامية والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط ١
٢	أضواء على طريق النجاة	ط ٢
٣	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ٥
٤	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٥	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٦	النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٧	منهج لقاء المؤمنين	ط ١
٨	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
٩	لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف	ط ٤
١٠	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط ٤
١١	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال	ط ١
١٢	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط ١
١٣	الإسلام أركان وبناء - تذكير ونصح	ط ١
ثانياً : أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج والخطة للدعوة والبلاغ :		
١٤	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٤
١٥	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
١٦	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ٣
١٧	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٢
١٨	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط ٤

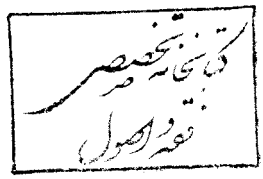

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
١٩	الخشوع	ط٢
رابعاً : بعض القضايا الفكرية في الواقع وبعض أحداثه :		
٢٠	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٣
٢١	الشورى لا الديمقراطية	ط ٤
٢٢	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٢٣	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٢٤	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ٢
٢٥	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٢٦	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية	ط١
٢٧	على أبواب القدس	ط٢
٢٨	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٢٩	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
رابعاً : الأدب الملتزم بالإسلام والنصح (النقد الأدبي) ، والردّ على المذاهب الأخرى :		
٣٠	الأدب الإسلامي - إنسانيته وعالميته	ط ٣
٣١	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١
٣٢	الحداثة في منظور إيماني	ط ٤
٣٣	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط ٢
٣٤	أدب الوصايا والمواعظ : منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
٣٥	لماذا اللغة العربية	ط ١
خامساً : الدواوين الشعرية		
٣٦	ديـوان الأرض المباركـة	ط ٦

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٣٧	ديوان موكب النور	ط ٤
٣٨	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٣٩	ديوان مهرجان القصيد	ط ١
٤٠	أكثروا ذكر هاذم اللذات - أب يرثي ابنه	ط ١
سادساً : الملاحم الشعرية		
٤١	ملحمة فلسطين	ط ٥
٤٢	ملحمة الأقصى	ط ٢
٤٣	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط ٣
٤٤	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٤٥	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٤٦	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٤٧	ملحمة الغرباء	ط ٣
سابعاً : في الدعوة الإسلامية باللغة الإنجليزية :		
٤٨	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ١
ثامناً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٤٩	لقاء المؤمنين - الجزء الأول « باللغة التركية »	ط ١
٥٠	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «باللغة التركية »	ط ١
٥١	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع « باللغة الانجليزية »	ط ١
تاسعاً : علوم أخرى :		
٥٢	دراسة الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة «بالانجليزية»	ط١

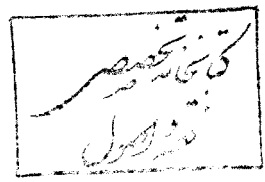

دار النحوي للنشر والتوزيع

تلفون وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧

ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري والإخراج بالتعاون مع : مركز حسن للطباعة – الرياض – هاتف ٤٠٥٥١٤٥/٠١